رواية

المسْترنمون

حسنى حسن



المسَرْنمون

رواية

حسني حسن

" أنشد استيعاب كل شيء

وصولاً للجوهر ذاته

في العمل، في البحث عن الطريق"

بوريس باسترناك

(١)

الآن...

حدث نفسه بعزم.

كانت السكين المنسية فوق الطاولة العتيقة قد استلبت روحه نهائيا. كانت قريبة، بل في يده منذ سنين، حتى لو عمي عنها كل ذلك العمر. أغمض عينيه متحاشيا التحديق في النصل المثير الذي لاح لقلبه بعيدا وسرابيا، إذ يتمدد بريقه ويتقلص، يلتم ويتشظى، ويعربد بنشوة هازئة على إيقاع تردده وذهوله. كان يعرف أنها خطوته الأخيرة لا غير، ويستريح، لكنه لن يخطوها. دفعة بسيطة لبوابة تتحصن خلفها الرجولة، ويده يحسها ثقيلة معطلة ومطمورة تحت رديم هياكلهم المنهارة.

لن تكون رجلاً أبدا، أبدا.

قلبه الطافح بالغيظ لم يلقنه أحد درس الاشمئزاز. ولد ممرورا.

وكان يقين الخسارة دينه ومذهبه، فهل يتظاهر بالنفخ في جذوة غضب لا تشعل حطب القلب؟ لصالح من؟

من بعيد جاء هدير الموج المكتوم، وخربشات المطر المنثال على شيش النافذة العالية مع بشائر نوة رأس السنة، وفى نفس اللحظة التي انزلق فيها الغطاء، كاشفًا عن ساقيه المشعرتين العاريتين لهبة الريح الباردة المنسلة، أحس بلسع أنفاس شريكه وزفراته الساخنة تكاد تكوي قفاه وأذنيه. كان كل منهما قد أسلم نفسه لسلطان النوم ساعة مديرا ظهره لرفيقه، وبينما أرقه هو نداء السكين المتوامض غرق كمال في نومه الثقيل بعد أن استنفده تعب النزال الليلي.

غمغم النائم بكلمات مبهمة وهو يقلب شفتيه ويزمهما ليقبلهما ثانية بامتعاض، فتنبعث من فمه نصف المفتوح رائحة زنخة تشيع في هواء ليل الحجرة المحبوس، ظل يقاوم مد غثيانه المتنامي بإصرار، لكن لما عن للنائم أن يفرد ذراعه قاصدا احتضان عري صديقه المشتعل بخشونة الأغطية، استطاع بمعجزة أن يقفز من السرير إلى

المرحاض القريب ليتقيأ ويرجع خاويا خفيفًا تتخبط خطواته المتلاشية في كراكيب حجرة كمال وكتبه المبعثرة، فكر بسعادة وزهو صبياني أنه قد داس بقدميه على جمهورية أفلاطون، وحقائق بوذا النبيلة ورأس مال كارل ماركس وزرادشت نيتشه وكلمات سارتر وغيرها، قبل أن يأتيه همسه واهنًا:

- محمد.

وما وجد في نفسه ميلاً لمعرفة ما إذا كان كمال يتمتم، فحسب، باسمه في أحلامه التي لن يحيط أحد بحقولها، ولا يأمل هو أن يرعى فيها. جلس على حافة الفراش ذاهلاً عن عريه، وامتدت يده السمراء الناعمة بأصابعها الطويلة المسحوبة، وعروقها النافرة، لتقبض على السكين المغوية، أراح باطن النصل العريض على عنقه و صدره وفخذه متلذذًا بحس البرودة المنسربة من صمت المعدن إلى الدم، ممتلئًا بوحدته الوفيرة، وبصدمة الحار والبارد.

- محمد.. أنت صاحٍ؟

كان صوته ممتلئًا هذه المرة، بدا له سؤال كمال نابيا مستفزا.

كيف يقرب عينيه النوم في ليلة كهذه؟

دون كلمة زيادة نهض كمال يبتغي مفتاح النور، أزاح الضوء أشباح الساعات المنقضية من أمام عيونهما. وحدها خبطات المطر على النافذة الموصدة، وصخب الموج العالي من ناحية الميناء الشرقي في فجر العام الوليد، ظلت تردد ما عاق بصدريهما من روائح الدم والعطن. جمدت نظرة محمد على جسم الفارع بعضلاته النافرة وكرشه الصغير، نزولاً إلى موطن الألم والاشتهاء، إلى بيت السر الصليبي المشرع في فراغ وجوده الملتبس، حيث استقرت لثوان معدودة طويلة ومعذبة.

انتبه كمال إلى نظرة صديقه الشاب، تعاين وفرته الذكورية فتذكر عريه، وبسرعة اختطف الجلباب الأبيض المرمي على الأرض يواري به سوءته وخجله أفاق محمد:

- تخجل من عريك؟

- كل إنسان يخجل من عريه.

أنصت محمد إلى رنين صوت كمال النحاسي من غير أن يستغربه، خفض المتحدية أخيرا وقد انبعث بداخله رغبة يائسة في المقاومة حتى الموت، همس بكلمات بطيئة

مخطوطة يذكره بالليالي الأولى معا قبل سفره إلى الخليج بحثًا عن أب وهوية، وسعيا وراء تاريخ ثابت لا يراوغ:

- قلت لي غير ذلك يومها، وأنا صدقتك وتبعتك، هل نسيت؟

تذكر محمد ابتسامة صديقه الغريبة، وهو يعترف له يوما:

- من تظنني؟ أنا لست أنا. هناك شخص آخر يسكنني، لا شخص واحد، بل مئات يتنازعون هذا القلب، هل أقول لك بماذا أوشوشهم؟

فرقعت ضحكته المدوية يابسة بلا فرح، فأدرك محمد كم يعاني صديقه ويشقى.

- أحرضهم على أن يقتتلوا ويقتتلوا بلا توقف، أن يحافظوا على النار متأججة لتأكل الأخضر واليابس في روحي فلا يبقى سوى التراب والنار، أحفن منهما وأهدئ عواء الذئب بصدري.

- أفهم.

- أنت لا تفهم شيئًا، هل تظنني مجنونًا؟

- تحت جلدك شيخ بجبة وعمة.

زم كمال شفتيه وعقد حاجبيه مفكرا قبل أن يجيب بحسم:

- ولا هذا أيضا، حتى لو كان جدي قد أفلح وجعلني أختم القرآن في العاشرة.

سحب كمال الغطاء المنزلق إلى الأرض يشده حول وسطه بعناية متهيئًا للعودة إلى النوم، رد عليه بضيق:

- لم أنس، حاول أن تنام الآن، أو اتركني لأنام.

تناهى إليهما صوت المؤذن من الزاوية المجاورة يوقظ النيام لصلاة الفجر، وبلا مقدمات، قفزت صورة رحاب بحجابها الأنيق إلى وعي محمد، كانت قد ودعته وهو يغادر فيلا مريم وفى حضنها استسلم خالد لنوم بريء مترع بالأحلام اللذيذة، همست ضارعة:

- لا تغب علينا.

أشاح بوجهه غاضبا من نفسه، وخرج دون أن يجيبها بكلمة، كان صاحيا كفاية ليفهم ما تقصد، لكنه لم يقدر، أو يقدر ولا يرغب.

الرغبة! كل شيء في حياته مذبوح بسكين الرغبة، كل شيء وضع محمد السكين - التي نسيها في يده كل ذلك الوقت - في مكانها فوق الطاولة القريبة، وبدأ يرتدي ملابسه

بتمهل صامت، طافت نظرة كمال نصف الصاحية على السطح البراق للنصل، لحظة واحدة ثم انتتر من فراشه نافضا عن حواسه كل أثر للنوم، لمح محمد الرعشة الخفيفة التي ألمت بيد صاحبه لترفع السكين بين أصابعها بينما يسأل ذاهلاً:

- كانت معك؟ طول الليل؟

أجابه محمد بهزة لا مبالية من كتفيه مبتهجا بمتابعة كمال المبهور الأنفاس وهو يضغط على الكلمات التي تخرج من بين شفتيه مبتورة لاهثة:

- كنت نوي..........؟

بقي سؤاله الناقص معلقا في الفراغ الحائر بين نظرتيهما. أحس محمد بتسلية حقيقية في مراقبة اضطراب صاحبه.

- نفسك؟

- أنت.

انسابت الكلمة من بين شفتيه واضحة بطيئة ومصممة، كان استفسار كمال وجيها ومربكًا، ألم يعترف له

يوما أن قتل النفس حرية، وأنه في اللحظة المناسبة لن يمنع نفسه من التبول فوق أفكارهم وأحلامهم وشرائعهم جميعا؟

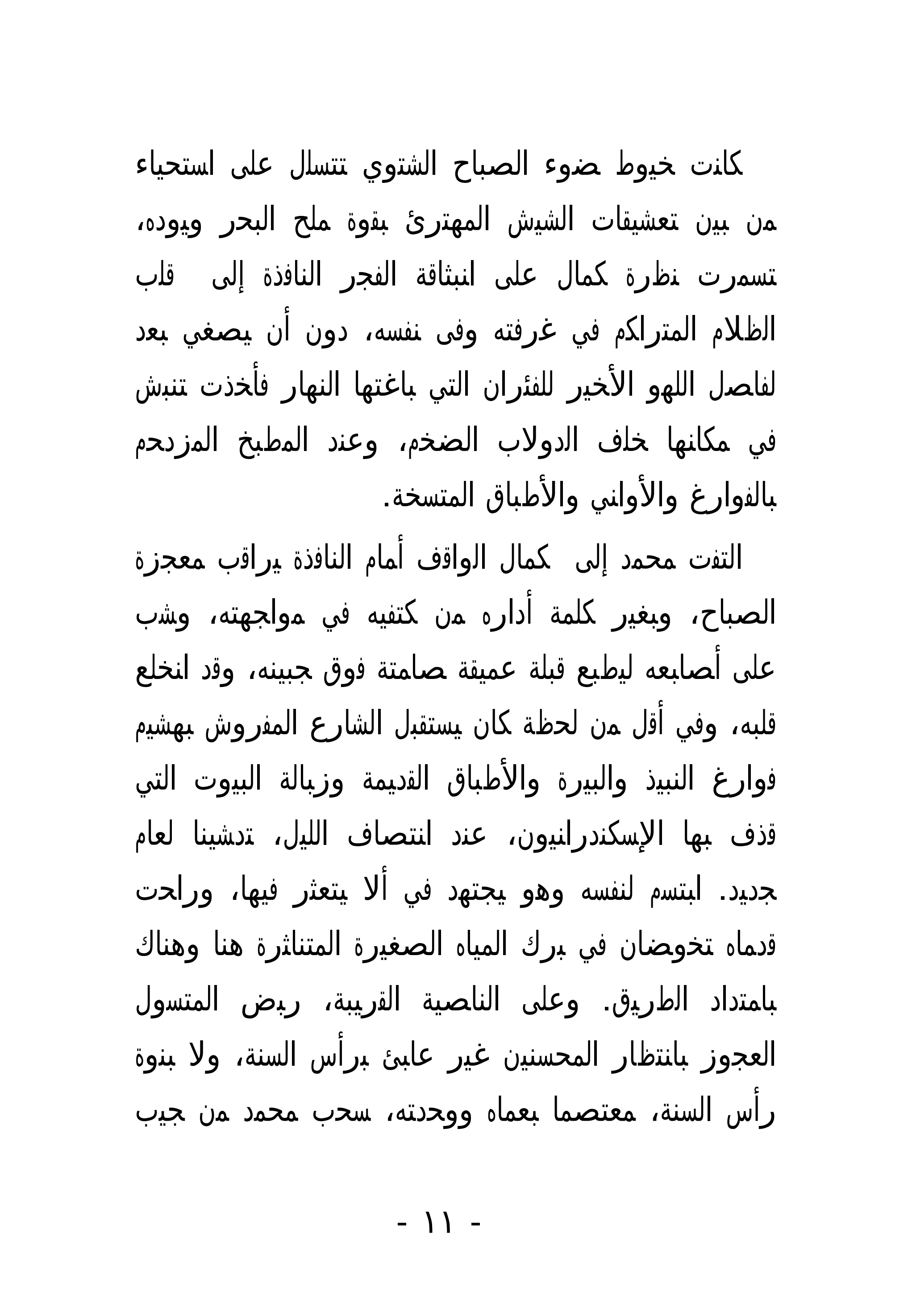
انتصب كمال في فرشته وراح يردد بغموض وقد اكتسى وجهه بصفرة متألمة ونشوانة:

-أنا؟ أنا؟

في تساؤله الذاهل عذاب ويقين. كان يجابه تهديدا ابتعثته سكين محمد من قبر منسي في خرابات الروح. اللحظة؟ الذكرى؟ أم الوعد؟ قد يصل الوعد أحيانًا مشفوعا بالتماعة عين صديقه الصغير بسوادهما الداكن وأهدابهما الكثيفة. كان يهيئ أفراحه غير راضٍ، غير نادم، غير مصدق، وغير راغب، أسر لقلبه المستقر في صدره آمرا:

- صمتًا أيها القلب.

استطاعت نعمة الصمت بين رجلين كانا قد احترفا الكلام، وفى العالم البعيد الآخر، خلد كل شيء إلى هجعة قصيرة بعد انقضاء الصلاة وتوقف المطر، وآب الموج إلى سكون مفاجئ، علق محمد شنطة يده المنتفخة بنسخ ديوانه الشعري الجديد على كتفه، ووقف يتأمل زجاجات البيرة الفارغة كأنه يحصيها.



كانت خيوط ضوء الصباح الشتوي تتسلل على استحياء من بين تعشيقات الشيش المهترئ بقوة ملح البحر وبرده، تسمرت نظرة كمال على انبثاقة الفجر النافذة إلى قلب الظلام المتراكم في غرفته وفى نفسه، دون أن يصغي بعد لفاصل اللهو الأخير للفئران التي باغتها النهار فأخذت تنبش في مكانها خلف الدولاب الضخم، وعند المطبخ المزدحم بالفوارغ والأواني والأطباق المتسخة.

التفت محمد إلى كمال الواقف أمام النافذة يراقب معجزة الصباح، وبغير كلمة أداره من كتفيه في مواجهته، وشب على أصابعه ليطبع قبلة عميقة صامتة فوق جبينه، وقد انخلع قلبه، وفي أقل من لحظة كان يستقبل الشارع المفروش بهشيم فوارغ النبيذ والبيرة والأطباق القديمة وزبالة البيوت التي قذف بها الإسكندرانيون، عند انتصاف الليل، تدشينا لعام جديد. ابتسم لنفسه وهو يجتهد في ألا يتعثر فيها، وراحت قدماه تخوضان في برك المياه الصغيرة المتناثرة هنا وهناك بامتداد الطريق. وعلى الناصية القريبة، ربض المتسول العجوز بانتظار المحسنين غير عابئ برأس السنة، ولا بنوة رأس السنة، معتصما بعماه ووحدته، سحب محمد من جيب

حقيبته ورقة جديدة بعشرة جنيهات كورها في يده ثم أفلتها بخفة لتقع، كأنما بغير قصد، في حجر العجوز الذي قبض عليها صامتًا. عبر الزقاق الضيق النازل إلى الكورنيش مسرعا، وفى دقيقة واحدة كان التاكسي القديم يتعثر به في طريقه إلى فيلا مريم بالأزاريطة، وهو يواصل حلمه.

(٢)

ماذا لدي لأرويه عن كل تلك السنوات البعيدة؟

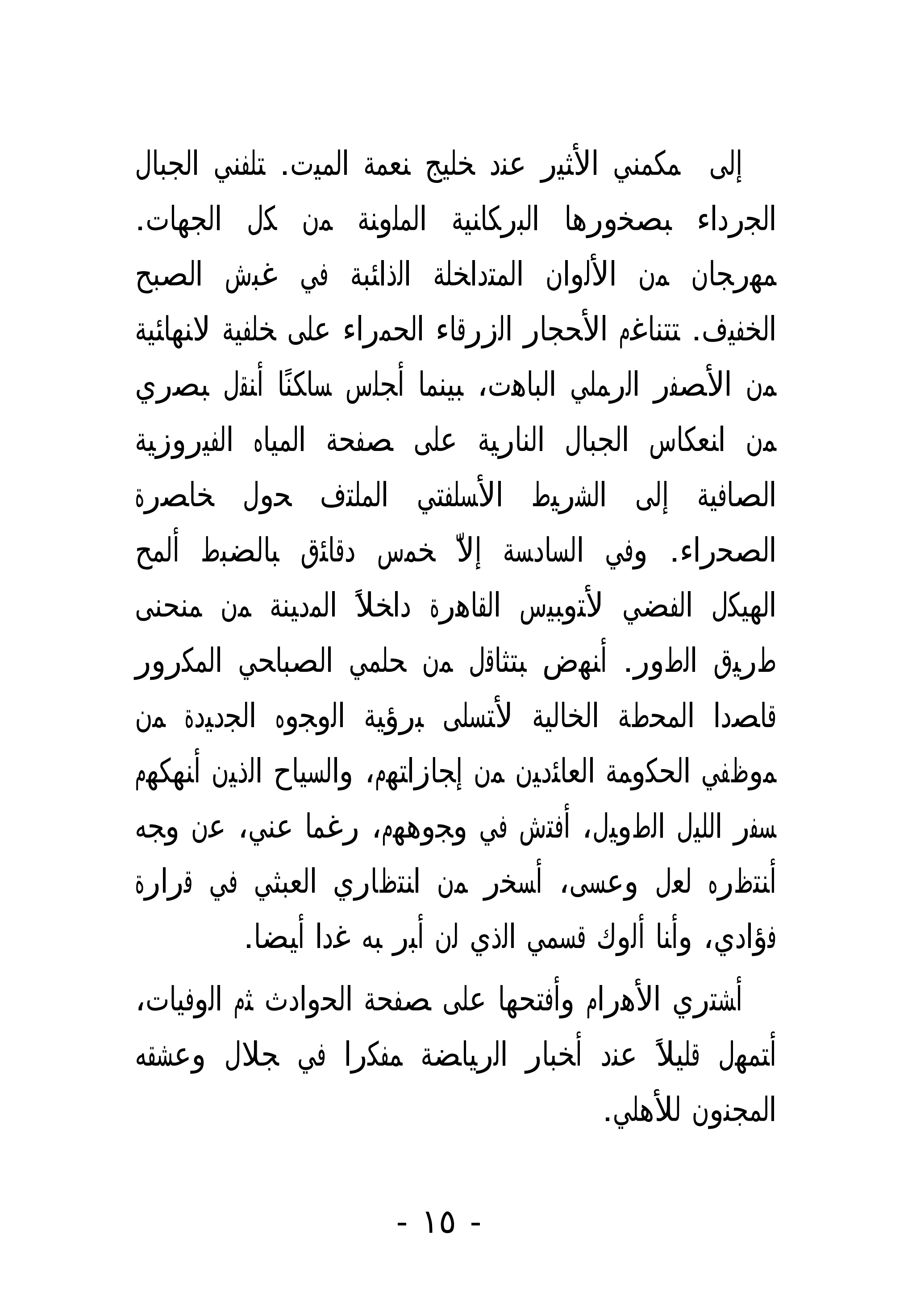
حكايات فقد، وغرور شباب، مزق من صور وأشباح لأناس عششوا بروحي طويلاً لتفرخ الليلة على الورق. ليس الحنين ما يجرجرني إلى الإبحار في ذكراهم، ولا هو الأمل المراوغ في استعادة شيء مما كان، بل اليأس. رغبة عنيدة في اجتثاث ما تبقى من جذور محبتهم بقلبي طمعا في حرية الروح التي سلبوني. فلتمثل كلماتي بأجداثهم، فما يضير الشاة سلخها؟ كان الأب يتموثاوس قد حذرني بكلماته الشحيحة المواربة وبصوته الأخن:

- فلندع الموتى يرقدون في سلام، إياك ونبش القبور يا ولدي.

أما محمد فكتب مؤكدا:

ابصق على الأحياء والموتى معا، وابصق علي قبل الجميع، وتمترس جيدا وراء ضلالاتك الأثيرة عن نقائك وفساد الكون، أيها المسكين! أيها المسكين.

أقف في مرمى نظراته الضجرة عاريا وحيدا وكهلاً، تزحف بي السنون نحو الأربعين، بلا مقاومة، أسلمت رايتي لدبيب الدم الفاتر في عروقي مودعا جهل الطفولة وحماقة الشباب. صفر بين أصفار لا أول لها ولا آخر، وحارس لقبور الموتى ورمال الصحراء، أرعى الرياح الخرساء من أركان الوجود الأربعة، غير نادم على شيء، ولا منتظر لأي شيء، مختارا نفيت إلى هذا الجبل البعيد، أُعلم الصغار مبادئ الكتابة، احتمل صخبهم وشيطنتهم بلا اكتراث، وأحاذر ألف مرة قبل أن أسمم عقولهم البريئة بغوايات الحروف. في الصباح أنزع نفسي من الفراش الدافئ، من أحلامي المشوشة كسحابة من غبار تذروها أقدام القطيع، من حضن خالد المبتسم إلى ما لا أرى في منامه. أترك باب الشاليه الحكومي الصغير مواربا وأنزل. متمهلاً، درجات السلم الخرسانية التي صبها اليهود في مستوطنهم العائدة.



إلى مكمني الأثير عند خليج نعمة الميت. تلفني الجبال الجرداء بصخورها البركانية الملونة من كل الجهات. مهرجان من الألوان المتداخلة الذائبة في غبش الصبح الخفيف. تتناغم الأحجار الزرقاء الحمراء على خلفية لانهائية من الأصفر الرملي الباهت، بينما أجلس ساكنًا أنقل بصري من انعكاس الجبال النارية على صفحة المياه الفيروزية الصافية إلى الشريط الأسلفتي الملتف حول خاصرة الصحراء. وفي السادسة إلاّ خمس دقائق بالضبط ألمح الهيكل الفضي لأتوبيس القاهرة داخلاً المدينة من منحنى طريق الطور. أنهض بتثاقل من حلمي الصباحي المكرور قاصدا المحطة الخالية لأتسلى برؤية الوجوه الجديدة من موظفي الحكومة العائدين من إجازاتهم، والسياح الذين أنهكهم سفر الليل الطويل، أفتش في وجوههم، رغما عني، عن وجه أنتظره لعل وعسى، أسخر من انتظاري العبثي في قرارة فؤادي، وأنا ألوك قسمي الذي لن أبر به غدا أيضا.

أشتري الأهرام وأفتحها على صفحة الحوادث ثم الوفيات، أتمهل قليلاً عند أخبار الرياضة مفكرا في جلال وعشقه المجنون للأهلي.

وعندما أصل الشاليه يكون خالد قد استيقظ وبدأ يتمطى في الفراش بكسل، قبل أن يفيق تماما، ويرمقني بعينيه اللامعتين الضاحكتين، ثم بقفزة واحدة يتعلق في رقبتي ويهبني قبلته الصباحية. أحمله إلى الحمام لأشطف وجهه الدقيق، وبري الملمس كوجهه أمه بالماء البارد والصابون، مأخوذًا بالشبه الكبير بينهما، ومنتشيا بملاحظة ارتعاشة الصحو الفاتنة، ألبسه زى المدرسة، ثم نجلس لنفطر معا، وهو مندفع في ثرثرته البهيجة التي تصيبني عدواها بالحماسة لحظة واحدة، وأنطفئ، أهز رأسي برثاء رخيص على الذات موقنًا أنه ليس لي، كما لم تكن أمه أو أبوه لي.

في طريق العودة من المدرسة ظهرا، تكون شمس شرم الشيخ قد اعتلت برج الحريق، وراحت ترمي بسهامها اللاهبة على وجهينا وظهرينا، فيستسلم كل لضجره وأحلام يقظته. أعرف أني أسمم طفولته بمزاجي الصفراوي العجوز، وأسرب إلى عروقه، ملتاثًا، بعضا من دمنا الفاسد، يا ربنا الرحيم! لماذا علق أبوه في رقبتي هذه الأمانة الثقيلة وذهب؟ هذا الحجر الكبير يشدني أكثر فأكثر نحو الأعماق التي لم أشته يوما مقاربتها؟

قال محمد جادا:

- بطيء الفهم، محدود الخيال، لكنك أكثرنا ثباتًا على الأرض بأخلاقياتك التافهة التي اخترعتها لنفسك.

- أما أنت فالخيال الحر ذاته، تطير متعاليا باتجاه النجوم.

ركز نظراته فوق شفتي المقلوبتين امتعاضا وهمس لنفسه مستغربا:

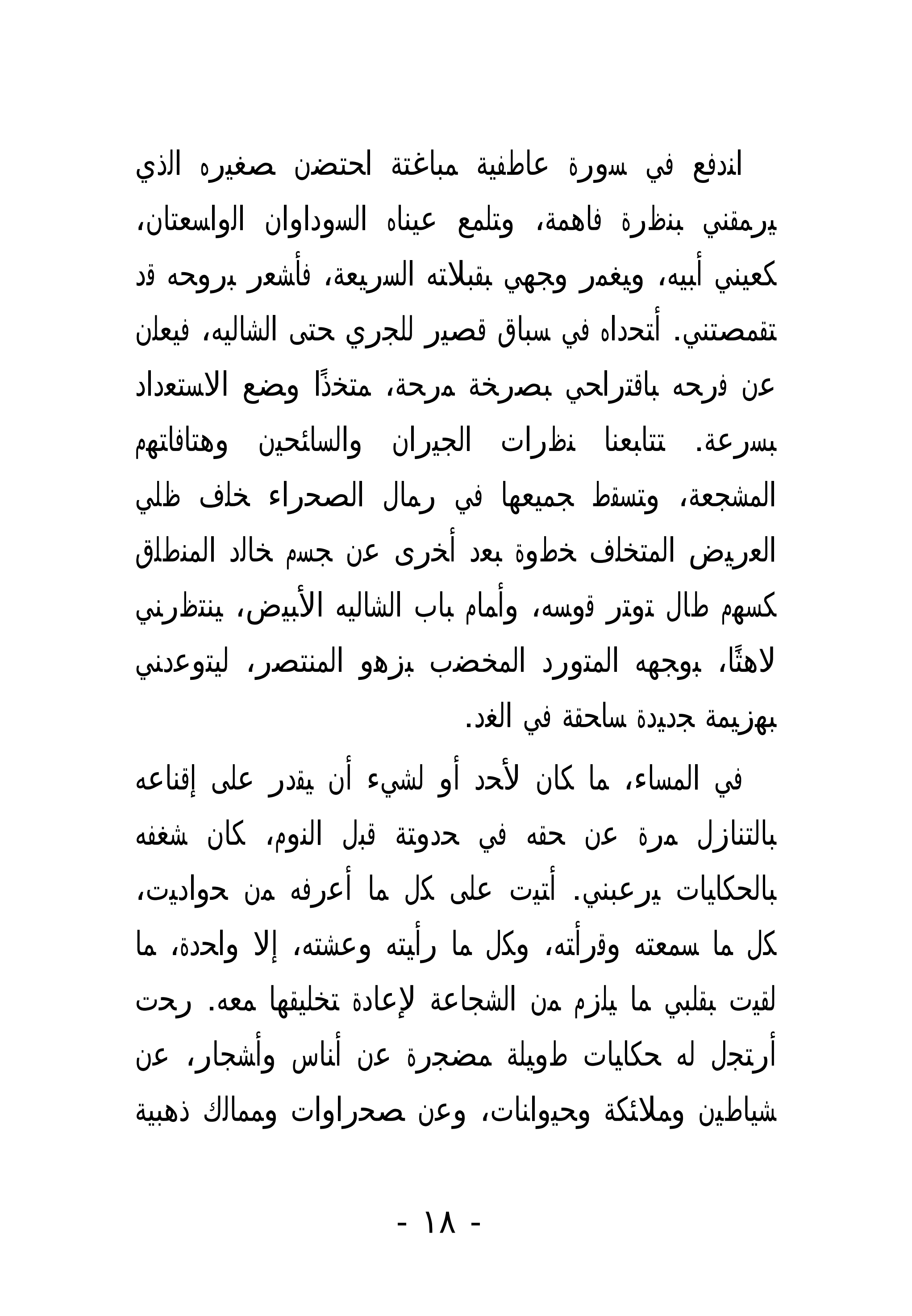
- أي خيال؟ وأية نجوم؟ هل تقبل مني نصيحة يا صديقي؟

فلتسارع بمعالجة نفسك من الشعر الركيك قبل أي شيء آخر.

قهقه راضيا وهو يخبط على كتفي بيده داعيا إياي لمشاركته حفل ابتهاجه العارض، ثوانٍ قليلة ثم يقول:

- سأقول لك من أكون حقًا إذا كنت تهتم لذلك. أنا كلب الشوارع الذي تعرفه، يرميه الصبيان بالطوب.

عضضت على شفتي بقسوة حتى أوشك الدم أن ينبثق منها، وما لمحت في كلماته الميلودرامية أدنى مسحة من الإشفاق على الذات أو التألم لها.



اندفع في سورة عاطفية مباغتة احتضن صغيره الذي يرمقني بنظرة فاهمة، وتلمع عيناه السوداوان الواسعتان، كعيني أبيه، ويغمر وجهي بقبلاته السريعة، فأشعر بروحه قد تقمصتني. أتحداه في سباق قصير للجري حتى الشاليه، فيعلن عن فرحه باقتراحي بصرخة مرحة، متخذًا وضع الاستعداد بسرعة. تتابعنا نظرات الجيران والسائحين وهتافاتهم المشجعة، وتسقط جميعها في رمال الصحراء خلف ظلي العريض المتخاف خطوة بعد أخرى عن جسم خالد المنطلق كسهم طال توتر قوسه، وأمام باب الشاليه الأبيض، ينتظرني لاهثًا، بوجهه المتورد المخضب بزهو المنتصر، ليتوعدني بهزيمة جديدة ساحقة في الغد.

في المساء، ما كان لأحد أو لشيء أن يقدر على إقناعه بالتنازل مرة عن حقه في حدوتة قبل النوم، كان شغفه بالحكايات يرعبني. أتيت على كل ما أعرفه من حواديت، كل ما سمعته وقرأته، وكل ما رأيته وعشته، إلا واحدة، ما لقيت بقلبي ما يلزم من الشجاعة لإعادة تخليقها معه. رحت أرتجل له حكايات طويلة مضجرة عن أناس وأشجار، عن شياطين وملائكة وحيوانات، وعن صحراوات وممالك ذهبية

لا وجود لقبابها وبيوتها في ألف ليلة وليلة. وبحدسه الطفولي كان يفهم ويتواطأ، مجتهدا قدر طاقته، في مشاركتي رعب الكشف عن الأصقاع الغائرة في ضميري.

حتى الآن كانت كل القصص ممكنة، إلا تلك القصة، وما كان هو قد تعلم طرح الأسئلة بشأنها بعد.

(٣)

للذكريات طعم الرماد، أما الحاضر فلا طعم له على الإطلاق.

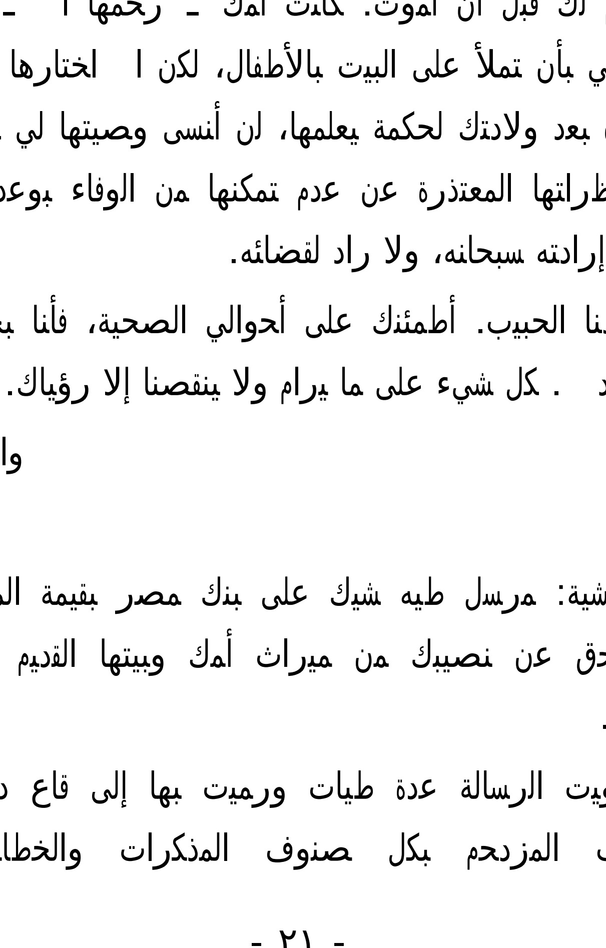
لماذا لا أودع كل شيء لأغفو لحظة على رمال الشاطئ بانتظار الموجة التي تأخذني بعيدا عنهم وعني، حرا منهم ومني؟ كان أبي قد أرضعني سم الشكوى من القدر الذي ابتلاه بي وهو يقرر:

- أنت غراب البين في هذا البيت.

أُفض غلاف المظروف الأبيض الذي سلمني إياه مدير البريد هذا الصباح، وأقرأ خطابه القصير بلا حماس، تنتصب الحروف الكبيرة المنمقة أمام عيني فأبتسم بسخرية وإشفاق على موجه اللغة العربية الأسبق.

نجلنا العزيز،لا تعلم مقدار شوقنا لرؤياك، أما حان بعد أوان رجوعك إلى بيتك؟ صرنا وحيدين أنا وخالتك عائشة،

بعد زواج أختك وسفر أخيك للعمل بالسعودية، ماذا لك في شرم الشيخ لتعيش هناك وحدك، بعيدا عن أهلك؟ وما ذنبك أنت لتربي طفلا وتحرم نفسك طفلاً يأتي من صلبك؟ في كل صلواتي أدعو ا أن يمن عليك بالزوجة الصالحة وبأطفال أربيهم لك قبل أن أموت. كانت أمك ـ رحمها ا ـ قد وعدتني بأن تملأ على البيت بالأطفال، لكن ا اختارها إلى جواره بعد ولادتك لحكمة يعلمها، لن أنسى وصيتها لي بك، ولا نظراتها المعتذرة عن عدم تمكنها من الوفاء بوعدها، كانت إرادته سبحانه، ولا راد لقضائه.



ولدنا الحبيب. أطمئنك على أحوالي الصحية، فأنا بخير والحمد . كل شيء على ما يرام ولا ينقصنا إلا رؤياك.

والدك

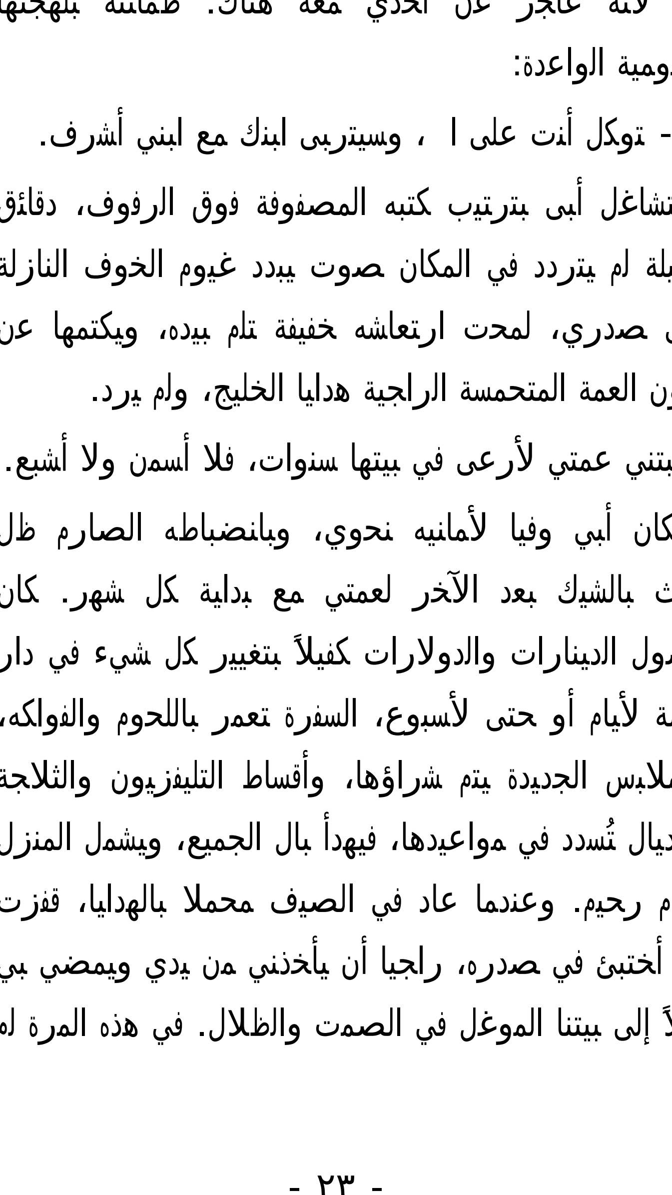
حاشية: مرسل طيه شيك على بنك مصر بقيمة المبلغ المستحق عن نصيبك من ميراث أمك وبيتها القديم كما أردت.

طويت الرسالة عدة طيات ورميت بها إلى قاع درج المكتب المزدحم بكل صنوف المذكرات والخطابات

وقصاصات الجرائد. ما الذي يعنيه أن تستقبل الحياة بلا أم. وبنظرات أب لائم يحملك، دون كلام، مسئولية ضياع زوجته ووعدها له؟ لا شيء سوى الإحساس الدائم بالقر مهما تدثرت. الملابس التي تراكمها على جسمك طبقات لا تغني عنك شيئًا، والأغطية تنزلق هاربة إلى الأرض، ولا يد هناك لتلفها بالليل حول وسطك بإحكام. لسنوات عديدة، ظل كل شيء في البيت يتنفس الهواء الراكد لموتها. محكوما بإرادة النظام الحديدي الذي اشترعه أبي، فلا يجرؤ زائر على تدخين سيجارة، ولا يسمح لأي أحد بتخطي باب الشقة قبل أن يخلع نعليه. ولو غامر ضيف وفعلها، فلن ينجو طوال وجوده من نظرة أبي الحاقدة إلى حذائه، ولن أفلت أنا من حصة التقريع والكنس بمجرد مغادرته بيتنا. وعندما تلح عليه عمتي ليجرب حظه مرة أخرى ويتزوج، يصرخ فيها:

- نصيبي أخذته، وأنا راضٍ به.

وكنت أشكر له في قلبي ما قدرتُه وفاء لأمي وإخلاصا لذكراها، في نفس الوقت الذي كرهت عمتي وإغوائها المستمر له. ولما أوشك أن يلغي إعارته إلى الكويت، قبل أن



تبدأ لأنه عاجز عن أخذي معه هناك. طمأنته بلهجتها الأمومية الواعدة:

- توكل أنت على ا ، وسيتربى ابنك مع ابني أشرف.

تشاغل أبى بترتيب كتبه المصفوفة فوق الرفوف، دقائق طويلة لم يتردد في المكان صوت يبدد غيوم الخوف النازلة على صدري، لمحت ارتعاشه خفيفة تلم بيده، ويكتمها عن عيون العمة المتحمسة الراجية هدايا الخليج، ولم يرد.

سحبتني عمتي لأرعى في بيتها سنوات، فلا أسمن ولا أشبع.

كان أبي وفيا لأمانيه نحوي، وبانضباطه الصارم ظل يبعث بالشيك بعد الآخر لعمتي مع بداية كل شهر. كان وصول الدينارات والدولارات كفيلاً بتغيير كل شيء في دار العمة لأيام أو حتى لأسبوع، السفرة تعمر باللحوم والفواكه، والملابس الجديدة يتم شراؤها، وأقساط التليفزيون والثلاجة الإيديال تُسدد في مواعيدها، فيهدأ بال الجميع، ويشمل المنزل سلام رحيم. وعندما عاد في الصيف محملا بالهدايا، قفزت إليه أختبئ في صدره، راجيا أن يأخذني من يدي ويمضي بي قافلاً إلى بيتنا الموغل في الصمت والظلال. في هذه المرة لم

تفاتحه عمتي في موضوع زواجه، ولسبب لم أدركه غاف صوتها إحساس بالخيبة وهى تسأله كأنما دون استنكار:

- تتزوج؟ وتذهب بها؟

صر أبي على أسنانه بقوة وهو يحاول الاحتفاظ بهدوئه معها.

قال متشكيا:

- الحياة هناك قاسية، أحتاج لمن تخدمني وتملأ علي وحدتي.

ران الصمت بينهما دقيقة قبل أن يطمئنها كأنه يرجوها:

- سيبقى ابني عندك، ويظل كل شيء على حاله.

كان أشرف يسبقني في كل شيء، بداية من الأعوام الخمسة التي تفصل بيننا، وحتى تفوقه الدراسي الذي ألحق بنتائجي العار. إلى هنا، وكنت مستطيعا أن أسامحه، لكن محبته لي وشفقته القاسية بي هما ما ظللت عاجزا عن غفرانهما له. كرهت أن يتعالى علي بالنصيحة كأخيه الصغير، أو يحنو لي كيتيم تركته يد العناية الإلهية على بوابة إنسانيته. هل كانت له حيلة في ذلك؟ وما كانت لي حيلة. سيقول ناجي من غير أن ينظر في عيني بلوم:

- الكراهية نار تحرق صاحبها أولاً، ما ذنب ابن عمتك؟
- وما ذنبي أنا؟

وسنسقط في فخ الصمت عاجزين عن معرفة سر ذنوبنا، حالمين بيوم قريب نتسامى فيه عليها.

أستسلم أمام أعينكم الساعة لهواجس العذاب والتكفير، أمسكت بالقلم لأحكي، لا لأعتلي منبر الحكمة والعقل، ولكنها غواية التفلسف تحيط بي وتجرفني معها بعيدا لأقرر أني كنت مستحقًا لفرصة لم توهب لي.

كنا ثلاثة من المسرنمين، جلال وناجى وأنا جمعتنا أسوار طنطا الثانوية، وأمسيات التسكع الطويلة في شارع البحر، ولقاءات نادي الأدب الأسبوعية بقصر الثقافة. التهمنا أشعار نزار وحجازي. فدارت رؤوسنا بالأشواق الغامضة لحبيبة ووطن جديد. سكرنا بعاطفة عبد الحليم وبحلم فيروز، فرحنا نخترع لأنفسنا حكايات الحب الليلكية، وساطت أرواحنا المراهقة كرابيج الرغبة، فاختلسنا نظرات خجلى إلى مجلات البلاي بوي والبنتاهاوس التي لم تخل شنطة زميلنا وائل منها يوما، كان يروي بتهيج:

- صعدت بها إلى حجرة السطوح، ولم أهتم بكلامها عن ستها التي تنتظرها، وتكشف عن" بضاعتها " في كل مرة تتأخر فيها.

كركر مبتهجا للذكرى، أو ربما لعيوننا الجاحظة وشفاهنا الجافة وآذاننا المفتوحة على وسعها لمتابعة التفاصيل.

- كنت سأضعه فيها، لكني انتبهت في آخر لحظة، الحمد ، المهم أنني بقيت أحكه بين وركيها حتى أنزلتهم. بنت القحبة، ظلت مستلقية مغمضة العينين وهى تشد على وسطي وظهري بكل قوتها، ولم تقم إلا بعد أن ضربتها بالقلم وصرخت فيها لتمشي.

انتفض ناجى، راح يؤنبه ويعظه:

- لك أخوات بنات يا وائل.

بان الشر في عيني وائل وهجم على ناجي المحتمي بي وبجلال، صرخ حاقدا:

- ابن الكلب القسيس.

ذهبنا بناجي بعيدا، وبرغم إحساسي بالسكين المنغرسة في قلبه، كان حريصا على الثبات وعدم الانفعال، حدقت في

عينيه الجافتين اللتين لم ترمشا، وتمنيت لو كان مستطيعا البكاء الآن. قلت أواسيه:

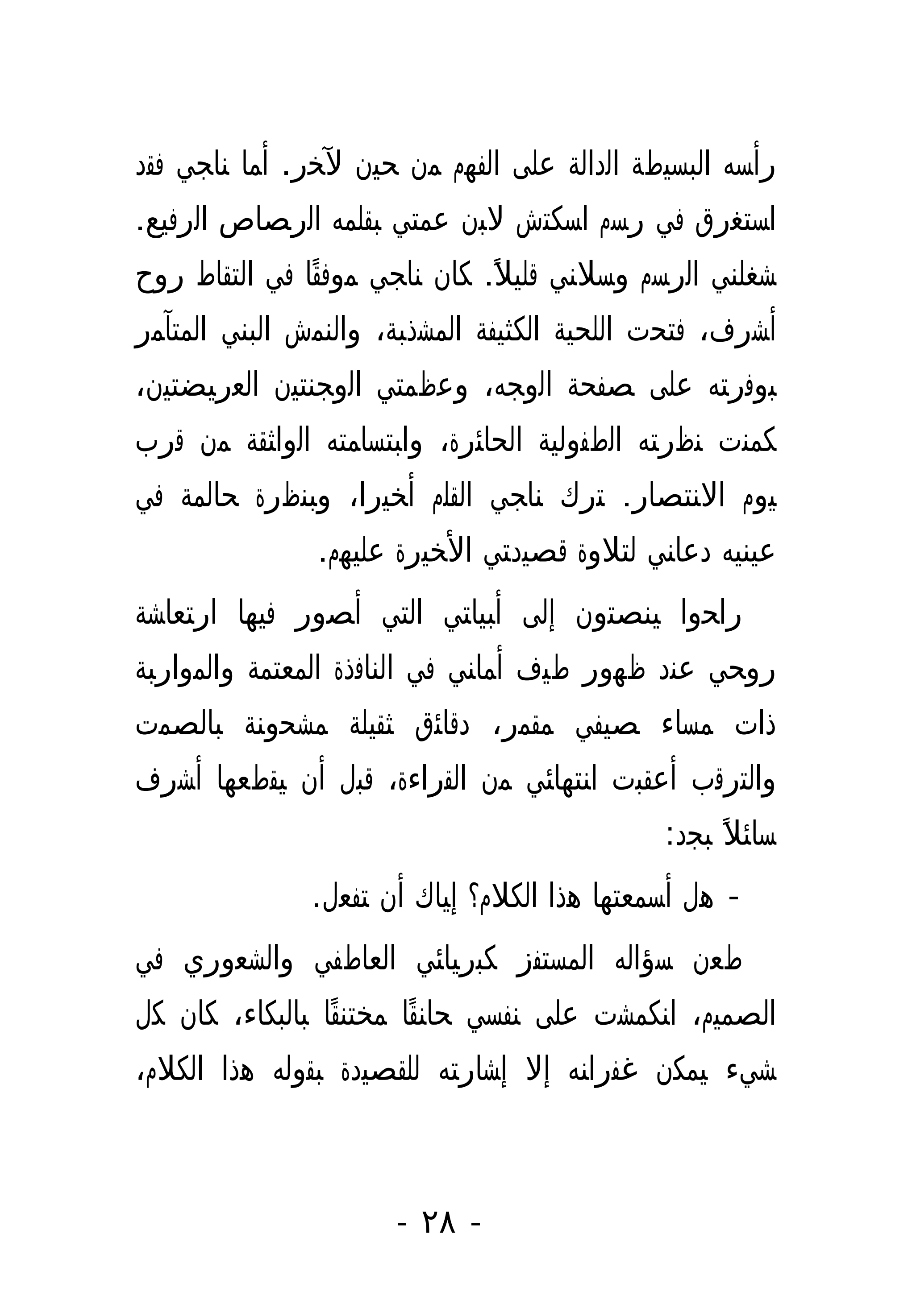
- كلاب.

في الليل عاودتني تفاصيل مغامرة وائل مع الخادمة فعجزت عن النوم. تسحبت من سريري إلى الحمام محاذرا إيقاظ أشرف، وهناك جعلت يدي المبتلة بالرغوة الكثيفة تطارد خيالي الذي تصهل فيه خيول الشهوة، حتى استرحت. وكنت قد نسيت كل شيء عن ناجي.

اقتحم أشرف سلامنا الهش بعواصفه المكهربة، وبدروسه الطويلة المعقدة عن صراع الطبقات وفائض القيمة وديكتاتورية البروليتاريا.

ويوما بعد آخر، كنا نراه مستسلما معنا لاندفاعة كلامية لانهائية لها يختمها دائما بالسخرية من أحلام المراهقين. رحت أغالب تثاؤبي، ورغبتي في النعاس وهو يشرح لنا كيف أنه لا يمكن بناء الاشتراكية في بلد واحد، منتصرا لنظرية الثورة الدائمة ولتروتسكي المذبوح.

جلس جلال صامتًا جامد النظرات لا تعرف إن كان يتابع حديث أشرف بالفعل، أم أنه يتصنع ذلك مختفيا وراء هزات



رأسه البسيطة الدالة على الفهم من حين لآخر. أما ناجي فقد استغرق في رسم اسكتش لابن عمتي بقلمه الرصاص الرفيع. شغلني الرسم وسلاني قليلاً. كان ناجي موفقًا في التقاط روح أشرف، فتحت اللحية الكثيفة المشذبة، والنمش البني المتآمر بوفرته على صفحة الوجه، وعظمتي الوجنتين العريضتين، كمنت نظرته الطفولية الحائرة، وابتسامته الواثقة من قرب يوم الانتصار. ترك ناجي القلم أخيرا، وبنظرة حالمة في عينيه دعاني لتلاوة قصيدتي الأخيرة عليهم.

راحوا ينصتون إلى أبياتي التي أصور فيها ارتعاشة روحي عند ظهور طيف أماني في النافذة المعتمة والمواربة ذات مساء صيفي مقمر، دقائق ثقيلة مشحونة بالصمت والترقب أعقبت انتهائي من القراءة، قبل أن يقطعها أشرف سائلاً بجد:

- هل أسمعتها هذا الكلام؟ إياك أن تفعل.

طعن سؤاله المستفز كبريائي العاطفي والشعوري في الصميم، انكمشت على نفسي حانقًا مختنقًا بالبكاء، كان كل شيء يمكن غفرانه إلا إشارته للقصيدة بقوله هذا الكلام،

انتصبت فروسية الشاعر في داخلي وعزمت على تلقينه درسا في الحب والفن معا. أجبته بسخرية:

- وما أهمية ذلك عندك؟ أنا يكفيني أن أحبها، وأن أغني لنفسي هذا الحب.

غمز بعينيه إلى لا أحد وهو يواصل استعراضه هازئًا:

- طبعا! القصيدة هي الشيء المهم في القصة كلها، أما أنا فأراهنك أنها لن تفهم أو تهتم بحرف واحد مما قلت، هذا إذا كان لها وجود من أصله.

صمت دقيقة بانتظار رهاني أو ثورتي عليه، قبل أن يتابع بلهجة الأخ الكبير:

- اسمع كلامي.. إذا أردت شيئًا فلتتعلم كيف تذهب وتأخذه بنفسك من فم الأسد، وإذا رغبت في امرأة فعليك أن تسحبها من شعرها خلفك، وإلا فلتصرف نظرك عن الموضوع كله. صدقني سيعجب هذا صاحبتك أكثر من المتنبي ذاته.

خيم علينا صمت ذاهل ليردف أشرف باشمئزاز:

- شعراء! أمة شعراء!

أفلتت ضحكة مستمتعة من جلال، سبقت احتجاج ناجي الذي لا لوم فيه:

- لا تشطب علينا يا أشرف، هل تعتقد حقا أننا بهذه التفاهة؟

- أريد أن أحرركم، أن أوقظكم من كسل أحلامكم الشعرية التي لا نفع فيها لأي أحد.

ليس العالم في حاجة إلى الكلام بعد، بل الأفعال، والأفعال الجذرية تحديدا.

نبذ جلال صمته المتضاحك مغامرا بالمشاركة في إضرام نار الجدل، الذي بدأ يثيرنا جميعا، قال بجدية واضحة:

- وما الأفعال التي تقوم بها أنت يا أشرف؟ إنك لا تكف عن الكلام طول الوقت، أنت حتى لا تصبر على الاستماع لأي أحد في مناقشة.

أطرق أشرف ساهما مأخوذًا بحدة انتقاد جلال، كلام، كلام، كلام،راح يتنفس ملء رئتيه بعمق، ويطرد الزفير المحبوس بصوت مسموع، وهو يلتفت إلى ناجي قائلاً:

- هل عرفت الآن دافعي في الشطب عليكم يا ناجي؟ أنا أشطب على نفسي أولاً، على ذلك الجزء من نفسي الذي يعذبني عذابا تافها، كما يعذبكم.

حط الصمت برهة فما جرؤ أحدنا على خدش أستاره النازلة، وفي واحدة من اندفاعاته العاطفية النادرة، قام ناجي يضم أشرف إليه كالمعتذر، كان يريد سلاما لا تلوثه الشكوك والاتهامات المتبادلة، غمغم بصوت عذب عميق، وبعينين نصف مغمضتين:

_ لأنك حار.

وما تبينا أبدا ما كان يقصده بهذه الكلمات غريبة الوقع على آذاننا.

ناجي رجائي جندي.

فُتنت به وألغز علي هازئًا من كل ظنوني وآمالي فيه. متاهة قادت خطاي بابا بعد باب نحو ما ظننته المركز، لألقاه دائما عند نقطة الصفر التي لا تتجاوز ولا تبيد. دوار عاطفي تخفى في قامة نحيلة قصيرة ووجه شاحب وعينين ينبجس منهما النور كلما سها صاحبهما عن إغماضهما نصف إغماض، وابتسامة صغيرة متسامحة تغريني بالدخول لأضيع

هناك، دون أن أجرؤ على أن أظن بها ـ مجرد ظن ـ أنها تكذبني.

وما كان الدخول إلى بيتهم المجاور أسهل، شيء غامض يجذبني للعودة إلى ذلك البيت العتيق، ذي الطابق الواحد والشرفة العريضة بأعمدتها المستديرة الملساء ذات التيجان الإغريقية، خلف سوره الحديدي المدبب الذي عرشت شجيرات الياسمين على رماحه الصدئة. ماذا يبقى في الذاكرة عن البيت أبعد من ذلك؟ الأهم.. رائحة الحياة بداخله والتي لا يخطئها أنفي رغم السنين. رائحة بخور خفيفة، ورمل جاف، رائحة نظافة عريقة وهواء محبوس، ثم ظلال ضوء الشمس المتسلل من خصاص النوافذ المواربة والستائر المخرمة، وفى صدر قاعة الاستقبال تتكسر الأشعة والعتمات على صورة المسيح النازف من جنبه فوق الصليب.

في كل مرة تستقبلني أمه بعودها الضامر وابتسامتها الوديعة وتحيتها الخافتة الودود، شاهد استثنائي على الحياة التي تنسحب في بطء وثبات، وفي الغرفة المواجهة الموصدة باستمرار، يقبع مينا مستغرقًا في صلواته، واصلاً الليل بالنهار، في قراءة الإنجيل، عاكفًا على أصيص الريحان في

الشرفة لا يرويه أحد غيره كل عصر، ومنتظرا لنعمة تجلي المسيح في روحه، أما عمي رجائي فيخرج كل صباح، في الثامنة والنصف بالضبط في طريقه إلى محل الذهب الكبير الذي ورثه عن أبيه وأجداده في قلب الصاغة، اعتدنا أن نداعب ناجي قائلين:

- أبوك يضبطون عليه ساعة الجامعة، وأنت دائما متأخر عن الجميع.

وكان يشاركنا الضحك منه ويعلق:

- يكفي العائلة رجل محترم واحد، ما رأيك يا أشرف، هل تستطيع أن تتخيلني أبدا كبرجوازي حقيقي يناصب ثورتك العمالية العداء؟

فيهز أشرف رأسه نفيا، ثم يجيب:

- أستطيع أن أتخيلك كراهب يخرج من رواية روسية

أسبل ناجي جفنيه ولم يرد. سارع جلال إلى سؤاله ضاحكا:

- وماذا يفعل راهب بكل الذهب الذي سترثه عن عمي رجائي، بعد عمر طويل طبعا؟

ظل ناجي على صمته الموجع لثوانٍ تبادلنا فيها نظرات ارتباك وخشية أن نكون قد تجاوزنا ـ دون أن ندري ـ الحد الفاصل اللامرئي بيننا وبينهم، أخيرا، أجاب ناجي مبتسما:

- أتنازل لك عنه فورا يا جلال.

وفى قلب كل تلك الشكوك والمحاذير والترددات، كنت أوقن يا ناجي أنك وحدك الحار. وحدك..

لكن من ذا الذي يريد أن يغير العالم ويبعث الضمير؟ دع كل ما هو متعفن يتعفن، دعه يخبو، يزول، ودع إيمانك غير المختبر بالمحبة وبالفن وبالدين، ولا تناد ربا لم يولد نجمه في سماء العماء والرعب بعد، لست المجوسي المتطلع إلى نجوم الحق حديثة الولادة، المتقصي أثر رغبته العنيدة في الإيمان، حاجته اللجوج إلى بعث الإله الذي تتآخى تحت كرسي عرشه النار والماء، ويذوبان في عشق محرم شفاف، ولا أنت الذي غسل يديه من دم المحكوم بالصليب، وما برأت روحه من الذنب، بل أنت وحسب، فهل تعرفك؟ أم أنك أضعتك منك بلا أمل في لقياك؟

بالليل أغار البرابرة على هياكل أمجادنا الكلامية، وفى الصباح اقتحمتنا ريح كمال لتأتي على ما تبقى لدينا من شواهد وقبور.

(٤)

وقف أمامنا مصوبا نظراته المقتحمة إلى عيوننا، من غير أن يكلف نفسه عناء قول كلمة ينهي بها فاصل الصخب والمخاشنات المعتادة بين التلاميذ، أراح حقيبة يده المنتفخة بالكتب فوق الطاولة الصغيرة، وظل معتصما بالصمت، فارضا هيمنة حضوره من خلال نظرته المسددة نحو نقطة بعيدة لا منظورة ثوانٍ معدودات تواصل فيها انتحار الصوت، ليسقط الفصل في جب الصمت الذي ما جربه أبدا حتى في حضور أعنف المعلمين وأشدهم بطشًا. لاحقا سيعلمنا متباهيا:

- الكلام برهان شك، وناقص الإيمان هو من يريد أن يعجب الآخرون بكلامه.

سيقول لنا هذا سادرا بكل عنفوان شهوته الكلامية، مستفيضا في الشروح والأمثلة، وغير ملتفت إلى تململنا ونفاد

طاقتنا على الإصغاء منذ زمن، أما في حصته الأولى تلك فقد كان أكثر اقتصادا في استعمال الكلمات، رأيته يخفض نظرته المحلقة في سماوات الفكر ليوزعها علينا نحن الصغار الفانين بعدل وروية، شارعا في امتحاننا بصوت ممتلئ النبرة:

- الفلسفة هي محبة الحكمة، كيف يكون الإنسان، في اعتقادكم، محبا للحكمة؟

توقف لحظة مجيلاً بصره بيننا باحثًا عمن يبادر بالإجابة عن سؤاله الذي لاح ملغزا خارج مقرر المشكلات الفلسفية الذي نحفظه. غامر جلال بإجابة من عنده:

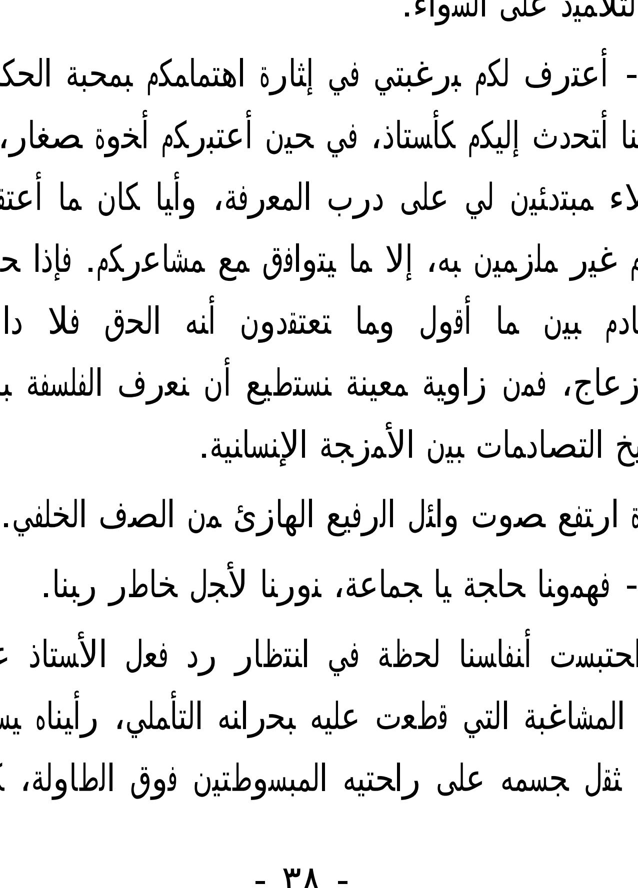
- عندما يسعى وراء الحق والخير والجمال.

- عظيم، لكن كيف يميز الإنسان بين الحق والخير والجمال، وبين سواها من القيم؟ أليست هناك وسيلة لذلك؟

وقعنا جميعا في الحيرة وفضحتنا نظراتنا المرفوعة إليه وانتظارنا المتوسل لكلمات تجري على شفتيه حاملة إلينا إجابة شافية. تابع:

_ قبل أن يعرف الإنسان الخير من الشر يتعين عليه أن يتعلم درس التساؤل.

كانت البداية غريبة، ومجافية لكل توقعاتنا، التي انحصرت في ركن كئيب معتم اعتادت علاقتنا بمعلمينا أن تختنق فيه لافظة آخر أنفاسها بسرعة، إما أن يقف الأستاذ كمال أمامنا اليوم يدعونا إلى التفكير بأنفسنا، ملوحا بثقته في عقولنا كبشر، فهذا ما لن يقوى كل أحدٍ عليه، من المعلمين أو التلاميذ على السواء.



- أعترف لكم برغبتي في إثارة اهتمامكم بمحبة الحكمة، وهأنا أتحدث إليكم كأستاذ، في حين أعتبركم أخوة صغار، أو زملاء مبتدئين لي على درب المعرفة، وأيا كان ما أعتقده، فأنتم غير ملزمين به، إلا ما يتوافق مع مشاعركم. فإذا حدث تصادم بين ما أقول وما تعتقدون أنه الحق فلا داعي للانزعاج، فمن زاوية معينة نستطيع أن نعرف الفلسفة بأنها تاريخ التصادمات بين الأمزجة الإنسانية.

فجأة ارتفع صوت وائل الرفيع الهازئ من الصف الخلفي.

- فهمونا حاجة يا جماعة، نورنا لأجل خاطر ربنا.

احتبست أنفاسنا لحظة في انتظار رد فعل الأستاذ على هذه المشاغبة التي قطعت عليه بحرانه التأملي، رأيناه يستند بكل ثقل جسمه على راحتيه المبسوطتين فوق الطاولة، كان

امتحان الثقة قد فُرض عليه فرضا، ولعله كان يفكر منذ البداية، في الجهة التي سينطلق منها سهم التحدي الأول، ولسبب ما ارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة وهو يقول:

- هل قلت شيئًا غير مفهوم؟

سلط الأستاذ عليه نظرة أربكته فوقف عاجزا عن النطق. كان وائل المسكين قد رمى بقنبلة سخريته معتقدا أنها ستنفجر وتأخذ في طريقها بكل شيء، ذاهبة به نحو النهايات المعتادة في مثل هذه المواقف، وبخه الأستاذ:

- خرست الآن.

تطوع جلال لإنقاذ وائل:

- كان يقصد إضحاكنا فقط.

- ونحن لم نضحك، لكن ليس لذلك أهمية، في رأيكم ما الذي دفع زميلكم لتقمص دور المهرج أمامنا؟ أنا أقول لكم.. كان يريد أن يسرب إلى أرواحكم مزاجه الشخصي، طابعه ورؤيته للمواقف إن جاز التعبير، ومن ثم يفرض هيمنته عليكم بطريقة خفية لا محسوسة، كان خاضعا فيما فعل لضرورة داخلية سرية، حتى عليه نفسه، الحياة لا تُوجِد شيئًا بغير ضرورة، الحق ضرورة والباطل ضرورة، والقبح،

كالجمال ضرورة، قد نعجز أحيانًا عن اكتشاف الضرورة لاعتيادنا التفكير في اتجاه واحد، أعني لذتنا وألمنا، التفكير أحادي الاتجاه مريح، لكنه يضِلّنا غالبا، عن الحقيقة، ويقودنا إلى ما ترغبه ذواتنا الصغيرة، أما المعرفة الحقة التي يجد وراءها الفيلسوف فهي لذة الإحاطة بالتناقضات والعلو بالتعارضات، ضد نفسه لأنه معها، وحكمتها فوق الحياة والموت والخير والشر وأبعد منها.

يوما ما ستنجلي أمام أبصارنا الذاهلة المأساة الثاوية في تلك الكلمات الطنانة التي زلزلت عقولنا العطشى إلى قوة المعرفة الكبيرة، أما ساعتها فقد حسبناه نبي الكلام، وحامل مفتاح الكنز المسحور.

وفي لقاءات الجماعة الفلسفية رحنا نتعلم باتضاع درس الصمت، وفى الإصغاء لكل ما يند عن شفتيه، ورويدا رويدا نقايضه امتثالاً بأبوة مشفوعة برجاء غامض مثير.

(٥)

في الربيع مال علي ناجي مستفسرا:

- كيف حال عمتك الآن؟

كان بيت عمتي من بيوت طنطا المعدودة التي شاركت في أحداث شتاء ٧٧ الكبيرة بطريقتها الخاصة جدا، فبعد أن قُبض على أشرف وهو يحرض زملاءه طلبة كلية الطب على التظاهر، جلست عمتي تنتحب حتى سقطت مريضة.

- تتحسن. يقول المحامى إن القضية كسبانة مائة في المائة وإنهم سيخرجون قريبا، كلهم.

ابتسم جلال بسخرية وهو يؤكد:

- طبعا كسبانة، هل تظنون أنهم فعلوا شيئًا يخيف الحكومة منهم؟ لقد لملمتهم المباحث في غمضة عين يا ولداه.

تجاهل ناجي ملاحظة جلال التي لم تبرأ ـ ربما ـ من تشفٍ ما، بادرني بالسؤال ثانية:

- والأستاذ كمال أيضا.

كان تغيب كمال عن المدرسة عقب الانتفاضة مثيرا للتكهنات، والتخمينات، حتى تواترت الأخبار ـ لا نعلم كيف بدأت ـ بأنه اعتقل ضمن من اعتقلوا في الأحداث، وأنه يواجه اتهاما خطيرا كونه كادرا قياديا فيما لا نعرف من الأحزاب أو التنظيمات الشيوعية المسئولة مباشرة عن العنف والتخريب.

- من يدري؟ محتمل.

جاء الصيف متباطئًا لتحرر شمسه القوية أفئدتنا من برد الشتاء، عندما انتترت عمتي من فراش مرضها، تحتضن طفلها الكبير الذي عاد إليها رجلاً ومناضلاً، انسربت دمعة نازلة على خدي في صمت، ورحت أرنو إلى أشرف بإجلال وحسد. حدقت في عيني ناجي الهاربتين من نظرتي، وأنا أتساءل:

- هل أستطيع أن أؤمن دون أن أجرب، ليوم واحد حتى، أن أكون في بيتي؟

أخفى أصابعه الطويلة النحيلة في كم ردائه الأسود الفضفاض، وبدأ يقطع كلماته كأنه يبحث عنها أسفل صخور الجبل المنتصب أمام عيوننا:

- بيتي ليس في هذا العالم.

وسأنصت إليه زاهدا في مناقشته، مسلما بخيباتنا في زمان الخيبة، أما في أزمنة الوهم المخاتل، فكنا النعاج التي تحلم بالرعي في وجار الذئب بلا خوف، ليرثينا كمال رثاء فاترا:

- أعطينا حرية التمييز بين الحق والباطل لننهض بعبء المسئولية تجاه العالم وتجاه أنفسنا، فلا تستسلموا للطمأنينة وسلام الرعيان الزائف.

باغتنا أشرف بسؤاله:

- ألا تفكرون في زيارة أستاذكم بعد أن أفرج عنه؟

أفقنا على دوامة الحنين إلى طلعة أستاذنا الغائب، وغمرتنا مشاعر الفقد والذنب والرجاء، سأل جلال:

- تقابلتما في المعتقل؟

- في الحقيقة لا. لكن اسمه كان في القضية، وتذكرتكم ساعتها طبعا.

قهقه أشرف ضاحكًا فجأة، قبل أن يتابع:

- تعرفون؟ سمعت كلاما عن أستاذكم ودوره في خروج مظاهرة عمال الترسانة البحرية بالإسكندرية.

مضت دقيقة من الصمت المتحير، ثم لاحظ مؤكدا بنبرة العارف:

- ستسره زيارتنا له بالطبع، في مثل هذه الأحوال يحتاج الإنسان إلى من يؤكد له أن عمره ونضاله لم يضيعا هباء.

سار بنا الأتوبيس المرسيدس المتهالك قرابة نصف ساعة على طريق كفر الزيات، نزلنا في نهاية الخط لنلاقي القرية الصغيرة الوادعة وهي تنفض عنها النوم والتثاؤب، وتغسل وجهها في مياه الرياح الباجوري، في ذلك الصباح الحار. توامضت بروحي خيالات رومانتيكية شائعة عن سلام الريف وسكينته، عن الهدوء الوافر المبدع، وعن الأسرة والحب، كما يجدر بشاعر صغير لم يشهد من القرية إلا اخضرار أشجار الطريق، وانفجار ضوء الشمس على صفحة مياه الرياح النيلية، ضبطت نفسي متورطًا في أحاسيس كبرياء وزهو طفولي فمن سواي يمكنه أن يكابد انفعالي بهذا الجمال، الغفل المباح، ليعيد تكوينه في القصيدة؟!

سيظل الصبية يرمون بأسمالهم على جسر الترعة، تتلامع أجسامهم السمراء الضامرة في الماء الذي ينشق لثقلها الهش مدوما. ستتعالى ضحكاتهم وصرخاتهم وهم يتسابقون من شاطئ لآخر، وسيكبرون في الوهن والموت السريع لأن البلهارسيا ستنهش أكبادهم كما هو معروف. لكن ما هم؟ هل يستطيع الموت المتربص منع البنات من نزول" الموردة " لتصبين الهدوم وشطف الغلة وغسل الصدور بالثرثرة الضاحكة والغمزات الماكرة؟ كنت أقدر دوما أن احتمل فقد الأم والأب والإله، لكنى لا أقدر ولا أرغب أن استغني عن قوة الصورة، كثافة الإبداع، بوعوده التي يزجيها إلي، وعزائه الذي يحمله لقلبي، وبغروره أيضا. التفت إلى رفاقي طمعا في تعضيدهم الروحي، فما عادني سوى الصمت والغياب، وبرغم ذلك رفضت أن أعترف أني وحيد. وأن كل إنسان وحيد، وستُقرئني الأيام كتاب الوحدة سطرا بسطر، وتعلمني درس إغناء فراغ الوحدة الكلي، وسأردد من بعدها أن الحب خرافة وعماء، وأنه تدليس الباطن المراوغ، وأكذوبة الرموز المرتجفة لتآخي القلوب. وسيهتف محمد منشدا:

الحب الذي نذرت قلبي له

ينحل متراجعا كدوامات الماء الصغيرة

غائبا في نهر الفراغ والعدم

ومن المساء إلى الصباح

ومن الصباح إلى المساء

لا تعرف نفسي سوى وحدتها.. رفيقا

سألنا عن الدار فأشار عليها طاعن يجلس في ظل شجرة برتقال مغروسة أمام محل البقالة الذي يمتلكه، بانت على وجه الرجل أمارات تسليم وقناعة بنصيبه من الدنيا، وشيعنا بابتسامته الودود، حتى غبنا عن مجال الرؤية الذي سمحت به عيناه الكليلتان، دق أشرف الباب الثقيل وانتظرنا دقيقة قبل أن ينشق بصرير مكتوم، عن فلاح عجوز لوحت شمس الحقل وجهه وعنقه وصبغتها بلون الطينة الحمراء، ونفرت العروق من ظهر يديه الخشنتين، موحية بصلابة وفتوة لم تنل التجاعيد والخطوط التي حرثت جبهته عرضيا، ابتسم مرحبا:

- أهلاً وسهلا.

تعلقت نظرته المستفهمة بشفاهنا لثوان، ثم استدار داخلاً يوسع لنا الطريق، وهو يتنحنح منبها أهل الدار لوجود أغراب، إلى أن ولجنا المندرة القريبة المفروشة بالكنب العربي وحصير القش. ولأنه لم يكلف نفسه، حتى اللحظة، عناء الاستفسار عمن نكون، فقد صرنا مطالبين بتقديم أنفسنا له، بادر جلال:

- نحن تلاميذ الأستاذ كمال.

انبسطت أساريره، والتمعت عيناه قوية راعشة أبصرنا فيها التاريخ المخفي لنظرة الأستاذ المسددة إلى قلب التفاهة والثرثرة.

- أهلاً وسهلاً.

- لنا شهور لم نره.

جلس معتصما بصمته، وقد بان التردد والحيرة عليه، ثم زفر بهدوء:

- نعم.

اندفع أشرف في الحديث عاقدا العزم على قطع حبل الصمت الممتد بطول القاعة:

- كنت معه في القضية، لكننا لم نكن في سجن واحد، متى خرج يا عمي؟

رمقه العجوز من جانب عينيه، وبتؤدة أزاح طاقيته الصوفية عن رأسه كاشفًا عن صلعته البيضاء مخضرة العروق وأخذ يهرش برفق، ويمسح العرق بمنديل نظيف مكرمش، أجاب:

- قبل جمعتين.

أسرع جلال يسأل وقد تذكر:

- قالوا في المدرسة إن الأستاذ طلب نقله إلى الإسكندرية.

- آه

اكتست نبراته أسى وإشفاقا على النفس وهو يواصل ذاهلاً:

- يريد أن يطير، منذ صغره وهو لا يطيق البقاء في مكان واحد لفترة طويلة، أما أنا فلا أقول له لماذا لا تستريح يا بني وتريحنا معك؟

لا أحب أن أضايقه، رغم حاجتنا لوجوده معنا.

علت نقرات خفيفة على باب المندرة من الخارج، فغاب الشيخ قليلاً ليعود بصينية الشاي المغلي الذي يتصاعد بخاره متسللاً لأنوفنا برائحته اللذيذة، قال أشرف:

- قبضوا عليه هنا؟

- هنا؟ منذ سافر للإسكندرية في أول يوم للمظاهرات بعد الظهر، لم نره إلا الجمعة قبل الماضية، كما قلت لك.

لم يغب عنا تململ الرجل في رده على أشرف، فخشينا أن نكون قد أثقلنا عليه، سألته بلهفة:

- هل نقابله الآن؟

- بإذن ا ، نشرب الشاي ونقوم له في الغيط، إنه"يزود" الأرز.

سكت من جديد كمن يزن أقواله ليعرف إذا كان قد أسرف في الكلام، تابع وقد ارتعشت شفتاه بابتسامة مستغربة وفاهمة في آن:

- أول مرة يتطوع بنفسه للشغل في الغيط، طول عمره يكره الفلاحة والفلاحين، وهو تلميذ في المدرسة كان يرفض بعناد الذهاب مع الأولاد لجمع الدودة، وفى يوم راح يجرب نفسه، ثم رأيناه يدخل علينا قبل العصر بعد أن تعارك مع

الخولي ورماه بالطوب ولعن أباه وأمه وجدوده وجرى. من يومه نفسه عزيزة.

رشفنا الشاي رشفات عجلى فضحت لهفتنا إلى الذهاب، فلم يحتجزنا الرجل عند أكثر من ذلك. سرنا على الطريق الترابي الذي مهدته الأقدام الحافية لملايين الفلاحين منذ فجر التاريخ، وقد ألهبت شمس الحقول المكشوفة جلودنا الرقيقة التي أدمنت الاحتماء بظل المدينة ورحمتها الأسمنتية، أحسست بالنقمة على الزراعية التي لا تأبه لنا، ولا لجداول عرقنا المتسرسبة فوق وجوهنا وبطول ظهورنا، وأمامنا بخطوة واحدة راح يغذ السير فلاح عجوز بدا لعيوننا التي أعشاها الضوء، أصبى منا جميعا، هل همس لي ناجي بصوته الوسنان؟ أم أنني المسرنم الذي لا يرجى له شفاء؟

هذا الجمال الناري هل يمكن أن يكون عابرا حقًا؟ الشمس والعجوز وحقول القطن التي تتقلب بوخم في النور وتتبدد في منظور لانهائي، كلها ستزول ويمحو بعضها بعضا، وبرغم ذلك سيبقى كل شيء هنا على حاله ألف سنة أخرى، لماذا نستغرب إذن شوق الإنسان لخلق الحياة ونمائها؟ ولماذا

نخجل من كراهيته ورفضه الموت؟ أريد أن أحيا، لن أستسلم أبدا للموت.

الماضي سيضيع يا ناجي، أما المستقبل فما كان له وجود قط، فقط أحلامك الغامضة، ارتجافة يدك النحيلة وأنت تعدل وضع نظارتك على أنفك، أو آهة مهموسة تند عنك وأنت تلاحق اهتزاز غصن أخضر تحت ثقل عصفور غض، عبقرية التوافق النغمي، وقد لفك وترامى لنا من خلفك، كظلك، والترتيب الشامل لأشكال الأصوات وقواعد خلق الموسيقى الباطنة، الميتافيزيقا تدب بقدميها على تراب الطريق متعالية على الطيران، قلت لنفسي هي الديانة، أسطورة الرب الحافي على درب عذاب الإنسان لخلاص الإنسان، ثم استدرك، بل الفن ولا شيء سواه.

عوضا عن حقيبة كتبه الحبلى دوما بمجلدات الفلاسفة، ونظريات الثورة والروايات الروسية، أمسكت يد كمال بالفأس تنزلان به بقوة تنشق لها بطن الأرض الغرينية في صمت، ليتدفق الماء من المروى عبر" التركيب " المتداعي، كان جلبابه معقودا على وسطه، مشمرا عن ساقيه المشعرتين، كما يفعل الفلاحون، وبرغم ساعديه اللذين نفرت

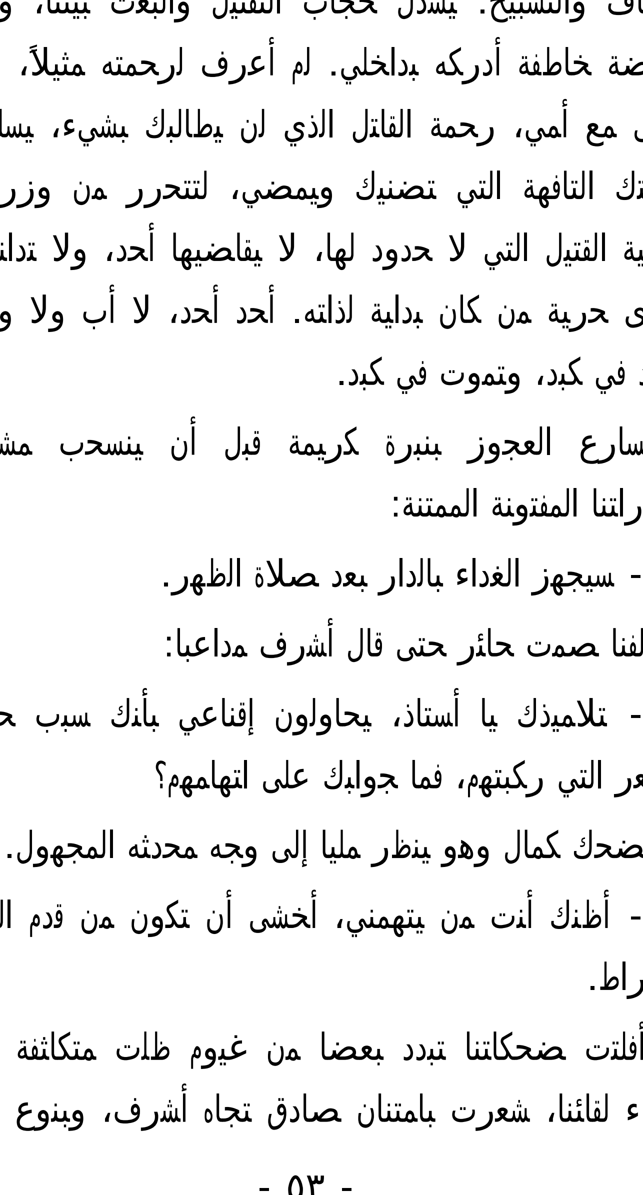
عروقهما وتلامع سمارهما بقطرات العرق النازلة منهما، أبصرت في المجال الشعوري الذي يحيط به حسا بغرابة أحكمت قبضتها على قلبي، أيقنت أن هاتين اليدين الموجوعتين من خشونة الفأس وصلابته لم تخلقا إلا لاحتضان الكتب وتحرير البيانات، ولما خلا ذلك ركض وراء الصور، لم ينتبه لاقترابنا حتى صرنا خلفه بالضبط، فأراح الفأس على الأرض، واستدار يواجهنا بنظرة جامدة ذاهلة لم نرها منه قبلا، ثم يفلح بمشقة، في اغتصاب ابتسامة:

- أهلا.

قذف بها إلى مسامعنا، كأنه يسألنا عن معنى قدومنا فتولانا حرج الذي يدرك فجأة أن حضوره زائد عن الحاجة، فيما كان يعتقد أنه لا غنى عنه.

لاحقًا، سيجلس محمد ليخط بمرارة أو ازدراء أو...

يدعوني إلى ا وأنا أسمع قهقهة الشيطان في صدره، أي إله هذا الذي يخترعه لي؟ في الفراش وهو يسفح كأس عشقه وإيمانه على عريي، يسهر الليل يناجى الموت واللذة، تخض أصابعه الملتهبة بالرغبة جلدي، تتوتر ذكورته، يأخذ في



الهتاف والتسبيح. يسدل حجاب التقتيل والبعث بيننا، وفى ومضة خاطفة أدركه بداخلي. لم أعرف لرحمته مثيلاً، ولا حتى مع أمي، رحمة القاتل الذي لن يطالبك بشيء، يسلبك حياتك التافهة التي تضنيك ويمضي، لتتحرر من وزرك، حرية القتيل التي لا حدود لها، لا يقاضيها أحد، ولا تدانيها سوى حرية من كان بداية لذاته. أحد أحد، لا أب ولا ولد، تولد في كبد، وتموت في كبد.

سارع العجوز بنبرة كريمة قبل أن ينسحب مشيعا بنظراتنا المفتونة الممتنة:

- سيجهز الغداء بالدار بعد صلاة الظهر.

لفنا صمت حائر حتى قال أشرف مداعبا:

- تلاميذك يا أستاذ، يحاولون إقناعي بأنك سبب حالة الشعر التي ركبتهم، فما جوابك على اتهامهم؟

ضحك كمال وهو ينظر مليا إلى وجه محدثه المجهول.

- أظنك أنت من يتهمني، أخشى أن تكون من قدم السم لسقراط.

أفلتت ضحكاتنا تبدد بعضا من غيوم ظلت متكاثفة في سماء لقائنا، شعرت بامتنان صادق تجاه أشرف، وبنوع من

الندم على تخوفي، غير المعلن، من قدومه معنا، اقترح كمال أخيرا:

- لن تعقد المحكمة جلستها في هذه الشمس المميتة، تعالوا نقعد هناك في الظل، أم أنكم تفضلون أن نرجع للدار؟

أعربنا عن فرحنا بالبقاء في الغيط، سرنا خلفه إلى التوتة الضخمة عند الطرف الآخر من الحقل الذي بدأ الماء يغمره لتطفو الشتلات الخضراء على وجهه، وتنجذب إليه طلائع أبي قردان الأبيض الرشيق. تحلقنا في الظلال الرحيمة، وامتدت أيدينا تستبق الوصول إلى القلة، نعب من مائها البارد المنعش، مستعيدين الإحساس بمتع الحياة ولذائذها القريبة، مسح عرقه بكُم جلبابه وهو يعاتبنا:

- لم تقدموا لي صديقكم.

_ أشرف ابن عمتي، ثانية طب طنطا، كان معتقلاً في الانتفاضة أيضا.

رقمت كمال بنظرة جانبية مفتشًا عن صدى لتقديمي الموجز العبقري، وما فهمت إن كان ما لمحته ألما أم لامبالاة، رأيت شفتيه المزمومتين وعينيه الغائمتين والشعرات البيض التي بدأت زحفها المنتصر عند فوديه. علّق أشرف:

- لابن خالي طريقة مثيرة في تقديم الناس، أعترف أنه شوقني بشدة للتعرف على الأستاذ، أقصد سقراط نهاية القرن العشرين.

أنهى كلامه مبتسما وراح يجيل بصره بيننا كأنه يحرضنا على الابتسام لما قال، رد كمال بهدوء:

- وتعتقد أن الشعر تهمة؟

- من يجرؤ على إعلان ذلك؟ فقط أفكر في جدوى كل هذا الشعر.

- جدواه لمن؟

- لي، ولك، للعالم كله، هل ترى فائدة في الشعر لهؤلاء الفلاحين الذين تفتك بهم البلهارسيا ويموتون بالآلاف من الأنيميا مع كل طلعة شمس؟

حافظ كمال على هدوئه محاذرا التورط في الانفعال. أو لعله، يتحين لحظة مناسبة يشن فيها هجومه المضاد. أقدم جلال على المشاركة في النقاش على استحياء مسائلا كمال:

- هل أشرف على حق يا أستاذ؟

غمغم ناجى في خشوع:

- المولود من الجسد هو جسد، والمولود من الروح هو روح.

كانت كلمات ناجي المقتبسة من إنجيل يوحنا كافية جدا لإزكاء جذوة الغضب والنفور من ميوعة الإيمان المسيحي، كما يعتقد أشرف، فاندفع يهدد:

- هكذا؟! وتظن أن رطانتك هذه قادرة على إنقاذ العالم؟ على إطعام الناس وإلباسهم وعلاجهم وتعليمهم؟ الحقيقة أنك لا تفعل من أجلهم شيئًا بجد، ولا تزيد عن كونك أحد مضلليهم، ما دمت تبشرهم بهذه التعازي، إن نبيا بلا تاريخ أو جسد لم يعد له ضرورة، بل ما كانت له ضرورة أبدا، إنني مؤمن خير منك يا ناجي، أومن بالنبي المقاتل الذي يقود الجماهير وينظمها للدفاع عن حقها في الحياة، لينتصر أو ليموت بشرف وهو يحتضن بندقيته، هذا هو النبي حقا.

همس كمال:

- هل المسألة، حقا، بمثل هذه البساطة؟

استطال الصمت دقيقة رحت أتابع خلالها سيقان طيور أبي قردان الثابتة في بطن الأرض، وحركة مناقيرها السريعة الماهرة وهى تلتقط الديدان من ماء الغمر العكر، تابع كمال:

- تعرف، طول ليالي الاعتقال وأنا أفكر في جدوى الفعل، أي فعل، وفي أخلاقيته أيضا، تأتي عليك أوقات تضع فيها وجودك كله موضع السؤال، وتنبش في أحقية الهدف العظيم الذي تتكلم عنه، فما يضمن لك أن انتصارك وشجاعتك هما لوجه الحقيقة فعلاً، ومن أجل الناس بجد لا من أجل غرورك وكبريائك الأخلاقي؟ وبعدها تفكر إن كل شيء ذاهب إلى نهاية محتمة لا مهرب منها، إلى موت لا اختيار لنا فيه ولا سلطان منا عليه، فما ضرورة أن تحك طرف أصبعك لتدافع عن الحقوق وتقود الجماهير الثورية المنظمة في وجود سائر من عدم إلى عدم؟

انقض أشرف مقاطعا استطراد كمال في تأملاته مستغربا:

- من عدم إلى عدم؟ أنت تقول هذا؟ ومع ذلك كنت بعيدا عند اندلاع الانتفاضة، ثمة شيء غير العدم دفعك إلى السفر للإسكندرية والاشتراك في المظاهرات.

- نعم.

أجاب كمال بهدوء وهو يزن بدقة كل كلمة ينطق بها الآن:

- كما نهرب من الخطر فإننا نهرب إليه، لا يحدث هذا لنا كل يوم، ومع ذلك.. لهذا مغزاه بالتأكيد، أظنها طريقة

تدافع بها الحياة عن وجودها، وتفرض من خلالها قانون البقاء.

لاحقا، لاحقًا جدا، سيكتب محمد:

أرفع سيفي في وجه مسيلمة، شفتاه المعبودتان تلهجان، بوعود الحرية الكاذبة، لا خلاص إلا به، لا خلاص إلا منه، من يقدر على لومه؟ من يجرؤ على تصديقه؟ كلمة وراء أخرى يستحيل إيمانه المتكبر بمسئوليته الفخور لغريزة قاسية مدوخة لا فكاك منها، السيطرة، الإنكار المطلق ورفض الخلاص، سيد بين العبيد، وعبد لإلوهية متبجحة لن تخجل من إعلان كفرها وإلحادها.

زفر أشرف قائلا بتعب:

- تفكر في القضايا المنطقية؟ أو...

- أو...؟

- تبحث عن تبرير عقلي لترجع عن الطريق الذي اخترته من قبل؟

أخذ كمال يحرك يده أمام وجهه يمينا ويسارا وهو ساهم كأنه يهش بها أسراب الأفكار الهائمة اللامنظورة، ثم يقول بلهجة حاسمة مترفعة على نحو ما:

- هذا مضنٍ جدا، لكنه طبيعي في مثل عمرك، أنت تفضل وضع وجودك كله على حافة الاختيارات الوجودية الجذرية، ولسان حالك يقول الكل أو لا شيء، أبيض أو أسود، ستعلمك الأيام أنه، في أية تجربة، توجد غالبا منطقة دافئة تمنح الإنسان الفرصة لإعادة النظر، أو للتراجع، كما تقول حتى وأنت متورط في الفعل، سينزع ضميرك إلى اختبار صدق إيمانك، مدللاً على حكمته وبعد نظره، وربما استطعت حل الفزورة، عندها قد ترمي بنظرة إلى الوراء لتدرك قدرة الحياة على حل ألغازها بطرقها المخفية، وتستغرب قلبك الذي ألف، بغرابة، بين التعارضات التي بدت لفكرك مستحيلة.

قال أشرف بصوت مهموم واطئ:

- أظنك من يستغرب قلبه الآن.

انتصب كمال حاسما الموقف ناصحا بتعالٍ:

- لا تصدعوا رؤوسكم بهذا الكلام. صدقوني هذا أفضل.

تمهلت عيناه قليلاً عند أشرف الذي جلس ساكنا منكفئا على ذاته، ثم أضاف:

- إذن ستدخلون الجامعة؟ ربما تتعلمون هناك الكثير، أو لا تتعلمون شيئًا بالمرة.

جذب الفأس الملقية وأراحها على كتفه وهو يحثنا على الذهاب:

- تأخرنا عليهم في الدار.

سار بنشاط يتقدمنا، متبوعا على مسافة خطوة واحدة بناجي وأشرف الصامتين، أما جلال وأنا فقد ارتضينا البقاء في المؤخرة. لكزني جلال بكوعه مذكرا:

- أرجو أن نلحق بالمباراة في طنطا.

همست أجيب بصوت مرتعش يخاف الانكشاف:

- سنلحق بها، سنلحق.

(٦)

أستعيد على الورق كل تلك الوفرة الكلامية وأضحك، إلى أين مضينا بقلوبنا؟ كيف جرؤنا على اللعب بأرواحنا لعبة الكلام الشاذة هذه؟ ولِم استسلمنا للغواية، وعشنا الدور، حتى أضعنا من أيدينا كل أمل لنا في النجاة؟ كان حفل الكلام لا يثمر ولا ينفض، إيمان من كلام، حب من كلام، وثورة من كلام، وكلما اجتررنا الكلمة يغدو جوعنا إليها أكبر. كنا صغارا نخجل من الإحساس بتفاهتنا وخواء نفوسنا، فنصطنع هيئة الكبار، ونتسامى فوق صغائر أقراننا العادية المثيرة المربكة. وبنفس المنطق الذي يدفع في وجه العالم بتحد صبياني مستفز، رحنا نختلس الكلام من على لسان كمال، ومن القصائد، لنلقي بها في حفل الطرشان الدائم، فرحين بما نشيعه حولنا من إبهام وأحلام غامضة، هل كنا عصبة من الممثلين الصغار الفاشلين وحسب؟ بل كنا صادقين في كذبنا، شرفاء في طلبنا للحقيقة التي لا نعرف ماذا يعنون بها

بالضبط، ولربما كانت خطيئتنا هنا، خيال مستلب وإرادة أسيرة إغواء نداء الجانب المخفي من القمر، صوت السيرينات المنبعث من الغيوم والظلال، كان الدين متاحا واضحا وجازما فلفظناه، وكانت الأسرة واقعة يومية للاغتراب والعذاب فشطبنا عليها، وما تبقى لنا غير الكلام.. والحب.

أماني مصطفى الشريف، راحت سنون وجاءت سنون، وقلبي يرتعش، لا يزال في صدري لذكراها، رنين حروف اسمها، موسيقى عذاب وأمل مراهقتي. قامتها الطويلة، وتناسق تكوينات جسمها التي خاصمت الفوضى واهبة خيالي درسه الأول في التناغم والاتزان، إيقاع خطواتها الخفيفة الرشيقة تتراجع في قلبي، وشعرها الفاحم المنسدل على ظهري بإهمال مدروس يمنح بياض وجهها الثلجي ملمح ملاك يخايل بالسقوط، لتسقط أنت. أنتظر كل ليلة، من الغروب لمنتصف الليل، تحت شباكها العالي، بلا أمل إلا في تتبع طيفها البعيد من وراء خصاصها، والفرح بنور المصباح الآتي من عمق الحجرة لدقائق. أنتشي بمراقبة خيالها، وهي ترتكن بكوعها إلى الإفريز غير عالمة حتى بوجودي،

وسارحة ببصرها إلى ما لن أعرف أبدا من أحلام البنات. ليالي الشقاء العادي في حب الصيف المحروم، وأوجاع الوحدة والبرد في ليل الشتاء الطويل. أضمها إلى صدري بذراعي قلبي، أناديها ولا تسمع. أماني. تشهد علي الشجرة العجوز تحت نافذتك. تشهد على سنوات ثلاث من المشاوير الحزينة في شارع البحر، وإنصات ناجي الصبور لأحلامي المعذبة في حبك، وسخريات جلال من العاشق الخائب، وتشهد على رسائلي الطويلة أختمها بدموعي ولا أبعث بها أبدا. فكرت في كل سبيل يمكن أن يأخذني إليها، يقربني منها مرة، إلا السبيل التي اقترحها أشرف. قلت سأنتحر بعد أن أرسل لها باعترافي، وستأتي لإنقاذي في اللحظة الأخيرة، وتنتحب نادمة فوق فراش موتي، ستغمر يدي الباردة بقبلاتها ودموعها معترفة بأنها ظلت تحبني عمرها كله، من غير أن تعلم بهذا الحب المتسلل إلى قلبها في غفلة، كحلم لذيذ في ليلة أرق، فكرت في اقتحام شقتهم واختطافها من وسط أهلها، وهي تحتضني، برغم عيونهم المرعدة، هامسة لي أنها بقيت تنتظر فارسها الذي لم يخذل أحلامها فيه، ثم قدرت أنه من الأجدى، ربما، لو أنجح في كسب ود أخيها. كبحت نفوري

منه ورحت أخطط للمصادفات السعيدة التي ستجمعني به في حوش المدرسة كل يوم.

شهور عديدة وأنا أخترع المناسبات كي يدعوني بنفسه لزيارته في البيت، مرة واحدة أتسلل فيها إلى عشها وأتنسم هواء خدرها. أخيرا كنت أجلس معه في غرفة صالونها، أقلب بحماس كاذب في ثورته الكبيرة من المجلات الرياضية المصورة، متظاهرا بالتعاطف مع بيانه التاريخي عن الأمجاد الزملكاوية، مدرسة الفن والهندسة. كنت أهلاويا، ووجدت يومها سببا ثانيا كي أكره الزمالك، وبدون تفكير اندفعت أسأله:

- أخوتك يشجعون الزمالك؟

- ليس لي إلا أخت واحدة.

- تشجع الكرة؟

أفاق من ذهوله الزملكاوي على سؤالي الغريب، ولا بد أن إصرارا وفضولاً واضحين لونا صوتي، فراح يلملم المجلات والصور في إشارة لي أني تجاوزت الحد، وأصبح وجودي مشكوكًا فيه. ندمت على قلة حيطتي وأستأذنته في النزول

فأوصلني حتى باب الشقة فورا بعد أن تأكد من خلو الطريق.. قلت جلال:

- يكفيني أني رسمت خريطة في ذاكرتي للجانب الخلفي المخفي من قمر الليل.

ضحك بجذل وهو يحرضني:

- انتظرها مرة حتى تنزل وامش وراءها، ثم قل لها ما تريد.

سدد نظرته في عيني للحظات قبل أن يردف بزهق:

- أو.. انس كل شيء، ولا تتعبني معك.

سنوات ثلاث أعجز فيها عن الإيمان بحق قلبي في أن تسمع خفقاته بحبها، كانت بعيدة، عالية، وكنت في الحضيض، في الدرك الأسفل، ربما تلتفت لتتصدق علي بكلمة يحنن، أو بنظرة مشفقة لا أملك معها إلا اشتهاء الموت مسلوب الشرف ومحتقرا، وستكبر أماني وتتزوج كغيرها من البنات، وسأرى بعيني جسمها الرشيق الفاتن يتكور ويتهدل لحمه من الحبل والولادة والرضاعة وأشياء أخرى، ستنطفئ نظراتها البراقة كهزيم الرعد، ويذوب بياضها الثلجي في

هجير الوقوف على طوابير العيش والزيت والسكر، ستبتسم لي؟!

نصف ابتسامة خجلى وأنا أتباعها تجرجر قدميها وطفلتها راجعة بها من الحضانة، وستتذكرني طبعا، وأنا أتسحب خلفها على بعد خطوة واحدة منها، في طريقها إلى مدرسة الأمريكان الثانوية، بالبدلة البني التريفيرا، والباوزة الحرير البيج، لأعلنها مرة واحدة، مرة وحيدة، بحبي، وبأملي في أن تسمح لي فقط بأن أحبها، وستضحك مني في سرها، من صوتي الذي ما خرج من صوتي، ومن كلماتي التي أردت أن أختم بها ديوان الشعر الإنساني كله، وفي طريق عودتي سأروض نفسي على قبول فكرة أن كل شيء بيننا قد انتهى، ناسيا أن شيئًا لم يبدأ أبدا، حاقدا على جمالها الرهيب، سواد شعرها الذي يوجع قلبي، وبرودة ابتسامتها وهي تمضي من غير أن تكلف نفسها عناء الالتفات لتسمعني، قال ناجي:

- كنت تنتظر أن ترتمي في حضنك، أظن؟

وكنت أريد أن ترتمي في حضني حقًا، وما هو أكثر منه بكثير، أردت اعترافًا كاملاً، لا رجعة عنه، بعظمة حبي لها، وكمال مشاعري التي لن تجدها عند غيري، مهما طال بها

العمر، أردت قبولاً مبتهجا وصريحا، لا بحبي وحسب، بل بوجودي، بضرورتي، وبلزومي لها وللحياة بأسرها، أردت اعتذارا بطول الدهر وعرضه عن كل ما لحق بي من خذلان وتخلٍ، عن موت أمي وتفريط أبي وشفقة عمتي الملوثة بأطماعها، شططت في طلب الذي ينأى عني، الذي كلما راوغني وراح طاش صوابي، وهاجت أشواقي في تقصيه وانتظاره، ركبت حصان العناد والكبر، وراهنت بعزة نفس وصلف على الخسارة، حتى ونحن في العشرين كنت أجرؤ على الصراخ في وجه ناجي:

- دين جديد، وعالم جديد.

وبعد عشرين سنة أخرى، أجلس وحيدا على قمة جبل ناءٍ لأعترف له في جبله النائي الآخر، إنه لن يكون دين جديد، هل كان دين جديد أبدا؟ القصة ذاتها يا صديقي، القصة القديمة نفسها، وكما جئنا يوما نخربش سطورها المحفورة بأظافرنا العارية، نمحو حرفًا ونعلن أبجديتنا الجديدة، سيجيء غيرنا، ملايين يؤججهم الحلم الذي أقض مضاجعنا مرة، وخلّفنا وقد جافانا الرقاد، أبجدية جديدة لإنسان جديد! ما أشقى روح الإنسان في هزليتها العظيمة!

(٧)

الليلة أترك خالدا وادعا في أحلامه البريئة، منسلاً من جانبه على أطراف أصابعي إلى المكتب الصغير في الركن البعيد من الشاليه، كنت قد بريت الأقلام الرصاص كلها، ورتبت الورق الأبيض كله، وجلست أتسول الكلمات. ليالٍ وليال أكرر طقوس الدفن والبعث بدقة وتفان، ككاهن شاب صار مسئولاً، فجأة، عن بيت ربه فأسرف على نفسه خشية وطمعا. ليالٍ تعاندني فيها الكلمات، هازئة من صمتي وانتظاري، من رجائي وصلاتي، ومن حبي المغرور لهم ولي.

غمرتني أمواج اليأس فأشعلت أصابعي بالثقاب الإسرائيلي الذي ألقى به سائح عابر ومضى. أستريح بمرفقي إلى المكتب، آخذًا رأسي بين كفي المفتوحتين، بلا ضرورة.

جاءت ريحه الهينة لتطفئ حريق بحر أصابعي، انتبهت إليه راجيا، كان يبتسم ابتسامته الغامضة ويهمس:

- قبور خاوية، تعرف أنها قبور خاوية.

أصخت السمع إلى صوته المترجع في سويداء القلب، زفرت بتعب:

- تأخرت علي طويلاً.

تكرمشت الابتسامة فوق شفتيه، واكتست ملامحه هيئة الجد بلا قسوة:

- تنتظرني؟

- تعبت، وحدي، وخالد أيضا.

طفت نظرته الحنون على وجه الصغير السادر في يقظة أحلامه، وأمسكت أصابعه بالقلم يخط بثبات وتؤدة جارحا نصاعة البراح الأبيض المستفز للورقة:

القلب الذي هو نطفتك المنسية.

تعلم درس الجحود

وأسس لنفسه دينًا ضد شرائعك

في ليلة صيف بعيد

متواجهين في نهاية نهار كدح طويل

على باب الدار القديمة

حيث لم يحدث أبدا

أن أوينا إليها معا

نفسي التي ترفع إلى أبوتك المحجوبة

صلواتها الأخيرة

عيناي الهاربتان إلى فضاء الليل

خاف هامتك الإلهية سندي وملاذي

ضعف قلبي وهوانه

سيده ما تقَبلَ تقدمته

كل شيء مني كان لك وحدك

يتفجر من نبع حبي المسموم

متمردا على المصالحة

مبهورا بغضبه

يهبك بروحي

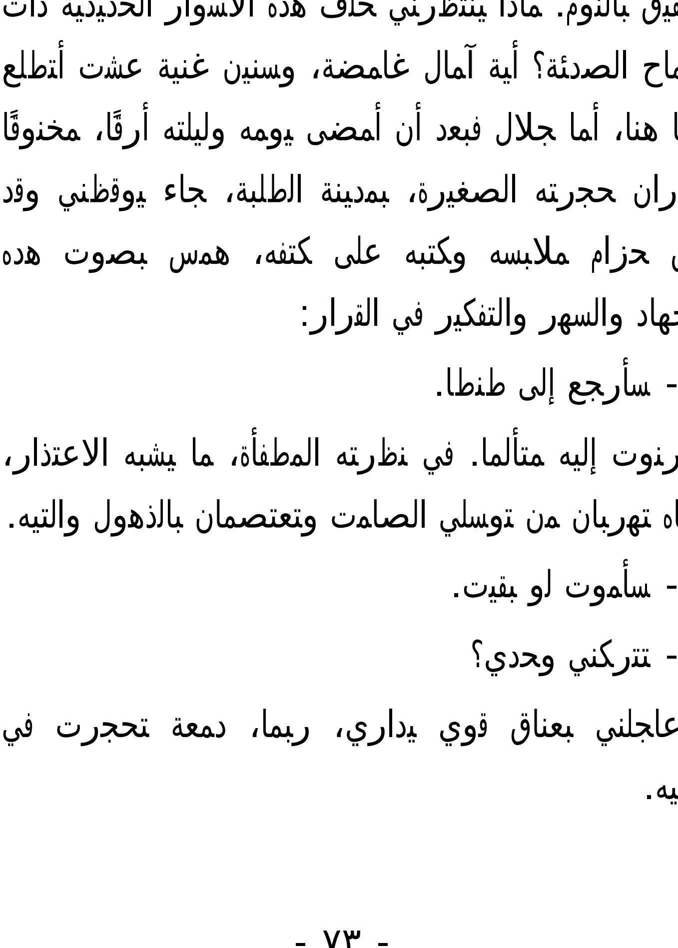
ملاذا ومتكأً

أنفاس خالد الواهنة تدفئ الشاليه الموحش واهبة إياه حس الحياة والأحياء. أحكم شد الغطاء المنزلق إلى خصره قانعا، بنصيبي، كل نصيبي ومتسائلاً:

- ليس لي سواه، ما كان لي سواه. فمن منا اليتيم؟

(٨)

القبة الشهيرة تلوح في الأفق الرمادي الكئيب، فيعلو وجيب قلبي، خطوة بعد خطوة، تزحف صورتها بإصرار على الفراغ المحدود في المشهد المضطرب ببناياته وسياراته ونخيله الملوكي وبشره المتقافزين في نومهم يلاحقون سرابا يروغ منهم ويهزأ بجديتهم الجهمة. أمام البوابة الرئيسية، تتعثر خطواتي في غابة الحديد والكاوتش، سيارات من كل شكل ولون، سيارات تربض في تحفز يرهب القلب، حتى بعد أن سكنت محركاتها، ونامت شياطينها القلقة، مختنقًا بمدها الزاحف كسرطان، يتوارى النصب الحجري تائها، مضيعا ومعاندا لا يتنازل عن موطئ القدم المتبقي، آخر شبر للغناء وللحنين.



دقات الساعة نفسها بإيقاعها الأليف الممتلئ يرتجع صداها في أذني بلا وسيط، صريحة ثابتة وعميقة الرنين، والصباح، كأي صباح، يحرر الروح من قفص الأحلام المعتمة، ويرمي بها على عتبات أحلام الضوء، نطاردها، وتطاردنا، ثم نستفيق بالنوم. ماذا ينتظرني خلف هذه الأسوار الحديدية ذات الرماح الصدئة؟ أية آمال غامضة، وسنين غنية عشت أتطلع إليها هنا، أما جلال فبعد أن أمضى يومه وليلته أرقًا، مخنوقًا بجدران حجرته الصغيرة، بمدينة الطلبة، جاء يوقظني وقد علق حزام ملابسه وكتبه على كتفه، همس بصوت هده الإجهاد والسهر والتفكير في القرار:

- سأرجع إلى طنطا.

رنوت إليه متألما. في نظرته المطفأة، ما يشبه الاعتذار، عيناه تهربان من توسلي الصامت وتعتصمان بالذهول والتيه.

- سأموت لو بقيت.

- تتركني وحدي؟

عاجلني بعناق قوي يداري، ربما، دمعة تحجرت في مقلتيه.

لست مدينا لي بشيء يا صاحبي، أن نكون معا وتمضي وحدك فمن يلومك؟ ألا يذهب كلنا وحده في النهاية؟ وفي تلك اللحظة العابرة المنسية ستتلاقى نظرتانا الغائمتان، كأنما بترتيب إلهي، لتعرف، لأعرف، كيف يمكن للإنسان أن يشيخ فجأة، في ليلة أرق وغربة، والعمر يمضي كسنة من نوم، ثم نصحو لنرى ما كان أمامنا وقد أصبح خلفنا. وأنه لا أمام ولا خلف هناك، هشاشة الزمن، سوقية دواماته المنحلة تمحو آثار خطى أرواحنا وأشواقنا على رمال شاطئ الأبدية، والمغزى المروع لقدر الوحدة، عد يا صاحبي من حيث جئت، ابق معي، أو ما شئت، لكن خبرني بلا كذب ولا خوف هل يصير الاثنان واحدا؟

شهور أمضي غريبا في مدينة تطحن الغرباء، في كل ليلة يغلق الشتاء فيها أبواب البيوت والقلوب تنوشني صورة أبي الذي ما بخل علي بدينارات الكويت، أما جلال فلعله يستكين في حب بنت القاضي التي منت عليه أخيرا بابتسامة فبات يحلم بالجنة، غير مصدق، مستلب الروح بجنون من نوع غريب، سيقطع الليالي، ساهرا محمر العينين معصوب الدماغ، يلتهم مذكرات الأدب الإنجليزي، ويستظهر القواميس

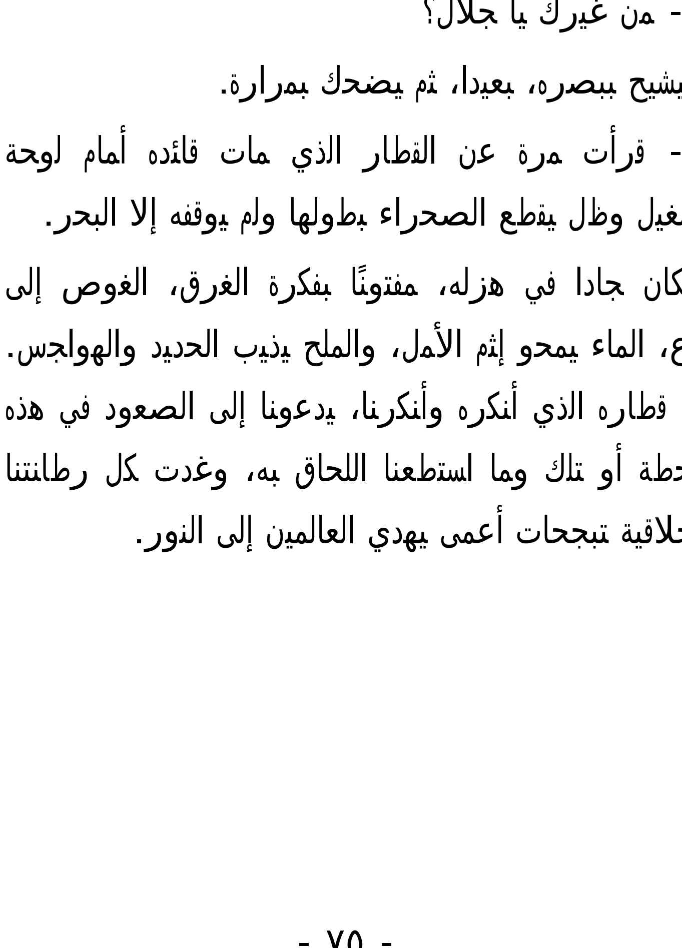
من الجادة إلى الجادة، يسابق زملاء الدفعة خريجي مدارس اللغات ويسبقهم، وسيصرخ من أوجاع الصداع والقولون العصبي، وهو يقر أن قطاره قد انطلق بأقصى سرعة، ينهب المسافات ولا يتوقف، من يقدر على إيقاف القطار المجنون؟

- من غيرك يا جلال؟

يشيح ببصره، بعيدا، ثم يضحك بمرارة.

- قرأت مرة عن القطار الذي مات قائده أمام لوحة التشغيل وظل يقطع الصحراء بطولها ولم يوقفه إلا البحر.

كان جادا في هزله، مفتونًا بفكرة الغرق، الغوص إلى القاع، الماء يمحو إثم الأمل، والملح يذيب الحديد والهواجس. كان قطاره الذي أنكره وأنكرنا، يدعونا إلى الصعود في هذه المحطة أو تلك وما استطعنا اللحاق به، وغدت كل رطانتنا الأخلاقية تبجحات أعمى يهدي العالمين إلى النور.



(٩)

في مهرجان الشعر الذي تنظمه الجامعة التقيته لأول مرة. صعد إلى المنصة بخطوات متكاسلة وملابس متهدلة فزفرت بزهق:

- لن ننتهي من الاستعراض إذن.

فكرت في الخروج، لكن أبياته الأولى استوقفتني وبدأت أنتبه له. صوره المتلاحقة بسرعة قادرة على إثارة دهشتي وغيرتي. جلست أتأمل حركاته وسكناته في إيقاعاتها المتوترة المشدودة. منجذبا إلى شعره الأسود الثقيل المفرط في طوله، بتعارضه اللافت مع جبهته الرجولية العريضة. سرت بين الحضور ضحكات سخرية راحت تتعالى منذرة بالأسوأ، لكنه وقف ثابتًا في مواجهة الجميع غير عابئ بشيء

مما يجري أمامه. بدا لي استغراقه في أدائه الشعري التمثيلي محيرا ومعجزا معا، كأن الوجود قد أفرغ وما عاد فيه سواه، كأنه لا ضرورة لشيء عدا ارتقائه درجات منصة، ووقوفه وراء ميكروفون، يردد أبياتا أملتها عليه لحظات إلهام مجنونة، وسيزول بزوالها. شدتني أفكاره وصوره الشعرية بغموضها وتركيبها ولا معقوليتها، وعندما بلغ محمد هذه الأبيات التي يرى نفسه فيها ككلاب شوارع " بزرميط " يجوب الحارات والأزقة مفتشًا عن عظمة في الزبالة، أو نازيا على كلبة مرفهة بنت أصل تسكن البيت العالي، فوجئ الحاضرون به، يركع تحت سياط نظراتهم، يقلد جري الكلاب على يديه وركبتيه ويبدأ في النباح. تراجعت هوهواته الطويلة المؤلمة في صمت القاعة المصدومة. قبل أن يقفز بعض المنظمين إليه يحولون إثناءه عما يفعل، بلا جدوى، أخذ الجمهور يزأر بعنف مشدوه، وهم يرونه يقاوم ببسالة من يعتدون على كلبيته التي ارتاح إليها واستمسك بها. أخيرا حمله مسئولو النظام بقوة خارجين به، وهو مستمر في توزيع نباحه نحو اليمين ونحو اليسار، كمن يلقي بتحياته على الجميع بعدل ونزاهة. رموا به في ظلمة الغروب الزاحفة،

وعادوا مطمئنين لا يهتز لهم رمش. انسحبت من القاعة مدفوعا بقوة مجهولة خرجت بي عن تحفظي وتلكئي، وفي قلبي مزيج من إشفاق وتلاذذ كلما تخيلته راكعا، لا زال، تائها في خرابات القاهرة، نابحا على القمر، وهاربا ببقايا عظام دجاجة من حجارة الأولاد التي تفجر الدم من رأسه وجسمه بلا رحمة. على درجات السلم الرخامي العريضة كان جالسا في سكينة من أدرك خيره وعمل به، مستريحا إلى النور الشحيح الواصل إلى عتمته من مصابيح شارع بين السرايات، ضم إليه ساقيه بذراعيه المشدودتين، ومال برأسه على ركبتيه دافنا وجهه في بئر الظلمة، ومطلقًا شعره المسترسل حرا تعبث به ريح المساء الخفيفة، اقتربت على أطراف أصابعي، محاذرا ومترددا في اقتحام وحدته عليه، حتى وجدت نفسي أسكن في ريحه. رغبت في أن أهمس له ببضع كلمات، أواسيه، أهنئه، أستغفره، أتهم نفسي أمامه، وأعترف له بحقدي على شجاعته، رأيت جسده المغلق على سر انقسامه يهتز مرتجفا في نشيج مكتوم. أغمضت عيني متألما، متأملاً، ومن بعيد، بلغت جزيرتنا المنيرة دقات الساعة الرنانة تطرد ما اعترى عقلي من شبهات حومت

بخفة عن حلمية الحياة، ولاإمكانيات اللحظة، أفاق فجأة على كثافة حضوري الصامت، وبتراخ شديد جلس يرنو إلي بعينين ذاهلتين مخضلتين كانتا أجمل ما رأيت في أي مساء قاهري. طافت على شفتيه ابتسامة غريبة تحار في فك شفرتها العقول، ساخرة بغير هزء، لا مبالية بجديتها الكاملة، ومنسحبة في صراحتها، تلاشت الابتسامة بسرعة كغيمة من مايو كاذبة، مخلفة في الفضاء الممدود بين نظرتينا، المتصارحتين، رائحة حريق لن يخمد. قال مخاشنا:

- ماذا تريد؟

سؤالك المستفز الساذج يؤرقني، من بين جميع الأسئلة التي تلاعبنا بها يعذبني، لو أنني أعرف ما أريد هل أجيئك آملاً مغزيا ومتوسلاً في الغروب ألتمس عرفانك الكلبي؟ أم تراك يا أخي نادما، بعد كل شيء؟ لست الكلب الذي يرتضي المضي في الحياة منكمشًا داخل أسوار أسياده، متحصنًا من كلبيته المهجنة، أنت كلب الشوارع الرائع يترنم وجيب قلبك بنشيد لم يلقنه إياه أحد، تنبذ الضلالات والوعود والألفة وترتعد حرا، هل تسمعني؟ همستُ معترفًا:

- أنا مثلك.

- مثلي؟

- كلاب شوارع وحيد.

- كلاب شوارع؟ مثلي؟

خبط جبهته براحة يده متذكرا، كأنما بغته، حادثة قديمة قبرت منذ دقائق:

- أنت تعني القصيدة، أليس كذلك؟ ما شأني أنا بها؟ لا تسألني عنها، إنها مجرد كلمات، ومن يصدق الكلمات؟

هل كان صادقا، أو يتظاهر بالجنون؟ كان صادقا في جنونه التظاهري. أجبت بتصميم وغيظ:

- أنا أصدقها. وأنت، قبل الجميع، تصدقها، على أية حال كنت رجلا بجد وأنت تضرب الدنيا على قفاها وتهز لها بذيلك مستخفًا.

أمسكت عن الكلام، وما أمسكت عن مواصلة التحديق في عينيه الهاربتين من نظرتي.. قلت مستفزا:

- أراك نادما وما مرت خمس دقائق بعد.

- أهي خمس دقائق حقا، ربما، لماذا تظن هذه الدقائق الخمس شيئا بسيطًا. هي تافهة، أو لا وجود لها فعلاً هذه

الدقائق الخمس، ومع ذلك فإنها تكفي وتزيد، الدقيقة الواحدة قرن، وقرون كاملة لا تساوي نصف دقيقة، غمضة عين، كل شيء رهن بـ......

سكت بغتة قبل أن يكمل جملته، وظلت أصابعه الطويلة تفرك عينيه المحمرتين بشدة. بادرته مشجعا مستحثًا:

- نعم كل شيء رهن بماذا؟

- وما يدريني أنا؟ لماذا ينبغي أن يكون هنالك شيء مرهون بأي شيء؟ انتظر، لقد تذكرت ما أردت قوله، أعتقد أن كل شيء مرهون بكل شيء.

أطلق جملته الأخيرة وهو يفرقع بالوسطى والإبهام جذلاً راضيا، كأنه يراها تلخيصا عبقريا لكل معرفته التي تتأبى بتعالٍ على الكلمات، حدقت في أرشميدس العالي بيأس:

- قصيدتك أذكى من لغوك الفلسفي هذا.

- أنت مصمم إذن أنها قصيدتي؟

عاودت عيناه مراوغة نظرتي المتحدية إليه هنا وهناك. حدثت نفسي أنها مجرد طريقة في الكلام تفتنه.

- تعني أنك لم تكتبها؟

- طبعا كتبتها. من تظنه يكتبها غيري؟

كنت قد سئمت لعبته، وما عاد بمقدوري الصبر على مواصلتها معه، يظن نفسه ذكيا خفيف الدم؟ همستُ بقرف:

- تافه.

انسلت الكلمة من بين شفتي سريعة مشبعة بالاحتقار وقاسية، استدرت أنزل درجات السلم القليلة وأنا ألوم نفسي على وقتي الذي أضعته معه، في طريقي إلى البوابة القريبة، أتاني صوت يشق الظلام والصمت المخيم على جامعة تلوك أبناءها ببطء متلذذ وتلفظ ما تبقى من أرواحهم المهشمة أول الليل. كان في ندائه تضرع عميق مكسور وهو يجاهد ليلحق بي:

- انتظر. أرجوك.

التفت أواجه عينيه المفتوحتين على هاوية لا يبصرها إلاه، سرت رعشة خاطفة على طول جسدي وعرضه، وكفه الكبيرة تقبض بلا مقدمات على ذراعي، ورائحة أنفاسه المتقطعة تشيع في الجو من حولي. همس بألم:

- أنت تقتلني.

داخل قلبي شعور صادق بالندم على ما قلت. كنت عاجزا عن احترامه، لكني كرهت رؤية قلبه العاري يتوسل قبولي على قارعة الطريق، من أنا لأحكم وأدين؟ وهل أحترمه لو أنه يأتي ليواجهني في عيني أني المتكبر التافه، الجاهل بأوجاع القلب الإنساني؟

تابع بصوت يخلع ارتعاشه عنه كجلد قديم، كلمة وراء أخرى:

- لا تريد أن تفهم، فلماذا خرجت ورائي إذن؟ ألا يحدث لك أبدا أن تشعر أنك لست أنت؟ أن تستغرب ذاتك؟ أن ترى وتسمع نفسك، تتكلم وتسكت، تنام وتكتب وتحب وتموت وكأن روحا ثانية بداخلك هي التي تفعل كل ذلك لا أنت؟ وأنا أقرأ القصيدة رأيت الدنيا فارغة أمامي، لا بشر، لا شيء ولا صوت، إلا صوتي، أقصد إلا ذلك الصوت المخيف، الذي ينبح ويعض بقلبي، أحسست أني كلب بجد، كلب من لحم ودم، هل تعرف كلبا يخجل من النباح على الأغراب؟ أو يتردد قبل أن يرفع رجله ليبول على الحائط؟

سكت دقيقة، غير منتظر، لأية إجابة مني، فما خذلته. خفّت قبضته رويدا عن ذراعي، ثم قال بضيق لم يحاول مداراته أو تمويهه:

- جئت أنت بفضولك لتجلس في ريحي وتحدق معي، خاف الكلب منك وهرب، ورجعت أنا من جديد.

سرنا صامتين، في طريقي إلى بوابة المدينة الجامعية، غير مغامر باختلاس نظرة جانبية إلى عينيه. تخدج أنفاسه وتقطعها يصلني، لا يزال، كما العائد من سفر بعيد، أمامنا راحت السيارات المراقة بخفتها المهولة تصدم شعوري الشاج بالثقل اللامحتمل لوجودي، ومن فوقنا بانت السماء كئيبة مظلمة وقد احتجبت نجومها خلف الغيوم المتكاثفة، توقف لحظة يحدق في أحجار الطريق هاربا من نظرتي المستفهمة، ثم يسأل:

- كنت أحلم. هل كنت أحلم؟

- نعم.

- وأنت؟ هل تحلم معي في حلمي، نحلم داخل الحلم؟

هززت رأسي بغموض في إشارة لا معنى لها، لكّني شعور مريح، بأننا نحلم بالفعل، أن حياتنا ليست إلا حلما

داخل حلم في قلب حلم، حلم يمتد كالظل على أرض قاحلة جدباء، تنتظر رحمة ا ، إرادته وخياله، روحه القدس، لينتشلها من فقهرها وهذيانها، وكنت أفهم يا محمد، نعم كنت أفهم رغم بلادتي التي أوجعتك وتوجعني، لكن عقلي ليس طائر الصباح يغرد بخشوع عند فكرتك الاعتباطية، تستفزه بغموضها الميتافيزيقي، بجنوحها الماورائي، وسيبقى سؤالك المرجف مؤجلاً إلى إشعار آخر، إلى زمن لا يجيء، وسأكتفي ساعتها بالهمس لنا:

- سأفكر.

استدار راجعا إلى محطة الأتوبيس القريبة. كانت خطوته أكثر رجولة مما قدرت.

(١٠)

اختطف الديوان المفتوح في يدي قبل أن استشعر مجيئه وبدأ يقرأ بصوت مسرحي فخيم مشوحا بذراعه بحركات هزلية:

"ماذا أقول عن اليد الصديقة!"

إنها لفرصة حسنة أن أستطيع الضحك من قصص حبي القديمة الزائغة.

وأن أصفع بالعار تلك الازدواجات الكاذبة من العشاق.

لقد رأيت جحيم النساء هناك.

وسيكون من حقي أن أمتلك الحقيقة في روح واحدة، وجسد واحد".

أرقبه وهو يلهو بجحيم رامبو بعاطفة أنكرها على قلبي. وبرغم تباعد مقابلاتنا، ومخاوفي الغامضة التي سيطرت علي في ذلك المساء الغريب، اعتدت أن أفكر فيه. كان يروح، يغيب طويلاً، ثم يعود، يستلل إلى يومي وحلمي، في هيئة تختلف كل مرة عن غيرها، بالأمس كان نارا، أول أمس ترابا، أما اليوم فريح هينة تعبث بخصلات شعره الناعمة فوق جبينه، وتنقلب مدومة، حبلى برمال الشرق البعيد. مسئولية صامتة وبدائية ولا مفهومة يحسها الجميع تجاهه، مسئولية معجونة بكبرياء وزهو دفينين. كان محمد سؤالا نموذجيا لاختبار حدود النضج، لتقدير ما حصلناه من نمو. أما البنات فيسهون عن أنفسهن ويخلعن برقع التظاهر معه ويسلمن أرواحهن لرغبة تتبرعم في عمق ذواتهن، في صميم تكوينهن الأنثوي. أتحسس مدهوشًا مشاعرهن الأمومية التي تغلبهن على أمرهن معه تحت سمع وبصر الجميع، ملوثًا بغيرة تنهش فؤادي، وبإشفاق على النفس يصرخ في وجهي أنني لست الصديق. لاحظتْ عزة:

- غريب. أتخيل نفسي أحيانا أسرح له شعره المنكوش وأطبطب على ظهره لينعس، وأخاف أن يعض أصابعي أو ينفجر باكيا، وهو يدبدب على الأرض برجليه.

استسلمت لغواية لحظة انعتاق وبوح، تفكر لنفسها بصوت لا يكاد يخرج:

- لا يشبهنا ولا يشبهكم، لكن رائحة عرقه تدوخ البنات.

صدمتني ملاحظتها، ردتني إلى التباس مشاعري وانحرافها. ألقى بالديوان الصغير على "البنش" وراح في شرود عميق قبل أن يسألني بتهكم:

- أخيرا تعرفه؟

- من؟

- من؟! رامبو يا شاعر.

رد بتعالٍ ، ساخرا من بلادتي.

- " فصل في الجحيم " ديوان رائع.

- ديوان رائع.. مخيف..رهيب.. من قال إني أتحدث عن الديوان؟ أنا أقصده هو بلحمه.

- بلحمه ودمه؟ لا مانع.. هل جهزت آلة الزمن لنزوره؟

- هل تريد ذلك حقا؟ تستطيع أن تكون معه هناك أو هنا، بشرط أن ترغب فيه رغبة أكيدة،

- رجعنا للكلام غير المفهوم. لماذا تحرص على أن تبدو غامضا؟

- لماذا تحرص على أن تبدو مفهوما؟

اصطنع هيئة جادة، واكتست ملامحه رداء الرهبة والخطورة وهو يميل على أذني هامسا:

- سأبوح لك بسر خطير.. تعرف؟ أنت أكثر من قابلتهم في حياتي غموضا.

انفجر في ضحكة اهتز لها كيانه، ظلت تترجع أصداؤها في المدرج الصغير شبه الخالي . كظمت غيظي متشاغلا بقلمي الأسود أرسم به على الورقة البيضاء، دوائر متقاطعة تبحث عن مركز لا وجود له، قلت ببرود كاذب:

- ثم.

- ثم تشغل بالك بما لا قيمة له، وتتعلق به وأنت تصرخ وجدتها وجدتها، أما الحقيقة الحقة فتعبر عليها بسرعة دون أن تراها أو تعلم بوجودها.

أطلت علينا في وحدتنا رؤوس لزملاء وزميلات يستفسرون عن المحاضرة التالية، اصطدمت جديتهم المستفهمة بصمتنا البارد، وبحيرتنا الخرساء فمضوا في طريقهم لمراجعة الجداول المعلقة باليوم والساعة، قال:

- أنت معه الآن، بلحمه ودمه.

- من؟

- من؟! من؟! من؟! ألا تفهم؟ رامبو. زهقتني ياأخي.

كلماته الواثقة مغيظة، لم أقدر معها على لجم نوبة الضحك التي خضت جسدي كله. واصلت الضحك المبهور بذاته، يقطر يأسا، حتى دمعت عيناي، وبعنف فجائي قبضت يده على الورقة البائسة أمامي يكورها ويرمي بها على طول يده من النافذة المفتوحة. صر بأسنان مطبقة، وارتعاشه سارحة بجسمه المتوفز، تعلن التحدي:

- أنت لا تصدقني.

في الدقائق الخمس الأخيرة قبل فناء العالم سأتعلم كيف أصدقك يا صاحبي، كيف أجعل من إيماني بصيرا بقبولي قدر التسليم، قدر اليقين السابق بلا سؤال، وفي الدقيقة الأخيرة سأهتف كفرعون موسى أني رأيت، وأني عرفت،

ضارعا إلى ا   أن يغلق لي البحر لأمضي بإيماني صوب شواطئ الحرية وبعث الضمير، مبشرا بالدين الحق، بالمعجزة، وبالنور يتفجر في ظلمة الطاب اللجوج، لكني اليوم لا أملك سوى عينين لا تريان، وأذنين لا تسمعان، وقلب تؤججه الشكوك والريب، فمن يلوم الأعمى الأصم، من يفاخر من ببصره الحديد وسمعه الحديد؟ أجبت بصبر متلاشٍ:

- أنا أرثي لك.

أخذ يخبط الأرض بقدمه في حنق مسعور ويرميني بنظرات كارهة ويهدر:

- أنا الذي يرثى لك، هل أرمي بنفسي من الشباك أمامك لتصدق أني هو؟

أنهى سؤاله وانتتز بقفزة واحدة إلى النافذة المفتوحة على سور الجامعة وأشجار النخيل وضجيج المرور في شارع بين السرايات، جمدتُ في مكان لحظة قبل أن ألحق به وأضمه إلي مكبلاً جسده المنتفض وهو ينشج:

- لا أحد يصدقني، لا أحد يصدقني.

اقتدته بسرعة نازلاً إلى الحديقة المقابلة، محاذرا أن ينتبه أحد لشيء مما يجري. استسلم لي صامتا زائغ النظرات، وكنت ألومه:

- مجنون.. مالي أنا بك؟

ثم غمرتني موجة حنان مباغتة فأخذت كفه الكبيرة بين كفي أضغط عليها بقوة ورقة معا. انتفض بحسم:

- سأذهب.

كان بكاؤه وتهديده بالانتحار ذكرى من ماضٍ بعيد لما يظلنا زمانه بعد. كان حلما للسهرانين في قلب ليل أحدب طويلٍ لا يبدأ ولا يزول، لا وجود له ولا ليل، أما لهفتي وخوفي، وجحودي، فلا حاجة لأي أحد لاعتذاري عنها.

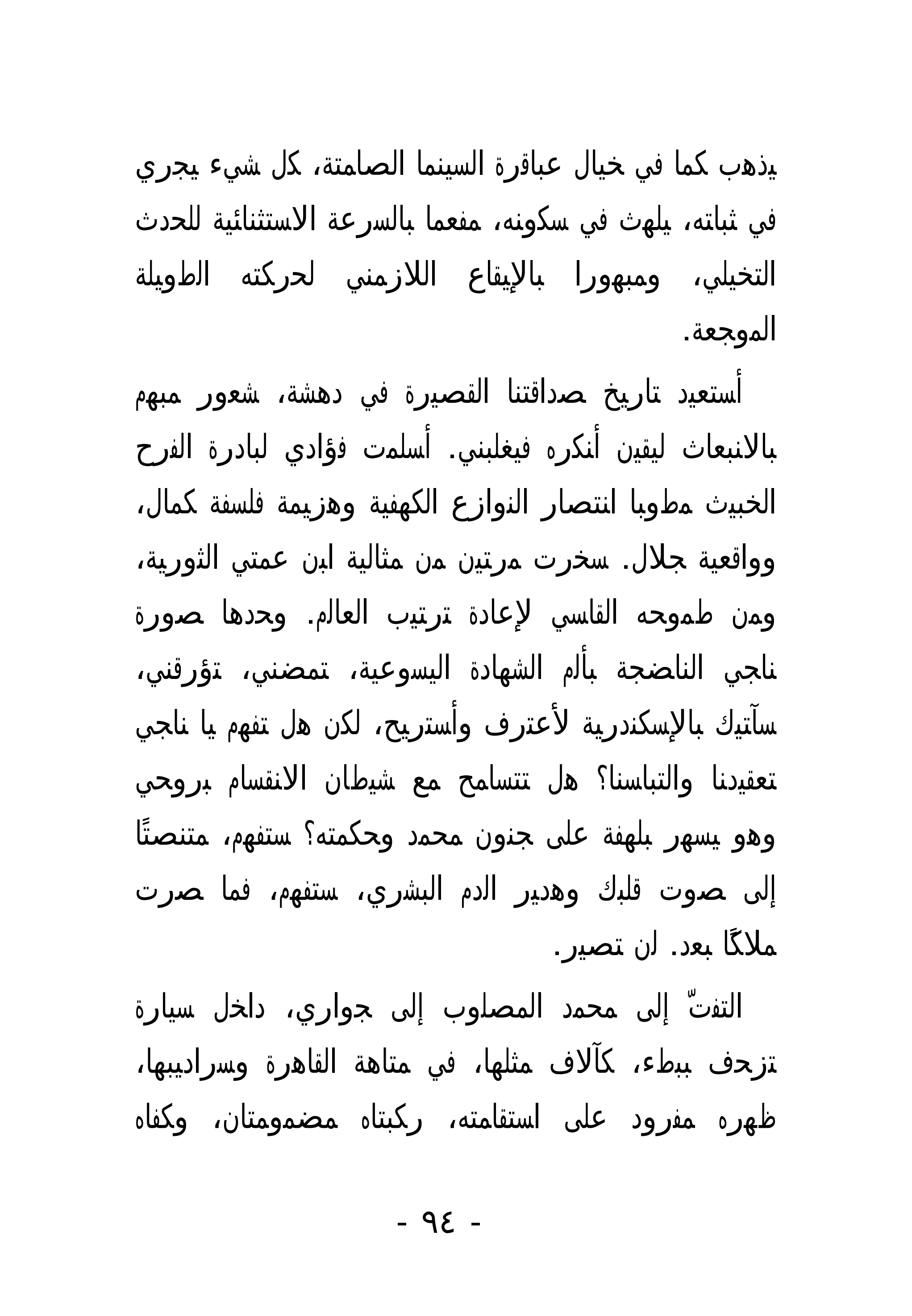
قمت أتبعه مصمما:

- سآتي معك.

(١١)

جلسنا بالمقعد الخلفي للتاكسي متباعدين وزاهدين في تبادل كلمة طوال الطريق، وكلما مضت بنا السيارة خطوة، يروح العالم ينأى عني أبعد فأبعد حتى غاب بأكمله في ضباب اليوم الأول لميلاد الكون. رأيت الانفجار الكبير الذي أوجد الحساب والزمن. رأيت تفتت النجوم وسيلان حممه، وتكاثف غازاتها. ورأيت الكرة الصغيرة تائهة في فضاء سرمدي، تهرب بجلدها فتبرد وتُكَوِّن، ظاهرها يبرد وروحها تغلي، وفي الأعماق الغائرة تلتهب" اللافا" في أتون أبدي مؤكدة أن الختام هو البدء، هو هو نفسه، وأنه لا وجود في نهاية الأمر، لبدء أو ختام.

أسند رأسي إلى الإسفنج وأرقب الحياة، من خلف حواجز الضباب المنكشف، والسيارات والمباني والأحلام، كل شيء



يذهب كما في خيال عباقرة السينما الصامتة، كل شيء يجري في ثباته، يلهث في سكونه، مفعما بالسرعة الاستثنائية للحدث التخيلي، ومبهورا بالإيقاع اللازمني لحركته الطويلة الموجعة.

أستعيد تاريخ صداقتنا القصيرة في دهشة، شعور مبهم بالانبعاث ليقين أنكره فيغلبني. أسلمت فؤادي لبادرة الفرح الخبيث مطوبا انتصار النوازع الكهفية وهزيمة فلسفة كمال، وواقعية جلال. سخرت مرتين من مثالية ابن عمتي الثورية، ومن طموحه القاسي لإعادة ترتيب العالم. وحدها صورة ناجي الناضجة بألم الشهادة اليسوعية، تمضني، تؤرقني، سآتيك بالإسكندرية لأعترف وأستريح، لكن هل تفهم يا ناجي تعقيدنا والتباسنا؟ هل تتسامح مع شيطان الانقسام بروحي وهو يسهر بلهفة على جنون محمد وحكمته؟ ستفهم، متنصتًا إلى صوت قلبك وهدير الدم البشري، ستفهم، فما صرت ملاكًا بعد. لن تصير.

التفتّ إلى محمد المصلوب إلى جواري، داخل سيارة تزحف ببطء، كآلاف مثلها، في متاهة القاهرة وسراديبها، ظهره مفرود على استقامته، ركبتاه مضمومتان، وكفاه

مستريحتان فوق فخذيه المشدودتين، باطنهما إلى الداخل كما في تمثال جرانيتي قديم، عيناه تصادتا في محجريهما كقطعتين من زجاج، معتمتين لا تشفان عن شيء. اخترمني خوف عابر كسهم من نار فكدت أصرخ، لولا زفرة واهنة أفلتت من صدره تسبق ندائي.

غادرنا السيارة أمام بيت كبير تقف بوابته ونوافذه وشرفاته المزخرفة، كشواهد عتيقة على مجد غابر لم يتبق منه إلا روائح التراب والرطوبة تفغم الأنوف والنفوس. تلتف خطواتنا في صعودها مع السلالم العريضة التي تحتضن الدرابزين الحديدي تنثني حتى الطابق الثالث. وقفت ألتقط أنفاسي اللاهثة بينما أخرج محمد مفتاحه وأولجه في قفل الباب فانشقت الضلفة اليمني محدثة صريرا مزعجا خشيت معه أن يوقظ النيام. أشار لي بالدخول فتبعته بوجل أعهده في نفسي عند تسللي إلى البيوت الغريبة. جمدتُ في مكاني مترقبا ظهور عفاريت طفولتي، مفتشًا عن علاماتها المميزة، أسنان الذئب المنثورة بإهمال على طول المدخل، ومصيخًا السمع إلى صرختها المخيفة أو ضحكتها الوحشية الهازئة. بغتة، أحسست بذراعين قويتين تطوقان خصري، تعتصران

صدري، وتسحبان آخر ما تبقى برئتي، من أنفاس، فآمنت أني هالك. أفقت على همسه المبهور يعيد إلي بعضا من ثباتي الضائع، ويبدد بروحي آخر بشارات سلام الجهل:

- ادخل.

أرنو إليه في الضوء الشحيح المنسرب من خصاص النافذة المعشقة مستعيدا ذكرى شمس العصر التي خلفتها ورائي بغباء عند بوابة البيت. خطوت إلى أول حجرة صادفتني قاصدا النور، ألتمس حماية وضوحه من غوايات الظلام.

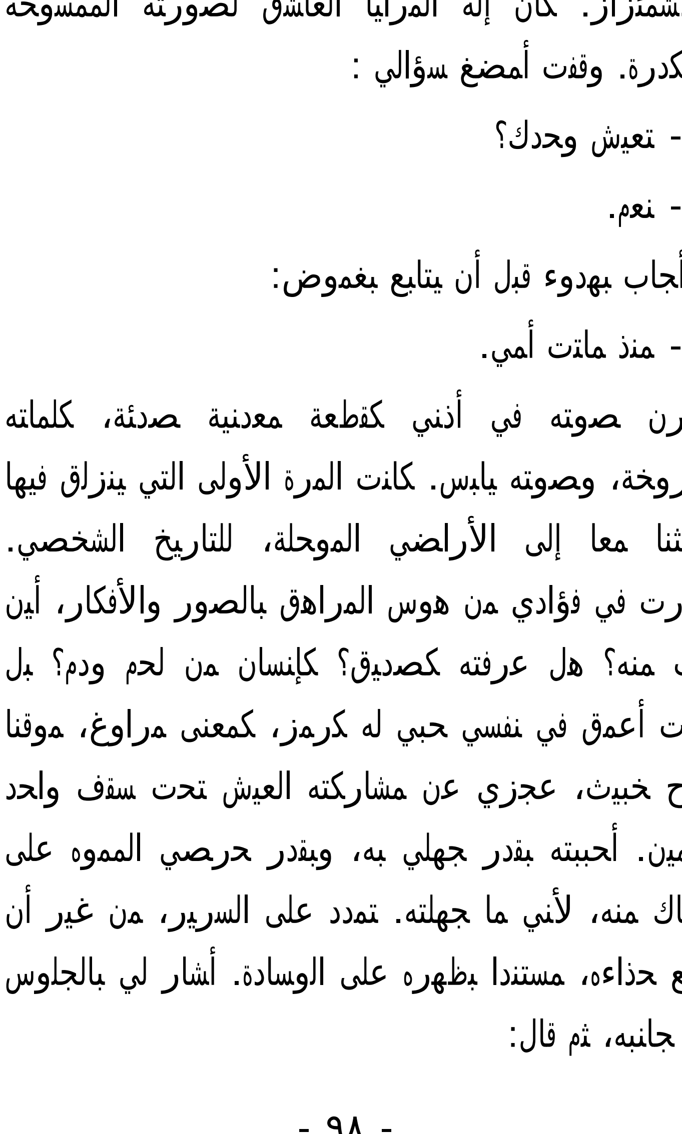
- ادخل. ماذا جرى لك؟

كان يطل على رعبي من علياء قامته اللازمنية بملامحه الجامدة الرصينة، وقناع الموت الهادئ فوق وجهه. تقدمت إلى النافذة أفتحها على مصراعيها فتدفق شلال الضوء وغمر المكان.

- لا أحد هنا؟

أجابني بهزة بسيطة من رأسه. أجلت بصري في الحجرة التي بدت في حالة فوضى مريعة. تذكرت بيت أبي المسجون في نظامه ونظافته المتطيرة، وأنا أعدو بعيني على السرير

الخشبي العريض، بملاءاته القذرة التي حال لونها وتوارى تطريزها أسفل بقع الوسخ الزاحفة عليها، ومن قلب الوسادة ينفجر القطن الأسود متناثرا في كل ركن، مكللاً فضاء الغرفة بندفه الصغيرة التي كانت يوما بيضاء. في الجانب المقابل يقبع المكتب العريض، تتكوم الكتب فوقه بإهمال يثير الأعصاب. أما كراسي الفوتيه العتيقة فقد تدلت لوالبها الحديدية وقش جوفها إلى الأرض، فما عادت تصلح. وبعيدا في أقصى الحجرة، ينتصب الدولاب الضخم لافظا أحشاءه من ملابس وغيارات داخلية وأحذية قديمة تخرج لسانها لصور محمد المعلقة على الجدران هنا وهناك. تمهلت بنظراتي أمام صورة كبيرة له ملتقطة من الوضع الجانبي، وخمنت أنها تفصيل للوجه تم تكبيره من لقطة نصفية. اجتهد محمد، في الخامسة عشرة ربما، كي يقدم روحه لجمهور غيبي، على نحو مثير، مرسلا خصلات شعره الطويلة، زاما شفتيه، ومحدقا إلى البعيد، كمن يعلن التحدي. كان يتلقى تماسكه من قوة لا منظورة، مكرسا انفصاله عن عيون مراقبيه، ومستسلما، وإن للحظة، للأيام العابرة والحساسية المريضة. رأيته مغلقًا على ذاته، يلمها، يستجمع نثارها، يقيم



لنفسه نُصبا يتمنى لو يخلده، بقوة الرفض، وبشجاعة التعالي والاشمئزاز. كان إله المرايا العاشق لصورته الممسوحة المتكدرة. وقفت أمضغ سؤالي :

- تعيش وحدك؟

- نعم.

أجاب بهدوء قبل أن يتابع بغموض:

- منذ ماتت أمي.

رن صوته في أذني كقطعة معدنية صدئة، كلماته مشروخة، وصوته يابس. كانت المرة الأولى التي ينزلق فيها حديثنا معا إلى الأراضي الموحلة، للتاريخ الشخصي. سخرت في فؤادي من هوس المراهق بالصور والأفكار، أين كنت منه؟ هل عرفته كصديق؟ كإنسان من لحم ودم؟ بل رحت أعمق في نفسي حبي له كرمز، كمعنى مراوغ، موقنا بفرح خبيث، عجزي عن مشاركته العيش تحت سقف واحد ليومين. أحببته بقدر جهلي به، وبقدر حرصي المموه على الفكاك منه، لأني ما جهلته. تمدد على السرير، من غير أن يخلع حذاءه، مستندا بظهره على الوسادة. أشار لي بالجلوس إلى جانبه، ثم قال:

- غدا ذكراها الأولى.

أنهي إلي الخبر بتجرد ولا مبالاة فتذكرت قارئة النشرة بالتليفزيون وهي تنقل للمشاهدين أنباء الفيضانات المدمرة في الصين وبلاد الواق الواق بنفس الابتسامة العريضة. نخسته بلهجة ساخرة:

- الحي أبقى من الميت.

لم أفهم إصراري على مناكدته. أحسست برعدة مكتومة تزلزل جسمه. انتظرت ثورة غيظة وانتقامه من تحجر قلبي بشغف. رأيت يده تقبض بعصبية على ملاءة السرير تكرمشها وتجعدها، وقد أغمض عينيه كي لا أراه، ثم يهمس بألم:

- دفنتُ قلبي معها.

بدأ يفتح عينيه بتثاقل مسددا نظرته إلى عيني بثبات أخافني، وضعضع ثقتي، ثانية، في واقعية اللحظة. سألني برزانة ومباشرة:

- لماذا أنت قاسٍ هكذا؟

باغتني السؤال وإن بقيت أدفعه إلى طرحه، دفعا منذ التقينا، سؤال صادم، لا تشوبه ظلال تافهة من إدانة

واستنكار. كان مثيرا في موضوعية مراراته الفريدة، موضوعية خائنة للطبيعة، لكل ما أدركته وأردته وسلمت به حتى اليوم عن الطبيعة. كيف يقدر قلب الإنسان على احتمال كل هذا الحزن ويفتن به ويحيا له معا؟

- لم يكن لي سواها.

- مات أبوك قبلها؟

تشاغل عن سؤالي بخلع حذائه قاذفًا به إلى آخر الحجرة، وارتكن بظهره إلى الحائط الذي تقشر جيره الوردي الباهت، مبتهجا بحرية قدميه العاريتين تحت نظراتي المستغربة. زفر بهدوء:

- لا أب لي.

إيمان الكفر يقين معكوس يخرج لك لسانه ويهزأ من أصالة جحودك، تتقمص آثار أقدام لا وجود لها على درب المحبة الأكثر جنونًا، حب يكبر فوق موضوعه، حب الأرواح المبددة، وكفر اليقين الملتبس باكتشاف السبيل الوحيد الممكن، عنفك هو رهانك الأخير على الوجود، ويوما ما ستجد ما يلزمك من فكر مطمئن وقلب يستبد به كافٌ للغناء،

فتحدثني عن نُعمى الموت والميلاد، في قتامة الأمسيات وقمر الليل، بانتظار طلوع فجر الأب الكاذب:

الموت الذي رج هيكله المتهالك

عرف طريقه إلي

وأصمى ألم الفراق قلبي

في تلك اللحظات التي يروح فيها ولا يرجع

أبعثه في قلبي حيا

ناثرا أوجاع ويتم ثلاثين سنة

على قدميه المتيبستين

الابتسامة المتشنجة الهازئة

عقفت زاوية الفم المضموم على صرخة

لن تخرج

العينان اللتان عاينتا المشهد الأخير

تحدقان بثبات زجاجي في رعب

يعرفه وأعرفه

آه لو أستطيع

لعبرت عنه كأس الرعب

لو أستطيع لكنت له

الأب الذي لم يكنه لي

- مات قبل ولادتك؟

- مات قبل ولادتي.

دقيقة أخرى قبل أن تعاوده الحيرة فيتلعثم:

- أو...

- أو؟!

- مات قبل ولادته. هل تعرف؟ أظنه لم يوجد أصلاً.

كل أبنائك يا ا هم مخلوقات الهواء، يرفضون أرضك ويتعالون برؤوسهم نحو السماء يقيمون القصور على السحاب المارق وقمم الجبال الثلجية، وفي زمن الفيوض يتوقون إلى الفناء فيك، منذرين أنفسهم للاحتقار المتسامي، مشيئة الوجود في أقصى حدود الاحتمال، مشيئة الكف عن الوجود، أما الوضوح العابس فهو الفكاهة المجنونة ذاتها، فكاهة الموت الحانق، عالمك يا ا منسجم متوازن، حكمتك

زاوجت العدل بالهوى، ودنياك مرة، فهل من معنى للكلمة؟ هل للقلوب المكسورة من سكن لها فيها؟

قلت بغيظ وقد فقدت السيطرة على أعصابي:

- تريد أن تسمع رأيي؟ سأقول لك، كنت أحسبك تتظاهر بالجنون، وتحاول لفت الأنظار إلى الشاعر الرومانسي البائس.. وفي وقت ما، شككت في جنونك فعلاً، لكني الآن أعرف أنك لا هذا ولا ذاك، وأن المسألة كلها لا تخرج عن كونك...

تطلع إلي بعينين متسعتين متألمتين ومتلذذتين بسياط المعرفة. واصلت إدانتي ضاغطًا على كلماتي أغالب رددي:

- جبانًا.. نعم... لست أكثر من إنسان مرتعد عاجز عن مواجهة الدنيا في عينها، فتشغل نفسك، وتشغلني معك بكل هذه الفوازير التي لا معنى لها. صحيح؟

شابك يديه خلف رأسه يتقي بهما ضغط الحائط عليها، وراح مزيج من صفرة وزرقة يلون صفحة وجهه الشاحبة. رد بفتور:

- صحيح.

ثم مسرعا وقد أفاق من حلمه العميق:

- لا... غير صحيح.

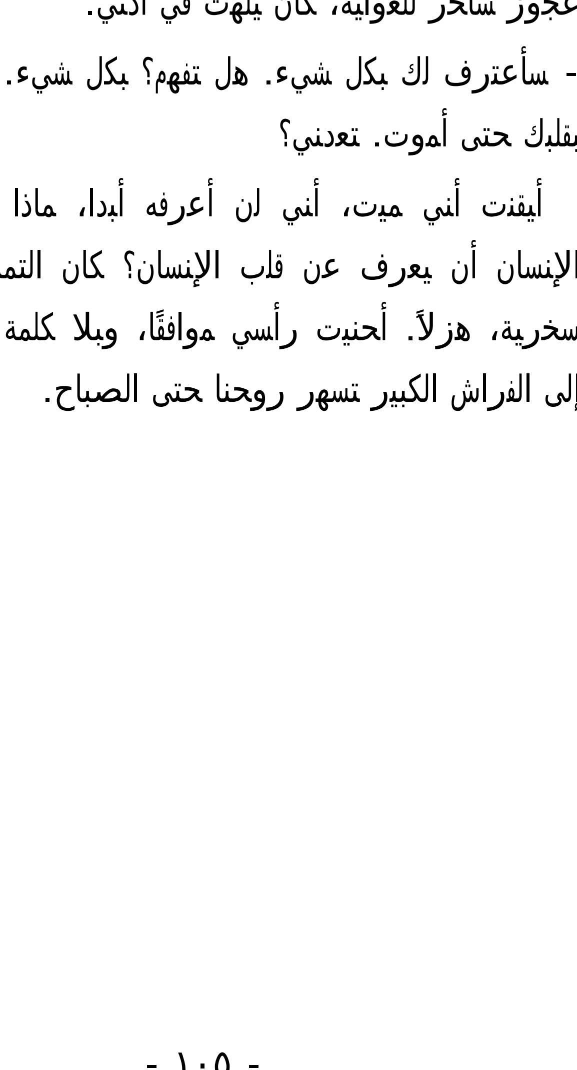
- يكفي هذا جدا.. إني أرثي لك.

قمت قاصدا الهرب من هذه المصيدة الكلامية الجديدة، منتويا الابتعاد عنه نهائيا. كانت الغرفة تسقط منذ فترة في عتمة الغروب الزاحفة على الصدور والأفكار. فكرت بحزن أني لن أدخلها ثانية، متجاهلاً نداء دمي الذي يهفو إلى دعواه الصامتة. في طريقي إلى باب الخروج. وقع بصري على عنكبوت كبير أخذ ينسج شباكه الرقيقة حول فريسته العاجزة عن الفكاك من أسر خيوطه الحريرية الصلبة، كان يمتص دمها وعصاراتها الحيوية، بصبر دءوب وشغف مكتف. كان فعلا لا غش فيه من أفعال الحياة الخالدة، التي تستصرخ المستحيل، الحياة الطيبة الساهية عن العالم، ضد فظاظته القاسية وتفاهته المعزية.

تسال همسه المتضرع إلى أذن قلبي.

- لا تذهب.. أرجوك.

أحسست به ورائي، يداه تلتفان حول خصري وتتشابكان على صدري، رأسه تستريح فوق كتفي اليمنى، فغمتْ أنفي رائحة عرقه الدبق فشعرت بالقهر، أردت لو أبعده عني، لو



أقصيه عن صدفتي، مستنكرا إطلاق العنان للخال الجوهري، لشطط الجنون الدوار وما أنصت لتأوهاتي سوى شيطان عجوز ساخر للغواية، كان يلهث في أذني.

- سأعترف لك بكل شيء. هل تفهم؟ بكل شيء. وستحفظني بقلبك حتى أموت. تعدني؟

أيقنت أني ميت، أني لن أعرفه أبدا، ماذا يمكن لقلب الإنسان أن يعرف عن قلب الإنسان؟ كان التماسه لوعدي سخرية، هزلاً. أحنيت رأسي موافقًا، وبلا كلمة زائدة عدنا إلى الفراش الكبير تسهر روحنا حتى الصباح.

(١٢)

آثرت السفر إلى الإسكندرية عبر الطريق الذي يخترق الصحراء موغلاً في الفرار من طنطا. كنتُ فيها عابر سبيل، واليوم أهرب منها إلى الرمال والبحر، إلى الخلاء الذي لا علامات فيه، الخلاء الحنون يضيعني ويلهو عني وهو يفهم ويحتمل، هل تقدر طنطا على الفهم والاحتمال؟ كانت سنواتنا في بيوتها ومدارسها وشوارعها تاريخًا ثقيلاً من التظاهر، كانت سجل الروح التي أفرغها وعد انبعاث البطولة المراهق من حقيقتها البريئة الطفولية، أحلام بناء الهيكل الجديد، ويقين الإنكار العدمي!

نذرنا الصمت في حضرة كمال المتعالي في سماوات وحدته وكفره يعلمنا محبة الحكمة دون إيمان بقدرة الحكمة على تحريرنا، وسيمضي زمن طويل، عمر كامل، قبل أن

نراه في ظهيرة صيفية حارة، وقد خلع عنه قميص المثقف الثوري ورمى بكتبه الكبيرة خلفه، مشمرا الجلابية حول وسطه، وممسكًا بالفأس الثقيلة يثقب بها في جوف الأرض بغيظ، معميا عن مبدأ الحياة وسرها المدفون في ترابها، طامعا في إيمان الفلاح وصبره، ثم يزهد في اللعبة، ويفكر أن كل شيء مساوٍ تماما لكل شيء آخر. أما جلال فقد أسلمني لليالي الوحدة في مدينة الطلبة وذهب.. بثمن عظيم باعني، بإشارة قبول صامتة من بنت القاضي التي لقنته كيف يحبها حسب مشيئة هواها، وبرعبه من فشل يطوق روحه ويفرغها وهو يرتقي درجات سلم الفخر الأكاديمي، وفي يوم الحساب لن يعترف لي:

- أدفع نفسي دفعا لدخول الفصل، أقف متعاميا عن عيون الطلاب المتحدية بالسخرية والاكتفاء الواثق، أي نفع يعود عليهم من دراسة الأدب الأفروأمريكان؟ أبيع لهم مذكرات رئيس القسم فتلمع عيونهم بالرضا، الآن يثقون في نجاحهم. أهم أن أبوح لهم بأفكاري التي تعذبني عن الكذبة الكبيرة، وأمسك لساني في آخر لحظة. في المساء أبحث في كل

قنوات التليفزيون عن مباراة الأهلي والمريخ. ألم أقل لك؟ المجد للأهلي في الأرض.

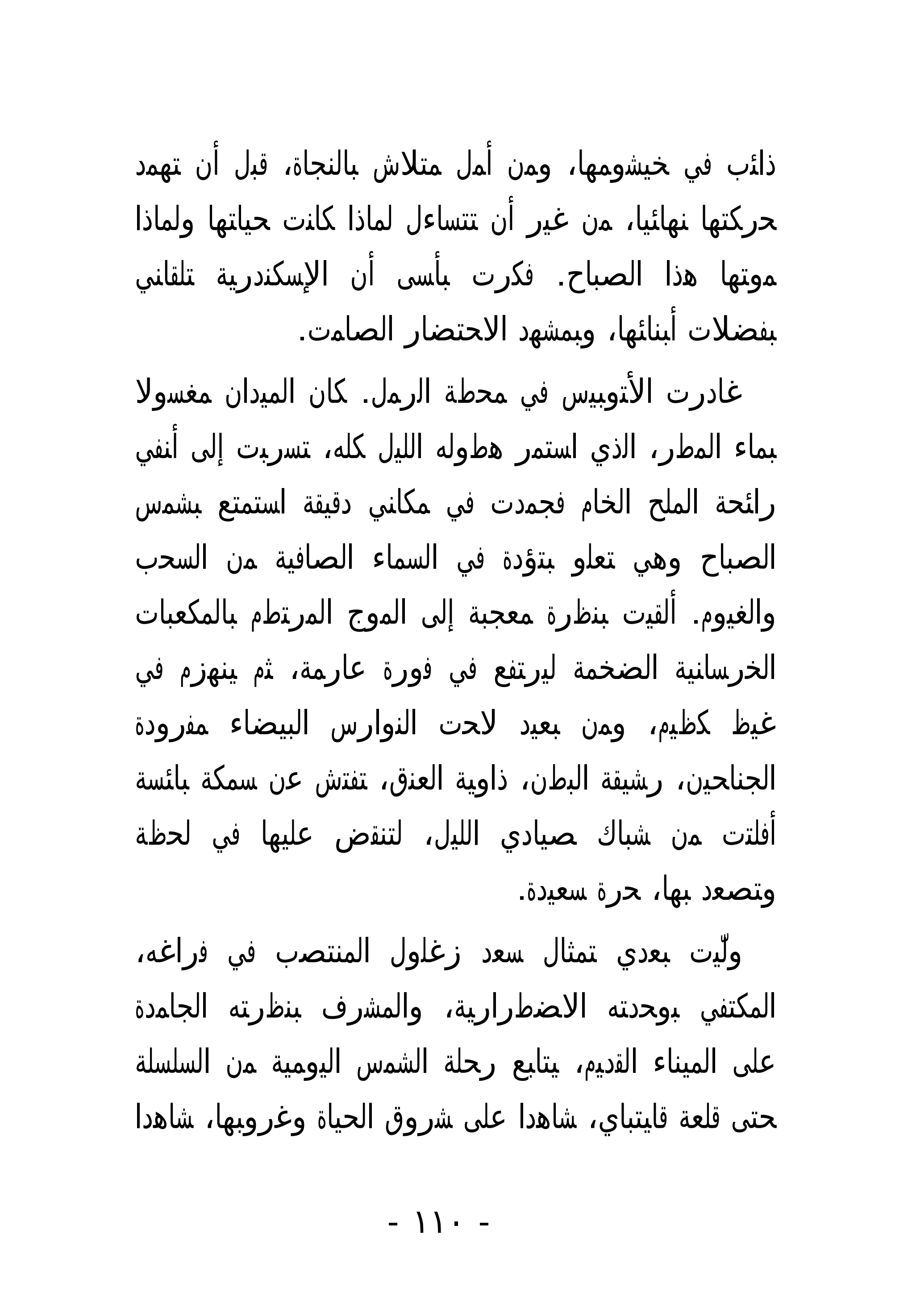
وسيضحك بمرارة في وجه أشرف الذي سيتعلم، بالعدوى! كيف يلعن عقيدة التدمير والخلق ليبشر الصابرين، ويموت فلا يبعث.

ارتكنتُ برأسي إلى زجاج النافذة النظيف مطوفًا بعيني على السهل الرملي المنبسط بامتداد البصر، كانت شمس الربيع المهادنة قد خلعت عنها عباءة الليل لتهدي البكور تباشير الضوء والدفء. نسيت أرقي طوال الليل خوفًا من ضياع موعد الرحلة التي تعلقت بها كما يتعلق الغريق بحطام القارب، دون أن أعرف لماذا، وجلست أبعث في نفسي النشاط، طاردا النعاس عن جفوني، ومبهورا بالتماعات الرمال الصفراء البنية تحت وهج الشمس وانعكاس النور المرتد إلى الأعالي . لماذا النور في الصحراء غيره في أي مكان آخر؟ خداع بصر أو معجزة فريدة لتجلي الماورائي؟ في كل لحظة، ومع كل عناق بين سهام الضوء وكثبان الرمل المتكسرة المبتهجة بكمالها الباطني، رأيت الأرض والسماء تتماسان، هل كان ثمة أرض أو سماء؟ صحراء أو شمس؟ أم

أنها الروح تضم الكل فيها وتمتحن إيماننا بالكثرة الكاذبة؟ هناك، عند الأفق البعيد. وقف ناجي في جنونه التنسكي مضيعا في سديم النور فأدركت لماذا يخرج الأنبياء من الصحراء أو يخرجون إليها.

عند المدخل الجنوبي للإسكندرية هاجمت أنفي الروائح النفاذة المدوخة بامتداد ملاّحات مريوط المسكونة بكائنات الهيش وأعواد البوص الطويلة، ومن عرض البحيرة ظلت قوارب الصيد الصغيرة مسحوبة البطون تنساب بخفة راجعة إلى الشاطئ بصيد الفجر ومحصوله الذي بدا، حتى لعيني غير الخبيرتين، فقيرا متهافتًا، وعلى جانب الطريق وقف الصيادون بسراويلهم المنفوخة المبتلة، وطواقيهم البيضاء العريضة ينادون على بضاعتهم المفرودة فوق الطاولات الخشبية المهترئة المفروشة بأعشاب البحيرة نصف الخضراء.

انجذبت عيناي إلى سمكة كبيرة، من نوع البلطي بظهرها الرصاصي الداكن، وبطنها البيضاء اللامعة وذيلها الضارب إلى الحمرة، كانت تنتفض وتقفز، لا تزال، بكل ما تبقى لديها من شهوة الحياة، من أكسجين



ذائب في خيشومها، ومن أمل متلاش بالنجاة، قبل أن تهمد حركتها نهائيا، من غير أن تتساءل لماذا كانت حياتها ولماذا موتها هذا الصباح. فكرت بأسى أن الإسكندرية تلقاني بفضلات أبنائها، وبمشهد الاحتضار الصامت.

غادرت الأتوبيس في محطة الرمل. كان الميدان مغسولا بماء المطر، الذي استمر هطوله الليل كله، تسربت إلى أنفي رائحة الملح الخام فجمدت في مكاني دقيقة استمتع بشمس الصباح وهي تعلو بتؤدة في السماء الصافية من السحب والغيوم. ألقيت بنظرة معجبة إلى الموج المرتطم بالمكعبات الخرسانية الضخمة ليرتفع في فورة عارمة، ثم ينهزم في غيظ كظيم، ومن بعيد لاحت النوارس البيضاء مفرودة الجناحين، رشيقة البطن، ذاوية العنق، تفتش عن سمكة بائسة أفلتت من شباك صيادي الليل، لتنقض عليها في لحظة وتصعد بها، حرة سعيدة.

ولّيت بعدي تمثال سعد زغلول المنتصب في فراغه، المكتفي بوحدته الاضطرارية، والمشرف بنظرته الجامدة على الميناء القديم، يتابع رحلة الشمس اليومية من السلسلة حتى قلعة قايتباي، شاهدا على شروق الحياة وغروبها، شاهدا

لا يقدم ولا يؤخر، ولا يكترث مرة لوجودنا. ركبت ترام الرمل حتى سبورتنج. للمرة العاشرة أخرج الورقة المطوية التي كتب لي ناجي عنوانه عليها. أخترق الشارع الرئيسي المتعامد على محطة الترام نازلاً إلى البحر، أعبر تقاطع بور سعيد لألقي نفسي في مواجهة الكورنيش ثانية. دقيقة أخرى، وكنت أقف أمام باب العمارة الحديدي الصدئ أختلس النظر بحيرة، إلى عقارب ساعتي التي تزحف باتجاه النصف بعد التاسعة، ترددت في الصعود مفكرا أنه لا بد قد غادر إلى كليته. تلفّت أبحث عن بواب العمارة لأستعلم منه فما وجدت غير دكته الخشبية. حسمت أمري بالصعود إلى الطابق الثاني متعثرا، غير مرة بالدرج المعتم الضيق، دققت جرس الباب المجاور للسلم برفق وسكنت بانتظار الجواب. كل شيء من حولي يغرق في سباته وصمته، هممت بالنزول يائسا لولا حفيف خطوات وئيدة تسربت إلى سمعي من قلب السكون والأمل العائد، ثم صرير الباب وهو ينفتح ببطء كاشفًا عن أجمل هدية يحملها الصباح لنفسي المكدودة، وجه ناجي النحيل غائما في وسنه، يحدق في، وهو ضائع، لا يزال، في

تلك التخوم الهشة الموزعة بين النوم والصحيان. هتف بفرحة مستيقظة:

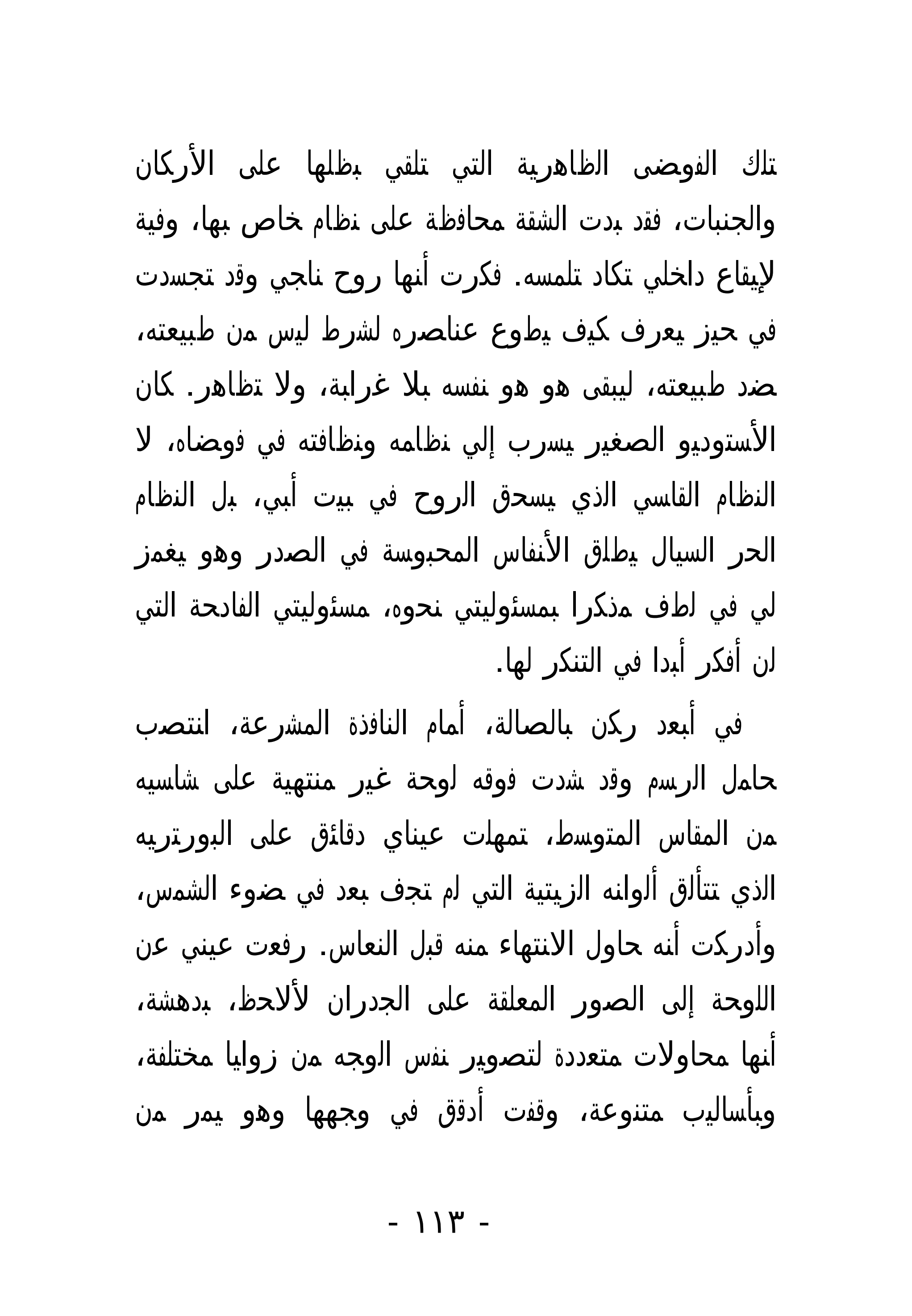
- معقول؟

التحمنا في عناق طويل على عتبة الشقة أمام الباب الذي واربه ناجي قليلا، غافلا عن إفساح مكانٍ كافٍ يسمح بدخولي. كان يغالب دهشته وسروره بزيارتي المفاجئة، فسألته مداعبا:

- لن أدخل؟

- طبعا. تفضل.

رد بانفعال مروض وهو يتراجع بظهره سامحا لي بالمرور إلى الصالة الضيقة المظلمة. اتجهت إلى النافذة القريبة أحاول فتحها فلا تستجيب. كان الخشب المتآكل والمفصلات الثقيلة الصدئة تقاوم ضغطي عليها مهددة بانكسار وشيك. لحقني ناجي يعالج ضلفتي الشيش برفق ودربة حتى استجابتا، ليعوم المكان في فيض النور الآتي من عند البحر. تجولت نظرتي في الشقة الصغيرة المزدحمة بكراكيب ناجي وأدواته الفنية، كانت اللوحات معلقة على كل الحوائط تقريبا سواء في غرفة النوم أو الصالة. وبالرغم من



تلك الفوضى الظاهرية التي تلقي بظلها على الأركان والجنبات، فقد بدت الشقة محافظة على نظام خاص بها، وفية لإيقاع داخلي تكاد تلمسه. فكرت أنها روح ناجي وقد تجسدت في حيز يعرف كيف يطوع عناصره لشرط ليس من طبيعته، ضد طبيعته، ليبقى هو هو نفسه بلا غرابة، ولا تظاهر. كان الأستوديو الصغير يسرب إلي نظامه ونظافته في فوضاه، لا النظام القاسي الذي يسحق الروح في بيت أبي، بل النظام الحر السيال يطلق الأنفاس المحبوسة في الصدر وهو يغمز لي في لطف مذكرا بمسئوليتي نحوه، مسئوليتي الفادحة التي لن أفكر أبدا في التنكر لها.

في أبعد ركن بالصالة، أمام النافذة المشرعة، انتصب حامل الرسم وقد شدت فوقه لوحة غير منتهية على شاسيه من المقاس المتوسط، تمهلت عيناي دقائق على البورتريه الذي تتألق ألوانه الزيتية التي لم تجف بعد في ضوء الشمس، وأدركت أنه حاول الانتهاء منه قبل النعاس. رفعت عيني عن اللوحة إلى الصور المعلقة على الجدران لألاحظ، بدهشة، أنها محاولات متعددة لتصوير نفس الوجه من زوايا مختلفة، وبأساليب متنوعة، وقفت أدقق في وجهها وهو يمر من

أمامي كسحابة ذاهلة تسوقها ريح خفية إلى قدر غير معلوم، عيناها السوداوان البنيتان ممتلئتان بعواصف مكهربة ترتعش على صفحة الوجه الثلجية. أحسست في داخلي بحيوية مفاجئة إلا أعرف لها مصدرا واضحا، وراح جسد خيالي يتداعى إلى الأمام برفق. هل لاحظ ناجي ارتجاف قلبي وهو يعيدني إليه بصوته الهادئ:

- أتعبني جدا.

أفترت شفتاه عن ابتسامة غامضة، فما راحت عيناه تعاينان، وجودا عميقًا يكمن، منتظرا لحظة انبعاثه الأكيد عند نقطة ما تحت الألوان ومسطح التوال الملوث وفيض النور الذي يغمر الكون في هذا الصباح الذي لا نهاية لهداياه المحجوبة.

- هناك شيء محير في هذا الوجه، شيء فاتن ومعذب على ما أظن.

أفلتت تنهيدة من صدره، بلا صوت، وما كان ليتأوه أو يتعزى على مشهد من العيون الغريبة، ولسنين عديدة، ظل يتعلم، بنوع من اليأس الآلي وجلال الكفر بالآخرين، درس

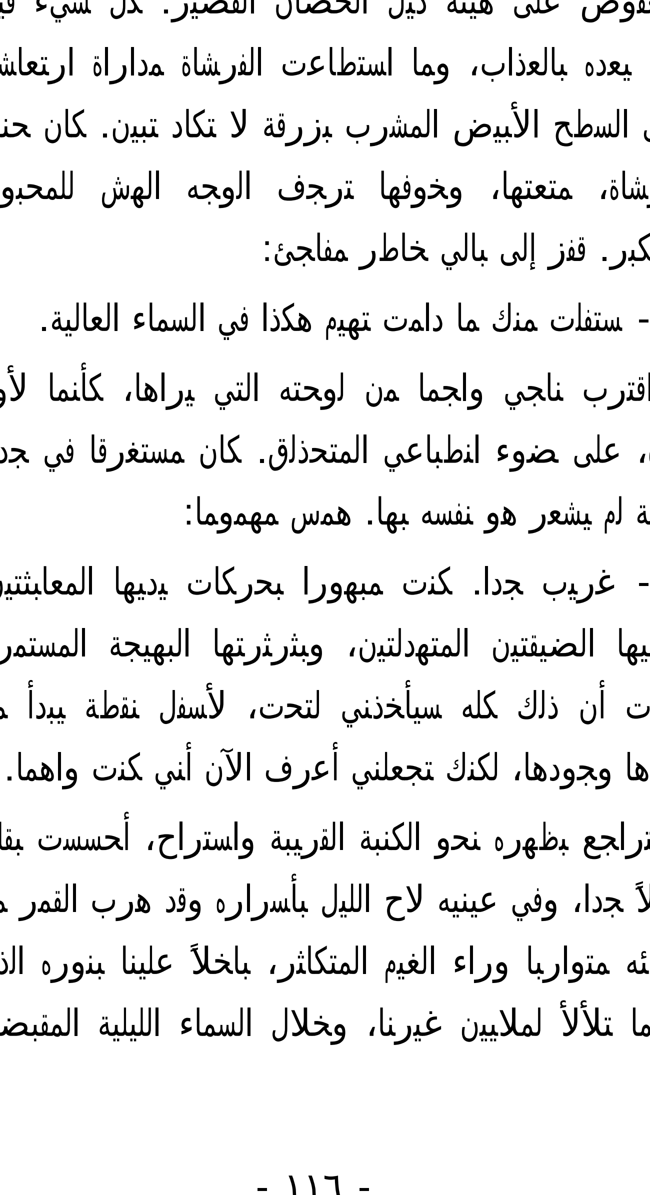
كبت الروح وابتلاع الألم، دون أن يطمع في لحظة مشاركة وقبول.

- هذا سادس بورتريه أرسمه لرحاب هذه السنة، في كل مرة أقول لنفسي بإصرار أني سأفض سر هذا الوجه، وعندما تجلس أمامي وابدأ بمزج الألوان وتجهيز الباليته أحسها قريبة واضحة لا إعجاز فيها بخديها الشاحبين ويديها الصغيرتين البراقتين كفراشتين، ونظرتها الحزينة الشائعة، أفكر أنه لا شيء ملغز في ذلك الوجه الغلامي النحيل، وأعرف في قلبي أني، برغم ذلك، لن أقدر على اختراق السطح، لن أرى ما تحت الجلد، ولن تلمس أصابعي البركان الذي أوقن بوجوده في رحم هذه العادية كلها.

توقف عن الكلام دقيقة لاح فيها ندمه على استسلامه لرغبة البوح، قبل أن يغالب تردده ويعترف بأسى صريح:

- نعم. إنها تفتنني وتعذبني.

وقفت عن الروح الغامض الذي يؤرق ليل صاحبي، كانت ترفع عنقها في ترفع، وفي اكتفائها بنفسها، في توحدها، يتعالى وجهها الثلجي، بعينيها المتوامضتين تحت حاجبيها الكثيفين المزججين بعناية، وبشعرها الأسود الصقيل



المعقوص على هيئة ذيل الحصان القصير. كل شيء فيها كان يعده بالعذاب، وما استطاعت الفرشاة مداراة ارتعاشها على السطح الأبيض المشرب بزرقة لا تكاد تبين. كان حنان الفرشاة، متعتها، وخوفها ترجف الوجه الهش للمحبوب المتكبر. قفز إلى بالي خاطر مفاجئ:

- ستفلت منك ما دامت تهيم هكذا في السماء العالية.

اقترب ناجي واجما من لوحته التي يراها، كأنما لأول مرة، على ضوء انطباعي المتحذلق. كان مستغرقا في جدية كئيبة لم يشعر هو نفسه بها. همس مهموما:

- غريب جدا. كنت مبهورا بحركات يديها المعابثتين، بكتفيها الضيقتين المتهدلتين، وبثرثرتها البهيجة المستمرة، ظننت أن ذلك كله سيأخذني لتحت، لأسفل نقطة يبدأ من عندها وجودها، لكنك تجعلني أعرف الآن أني كنت واهما.

تراجع بظهره نحو الكنبة القريبة واستراح، أحسست بقلبه مثقلاً جدا، وفي عينيه لاح الليل بأسراره وقد هرب القمر من سمائه متواريا وراء الغيم المتكاثر، باخلاً علينا بنوره الذي طالما تلألأ لملايين غيرنا، وخلال السماء الليلية المقبضة،

الساحرة في انقباض قلبها، كانت الآمال تركض مذعورة بخفة غزال هارب. قلت بإشفاق:

- هذا أنت يا ناجي.

ظلت كلماتي الحكيمة معلقة في فضاء عتمته، صر أسنانه في صمت، وما استطعت احتمال متعة التآلف المتواطئ مع الأشياء التي يكتمها صديقي، وأكتمها. بمزاج الصباح كله يؤذن بالتغيير، ويوشك أن يتعكر منجرفا مع موجة الخوف، الخوف من إدامة النظر، من الانسحاق أمام شهوة إدامة النظر، كان البحر يتدافع من بعيد، تحت سماء ممتدة صامته وهو يتشاغل بصوت يجهد أن يأتيني مرحا خليا:

- تعال نجهز الإفطار، لا بد أنك على لحم بطنك.

جلست ألتهم الفول والبيض المقلي بتلذذ، وبين لقمة وأخرى، أرشف باستمتاع رشفات سريعة من كوب الشاي الساخن. شردت نظرتي إلى البحر الذي بدا لي قريبا كما لم يكن أبدا، وأنا أفكر في كل ذلك الصخب الكلامي الطنان. ابتسمت وأنا أحس بطحن معدتي للطعام. هنا، على الأقل، يوجد شيء ما حقيقي، شيء ينتمي إلى أرضنا هذه التي ننكر بنوتنا لها طمعا وغرورا. فجأة عاود الوجه السحابي مناوشته

لمخيلتي ملقيا بظله السميك الغائم على أرضي الدوارة المتراقصة. رحت أنازع نفسي لجاجتي وإلحافي في السؤال:

- تحبها؟

ارتعد ناجي لصوتي المشروخ. كان يجلس أمامي ساكنا مهدودا لكنه حر. هل آمن بحريته حقا وهو يدرك في سويداء قلبه أن روحه مكشوفة، لا تحت سهام نظارتي الفضولية وسؤالي الفج وحسب، بل أمامها أيضا. وأمام ا ؟ ظل ينَقل بصره بيني وبين البورتريه الناقص، متأملا.

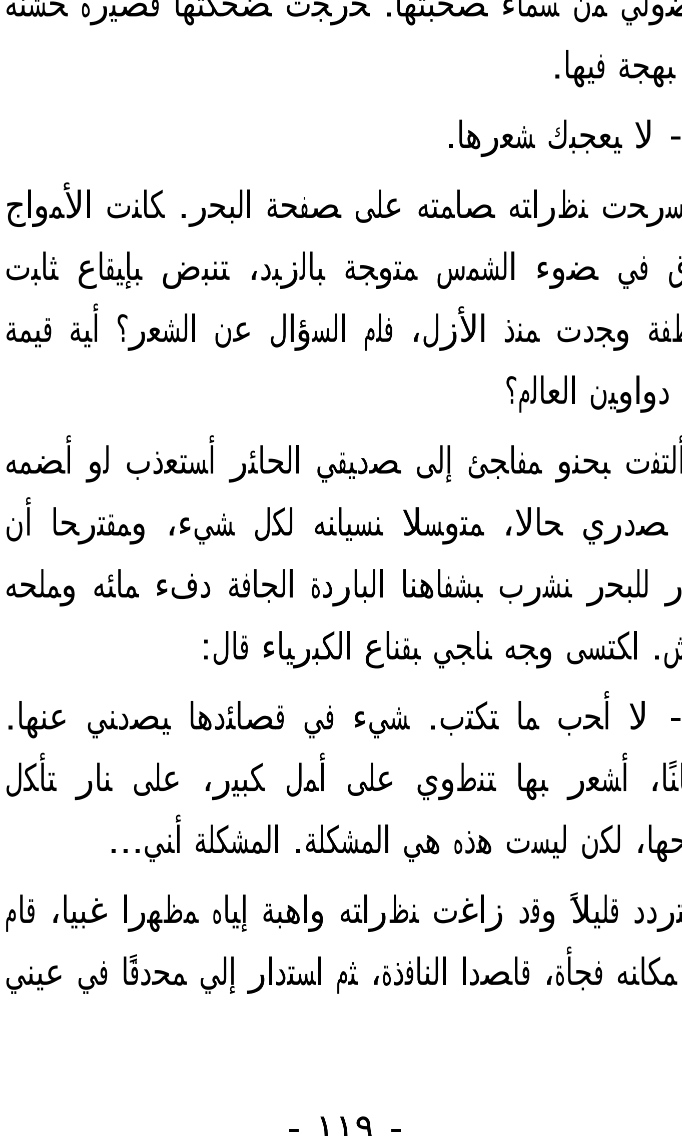
- وهل أعرف أنا إذا كنت أحبها؟

- زميلتك في الكلية؟

- لا.. هي طالبة بكلية الآداب. تعرفت عليها عند مريم زميلتي الخليجية.

رحت أتابع جمله السريعة اللاهثة غير ذاهل عن الشوق في أعماق عينيه. ابتسم متذكرا:

- تعرف؟ هي تكتب الشعر أيضا، كان أشرف على حق لما لاحظ أن الشعراء أزيد من اللازم.



حاول أن يغتصب ضحكة يبدد بها سحائب شوقي وفضولي من سماء صحبتها. خرجت ضحكتها قصيرة خشنة ولا بهجة فيها.

- لا يعجبك شعرها.

سرحت نظراته صامته على صفحة البحر. كانت الأمواج تتألق في ضوء الشمس متوجة بالزبد، تنبض بإيقاع ثابت لعاطفة وجدت منذ الأزل، فلم السؤال عن الشعر؟ أية قيمة لكل دواوين العالم؟

ألتفت بحنو مفاجئ إلى صديقي الحائر أستعذب لو أضمه إلى صدري حالا، متوسلا نسيانه لكل شيء، ومقترحا أن نطير للبحر نشرب بشفاهنا الباردة الجافة دفء مائه وملحه الهش. اكتسى وجه ناجي بقناع الكبرياء قال:

- لا أحب ما تكتب. شيء في قصائدها يصدني عنها. أحيانًا، أشعر بها تنطوي على أمل كبير، على نار تأكل روحها، لكن ليست هذه هي المشكلة. المشكلة أني...

تردد قليلاً وقد زاغت نظراته واهبة إياه مظهرا غبيا، قام من مكانه فجأة، قاصدا النافذة، ثم استدار إلي محدقًا في عيني

باحثًا عن مهرب من حيرته المطبقة عليه كالرعب المجسم، ليواصل، أخيرا، بصوت متألم:

- لا أصدق حرفًا مما تقول أو تكتب، عندما تفتح فمها للتكلم أعرف أني أكرهها، وألوم نفسي على شغفي بها، أما وهي صامتة فأجد نفسي عبدا لها، وأصلي كي تلتفت نحوي مرة بعينيها الحزينتين لأريحها وأستريح، هل تفهم شيئًا مما أقول؟

باغتني سؤاله فأومأت برأسي إيجابا بلا تفكير. ظننت أني أفهمه حتى ولو لم ألتق بها أبدا، فهمت حنانه ومتعته وخوفه، همه ورعبه وأمله، بانتظار أن يشق الجناحان جنبي الروح لتضيع هناك، ما هم أن يحدث ذلك مع رحاب أو غيرها؟ ما هم لو لم تكن هي هي؟ لو أنها لم تكن أصلاً؟ كان ناجي منذورا لعذاب ملفق الأسباب. سألتُ بنزق:

- تأتي هنا لترسمها؟

أدركت أني أردت الاستفهام عن شيء آخر في حقيقة الأمر، فأحسست بالخجل من تجاوزي حدود اللياقة والذوق، رد بلهجة رصينة:

- عندما رأيتها أول مرة جافاني النوم طول الليل، بت أحلم بجسدها الصغير وهو يتثنى ويتلوى أمام عيني في كل حركة تقوم بها، كانت جميلة، تفيض بالمرح والعذوبة، وشعرت بجسدي يتوتر، ويتصلب بينما أتابع رقصتها الخليجية المثيرة في ذلك اليوم بصالة فيللا مريم.

صمت لحظة يسترجع فيها وحشية اللحظات الحلوة التي استنفدته، مضطربا كورقة قديمة مهملة طوحت بها رياح الذكرى ومخاوف الآتي. كان ذلك كله مبهما، مستغلقًا عليه بلا رأفة، ولا بد أنه كان يفكر أيحقد عليها أم يلثم التراب تحت قدميها؟

- عرفتُ أني لا طاقة لي في مواجهة هذه القوة. لا سلاح لدي أقاوم به رغبتي الطائشة التي اندلعت بقلبي نحوها، أما هي فما شعرت بوجودي حتى، كنت أقف في آخر طابور المعجبين بها والمتوددين إليها، ولأني أقلهم حيلة فقد تدهورت حياتي وأنا أراها تمنح الآخرين ببساطة مال أجرؤ على الحلم به لنفسي، وصممتُ على قتلها.

جلست أحملق فيه. كان داخلي يرتعد وأنا أتابع اعترافاته اللاهثة. أبصرتني واقفا على قمة الجرف البحري القريب،

مندفعا ببطء وتمهل لذيذين نحو الهاوية. كانت الحافة تعبس في وجهي وتهلّل، تقترب وتنأى، ومن تحتي يهدر الاندفاع الشبقي للموج، ثم لا شيء بعد. سألتُ بصوت مرتجف:

- تقتلها؟

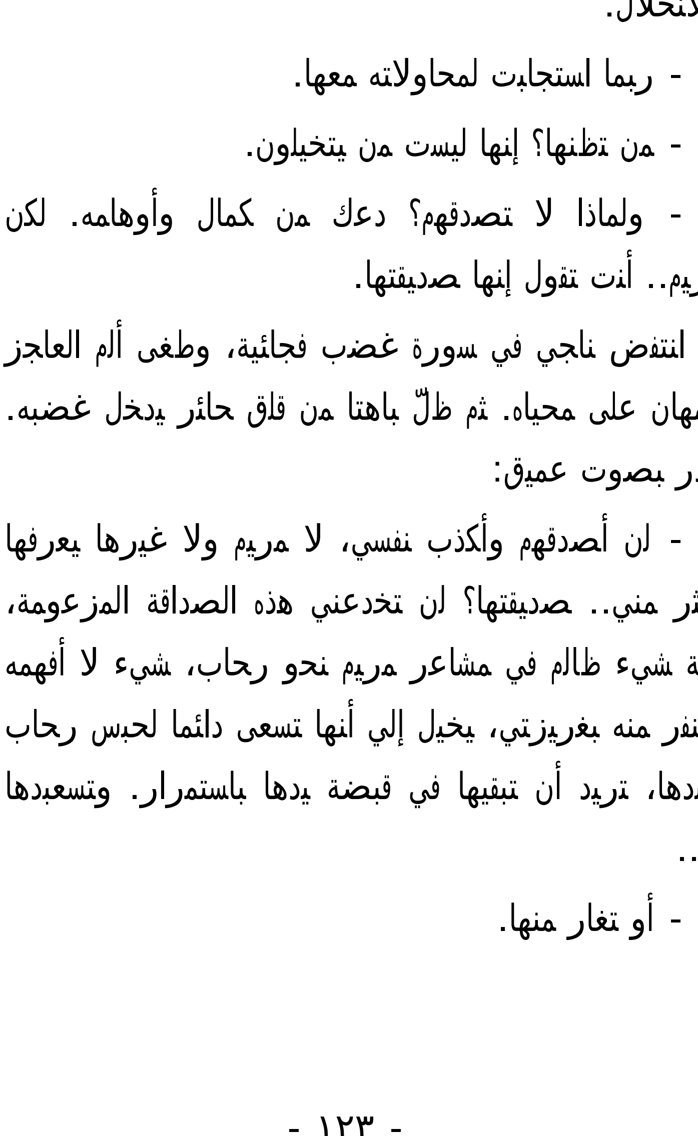
- بفرشاتي وألواني. وها أنني أحاول اغتيال صورتها بقلبي مرة بعد أخرى.. صابرا على سخريتهم جميعا مني

- جميعا؟ من هم؟

- مريم وكمال ورحاب نفسها. لكن ذلك لا أهمية له، ما يحزنني حقًا هو عجزهم عن التعاطف مع المأساة التي أراها محدقة بها. تعتقد مريم أني أرسم لصديقتها صورة قاتمة لا وجود لها، إلا في خيالي المضطرب العنيف، صورة لا يحبها إلا مسيح ضال كما تقول. أما كمال فيضحك مني، ويحرضني على النوم معها، معترفا أنه لن يتردد في فعل ذلك بنفسه إذا واتته فرصة.

- كمال؟

- عشنا معا في هذه الشقة شهورا قبل أن يستأجر لنفسه غرفة مفروشة، ويذهب. ويبقى هناك ساعات طويلة. الحقيقة أني أعجب من رأيه هذا في رحاب، كان لطيفًا معها في



البداية، لكنه عاد ليحذرني من التورط في حبها ويتهمها بالانحلال.

- ربما استجابت لمحاولاته معها.

- من تظنها؟ إنها ليست من يتخيلون.

- ولماذا لا تصدقهم؟ دعك من كمال وأوهامه. لكن مريم.. أنت تقول إنها صديقتها.

انتفض ناجي في سورة غضب فجائية، وطغى ألم العاجز المهان على محياه. ثم ظلّ باهتا من قلق حائر يدخل غضبه. هدر بصوت عميق:

- لن أصدقهم وأكذب نفسي، لا مريم ولا غيرها يعرفها أكثر مني.. صديقتها؟ لن تخدعني هذه الصداقة المزعومة، ثمة شيء ظالم في مشاعر مريم نحو رحاب، شيء لا أفهمه وأنفر منه بغريزتي، يخيل إلي أنها تسعى دائما لحبس رحاب عندها، تريد أن تبقيها في قبضة يدها باستمرار. وتستعبدها أو..

- أو تغار منها.

- نعم بالتأكيد تغار منها، البنات يتنفسن الغيرة من الهواء الطائر، حتى لو كانت رحاب أفقر من أفقر خادمات مريم. لكن المسألة أعقد من ذلك.

خيم الصمت لفترة من الزمن لا يقطعه سوى هدير السيارات المارقة بجنون على طول الكورنيش تحتنا، وجدت نفسي أهتف ذاهلا:

- أو تعشقها؟

انتفض ناجي على وقع صرختي الغريبة. كان جالسا منحنيا إلى الأمام يبحلق في وقد أفقدته اللحظة شجاعته وثباته.

- ماذا؟

نطت إلى ذهني صورة محمد النائم في جلباب أمه القديم، محمد الذي ودعته في القاهرة قاصدا إضاعته عند ناجي، على شاطئ البحر الذي تطمس مويجاته خرائب الروح وأشباح القلب، جاهلا أن العشق والموت يمضيان بعذاباتنا ومسراتنا جنبا إلى جنب، متوغلين أكثر فأكثر في صمت وجودنا المكين.

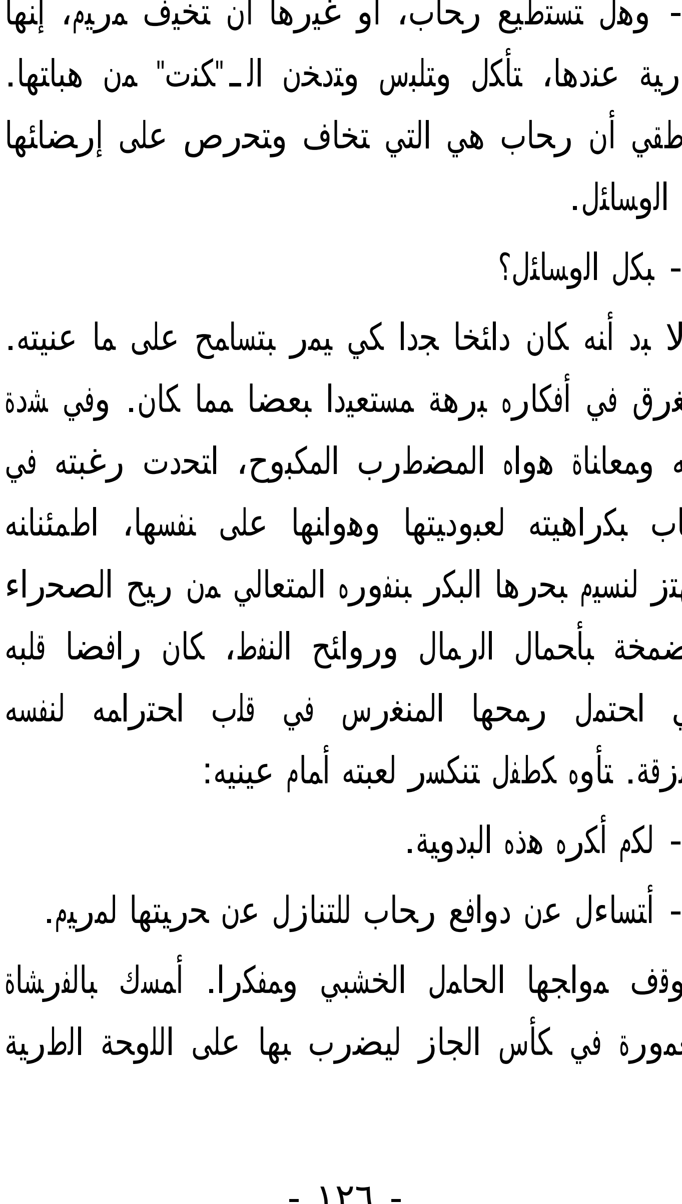
- اسمع يا ناجي أنا طبعا لا أقدر على الجزم بشيء، لكني صرت أعرف كيف يمكن لاثنين من نفس الجنس أن يتحابا. لا تحاول سؤالي عن شيء، سيأتي اليوم الذي أوضح لك فيه حقيقة ما أعني، لكن إياك وأن تظن بي الظنون. ليست الصلة الجسدية هي ما أقصد بالضبط، فما انصهار الأجسام إلاّ علامة واحدة من علامات الحب، علامة يمكن الاستغناء عنها، بترها، أو تحويلها، هل تفهمني؟

- خيالك يشط بعيدا جدا.

- ليكن، فلنفكر في الأمر كصورة من صور المخيلة، فربما يحررنا ذلك من مخاوفنا ومحاذيرنا الأخلاقية قليلا، ألم تحدثني قبل دقيقة واحدة عن غموض مشاعر مريم، ورغبتها في حبس رحاب عندها، معترفًا بحيرتك، ونفورك من ذلك؟

- انس الذي فهمته أنا وجاوبني.. ما الذي يعنيه أن ترغب في حبس إنسان عندك كل الوقت؟ أحد أمرين، إما أنك تخاف منه أن تخاف عليه، فهل تخاف مريم من رحاب؟

حك رأسه بيديه متحيرا، كان حوارنا ينزلق رويدا عائدا إلى تلك المذابح الكلامية الطنانة التي عششت بأرواحنا وظلت شاهدا على أصالة انتسابنا لطنطا. أجاب:



- وهل تستطيع رحاب، أو غيرها أن تخيف مريم، إنها كجارية عندها، تأكل وتلبس وتدخن الـ"كنت" من هباتها. المنطقي أن رحاب هي التي تخاف وتحرص على إرضائها بكل الوسائل.

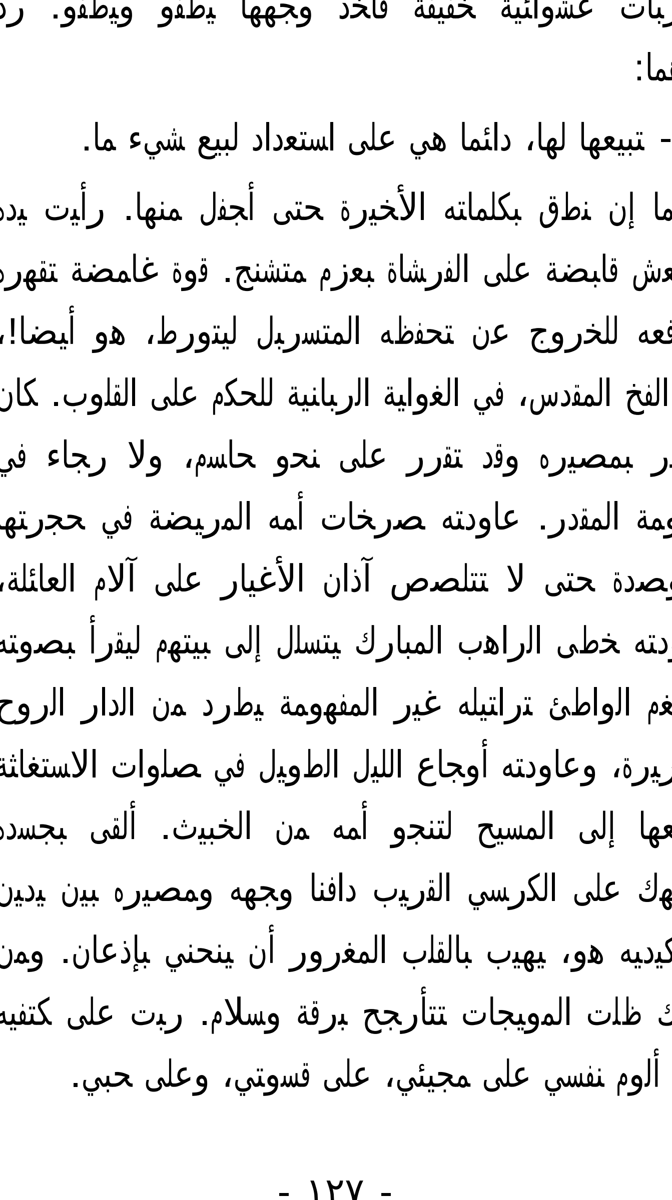
- بكل الوسائل؟

لا بد أنه كان دائخا جدا كي يمر بتسامح على ما عنيته. استغرق في أفكاره برهة مستعيدا بعضا مما كان. وفي شدة يأسه ومعاناة هواه المضطرب المكبوح، اتحدت رغبته في رحاب بكراهيته لعبوديتها وهوانها على نفسها، اطمئنانه المهتز لنسيم بحرها البكر بنفوره المتعالي من ريح الصحراء المضمخة بأحمال الرمال وروائح النفط، كان رافضا قلبه الذي احتمل رمحها المنغرس في قلب احترامه لنفسه الممزقة. تأوه كطفل تنكسر لعبته أمام عينيه:

- لكم أكره هذه البدوية.

- أتساءل عن دوافع رحاب للتنازل عن حريتها لمريم.

وقف مواجها الحامل الخشبي ومفكرا. أمسك بالفرشاة المغمورة في كأس الجاز ليضرب بها على اللوحة الطرية



ضربات عشوائية خفيفة فأخذ وجهها يطفو ويطفو. رد ساهما:

- تبيعها لها، دائما هي على استعداد لبيع شيء ما.

ما إن نطق بكلماته الأخيرة حتى أجفل منها. رأيت يده ترتعش قابضة على الفرشاة بعزم متشنج. قوة غامضة تقهره وتدفعه للخروج عن تحفظه المتسربل ليتورط، هو أيضا!، في الفخ المقدس، في الغواية الربانية للحكم على القلوب. كان يشعر بمصيره وقد تقرر على نحو حاسم، ولا رجاء في مقاومة المقدر. عاودته صرخات أمه المريضة في حجرتها الموصدة حتى لا تتلصص آذان الأغيار على آلام العائلة، عاودته خطى الراهب المبارك يتسلل إلى بيتهم ليقرأ بصوته المنغم الواطئ تراتيله غير المفهومة يطرد من الدار الروح الشريرة، وعاودته أوجاع الليل الطويل في صلوات الاستغاثة يرفعها إلى المسيح لتنجو أمه من الخبيث. ألقى بجسده المنهك على الكرسي القريب دافنا وجهه ومصيره بين يدين لا كيديه هو، يهيب بالقلب المغرور أن ينحني بإذعان. ومن هناك ظلت المويجات تتأرجح برقة وسلام. ربت على كتفيه وأنا ألوم نفسي على مجيئي، على قسوتي، وعلى حبي.

همستُ بحكمة رخيصة:

- لسنا ملائكة يا ناجي، ولا شياطين.

ردد بطريقة آلية وعيناه مغمضتان نصف إغماض:

- لا ملائكة ولا شياطين.

كل واحد يعرض بضاعته في السوق، من يلوم من؟

- إلا الروح. الموت أكرم.

زفر بهدوء مستريح. كانت اللحظة الأصعب قد غدت ماضيا،وها هو يجاهد كي يستل مخالب الألم المبرح من نفسه. كان يفكر واجما راضيا ومترفعا. تراجعت ببصري نحو النافذة المضيئة هربا من نظراته الملتاعة، ثمة شيء في وجهه غريبا ونائيا، ولأول مرة أدرك اختلافنا ولا أجفل.

أحرار نحن اليوم، هو في تعلقه بقوة الروح الخفية التي تسند وجوده وتحرق قلبه بألق لهيبها المغرور، وأنا بتشبثي برؤيا الفراغ المرتوي بنسغ الحياة دبيب شهوتها في عروقي. كنا النور والظل، بلا فصل. وما قلت له إن الروح كلمة أخرى من بين الكلمات. كلمة كبيرة، تعلمناها لنقول لا شيء، لماذا لا يكلمني عن الموج أو الشمس، عن حصى الشاطئ وجسد رحاب أو حتى عن الرياء؟ عما أستطيع لمسه،

الالتصاق به، أو الفرار من ألمه وهو يترك بصماته وعلاماته على جسمي. أريد أن أشم تراب الأرض، أن أدفن رأسي في صدر امرأة وأتشرب عطر أنوثتها، أن أحس وخز حشرات الحقول على وجهي، وأن أسلم جلدي للبرد وللحر بلا سؤال.

أقام رأسه المحني ببطء، وبأصابعه المتصلبة الدقيقة، بالطريقة ذاتها التي يمسك بها فرشاته، هائما محلقًا راح يرسم شارة الصليب فوق صدره، مرددا صلواته كطفل يصرخ في صمت الليل مرتعبا من السماء السوداء فوقه، والسماء السوداء حوله، والسماء السوداء فيه. بقيت في وحدتي، ساكنا ورافضا التنازل، وددت لو أنني قادر على الركوع إلى جانبه أحملق في شمس منتصف النهار، وأزجي إلى إلهي البعيد صلواتي الخاصة، وما جرؤت، فرحت أسخر في قلبي من كل صلاة ناشرا على الأرض سلام روحي الرمادية. فكرت في سخافة قلب الإنسان الذي يضم ناجي ومحمد معا، رأيتهما ملتصقين فيه معا برضا. مسخ جميل مرعب برأسين لا ضرورة هناك للمفاضلة بينهما.

كان يرتجف في طريقه الصعب، لكن خطوه على

الصراط الحاد إليهما يمضي وئيدا في توزعه حتى النهاية.
سألني بنبرة متجردة:

- هل تحب لقاء كمال الليلة؟

- ليكن.

جاء ردي فاترا ومراكما لخيبة أخرى فوق خيبات رجائه، وما قصد إلا أن يعيدنا إلى ما تبقى من زبد موجة الرمال الوسنانة. كان ما كان.
كان ما لن يكون.

رفع نفسه من مخبأه وصوته يترجع في أذني:

- يذهب عند مريم في المساء، أمامنا وقت كافٍ لنتغدى ونمشيها على الكورنيش إلى الأزاريطة.

ثم باعتذار يسأل متذكرا:

- لعلك تحتاج إلى بعض الراحة. ادخل لتنم ساعة.

دخلت إلى فراشه ممتنًا له في نفسي، أتمدد ساكنًا من غير أن أبدل ملابسي، حبست أنفاسي في الوسادة الخشنة مصارعا أشباح أفكاري، أحسست بوعيي يغوص أعمق فأعمق.

في لجة الظلام التي تكتنف الحجرة، ومن وراء الحيطان، وبعد أصوات السيارات المندفعة بحمى مجنونة على طريق

الكورنيش، واصل البحر مده وجزره، وثابر الأصيل الوشيك على التوهج الناعس، سحبت أنفاسا لاهثة متسارعة غير مصدق لمعجزة بقاء الحياة، وخاف الفراغ المعتم الذي انفتحت طاقته بروحي، أخذت أصابعي، أنفاسي، جلدي، وأسناني تتشبث جميعا بطين الأرض، ضد الأب والأصدقاء والأساتذة.

رحت أضغط جسمي كله على الحشية اللينة مكوما الغطاء الصلب بين فخذي. كان وجودي يرتعد، وينتصب، يفور، يتلاشى ثم يتجمع في دوامات صغيرة بلون الحياة ذاتها. أبصرتُ وجهها المنير الشهوي شفتيها المزمومتين بإغواء رخيص، وحاجبيها المعقودين على بياض التوال المشرب بزرقة باهتة، وكل شيء فيها عرفته وما رأيته كان يشدني شدا إلى مدار جاذبيتها المهلك. تفجر الدم الحار الفائر في عروقي بالشهوة الحرام، دقيقة واحدة، قطرة واحدة، وتاريخ من الانتظار البريء، والحرمان، ألوث به فخذي ومخدعه، ثم يهمد كل شيء، يغيب، يذوب في السكون الشامل المدوخ. كان نومي طويلا طويلا، عاريا من الأحلام.

(١٣)

المطر يساقط خفيفًا منعشًا في أول المساء، وريح البحر الدافئة تهب على طول الطريق، تدفع جسدينا دفعا حانيا ونحن نتسلق الكورنيش شبه الخالي . من تحتنا لاحت الشواطئ فارغة وقد هجرها عمارها واعتصموا بدفء البيوت، منسية إلا من بضع كبائن مفتوحة على ظلمتها، وذكريات الصيف. وفي صبر لاهٍ تناثر بعض الصيادين وألقوا بصنانيرهم الطويلة إلى أحشاء البحر. أتنفس مع الرمال والطحالب المكومة برائحتها الزفرة الضاربة حتى أنفي، وأفكر في هواء أقبيتنا الآمنة واطئة السقوف. كانت حقول الموج السوداء البيضاء تتوسع في روحي منتصبة بكبريائها وثقلها العميق باتجاه الأفق.

خلّفنا وراءنا البحر المفتوح عند الشاطبي، ثابتين في صعودنا البطيء نحو السلسلة، ومن بعيد، من آخر الدنيا، تراءى الهيكل الشبحي المعتم لقلعة قايتباي تطل على بحر ليس لها، حارسة لفئرانه وثعابينه الكامنة في الشقوق التي تلونها النجوم الشاحبة. أحكم ناجي قفل أزرار القميص كلها حتى الياقة المضمومة تحت الطوق القاسي للبلوفر مدمدما بالحياة السارية في العروق كتيار كهربائي، الحياة الحلوة الدانية. وحده القلب يبيت مختوما على حزنه وطعمه ونهمه، شغفه وحبه وموته. عند استدارة الخليج الصغيرة تمهلت خطانا أمام بائع الذرة المشوية، اشترى ناجي كوزين، سرنا نلتهمهما بتلذذ صامت وما اهتم أحدنا بغير تنشق رائحة الهواء الزكية، وتذوق حلاوة الحبوب الطرية المكتنزة بزيتها وأليافها. بلا تمهيد اندفع ناجي يعبر الطريق إلى الجانب الآخر مشيرا لي باتباعه ونحن نسبق الموت المهدد من الاتجاهين.

كان الرذاذ الرقيق قد توقف ونحن نواجه بوابة فيللا أنيقة ذات طابق واحد، تحتفظ في تصميمها الخارجي بطابع البيوت الصيفية الكلاسيكية التي تتحلق غرفها العديدة حول

صالة رئيسية كبيرة تمنح المكان كله ثباتًا واتزانًا. دق ناجي جرس البوابة الخشبية المطلية بالأزرق المتقشر، فأسرع الحارس الصعيدي بفتحها أمامنا بعد تبادل التحية مع صديقي المعروف لديه، والمنشغل عنه بأفكاره. صعدنا درجتي سلم إلى الشرفة الخارجية المصممة حسب الذوق الأوروبي بارتفاعها البسيط عن مستوى الحديقة، وباستدارتها التي تطّوق المكان كله، وباستسلام النوافذ مسدلة الستائر إلى براحها المكشوف حتى البحر. تخيلت مشهد الغروب في أفق البحر من فوق هذه الشرفة العتيقة الشاهدة على آلاف وآلاف من حركات الغروب والشروق وألوانها، ما اهتزت يوما لخاطر أن كل حي يزول لتبقى وحدها، الحياة، الراسخة تحت وقر لحظة اللعب الكسول في التجاويف العميقة المقوسة للشموس وظلالها، ولأقمار الظهيرة الخاسفة وغواياتها.

انشق الباب الداخلي عن وجه فتاة آسيوية سمراء بعينيها الضيقتين المنحرفتين، وبوجنتيها الشاحبتين القرمزيتين تتوامضان وتتوهجان من خلال النور السيال من الدخل، وبابتسامتها المضببة الناعمة كوردة منسية تُمسك بها أصابع

مرتعشة، أفسحت لنا سبيل الدخول وهي تهمس بعربية خليجية تقلب الضاد ظاء، وبلكنة آسيوية:

- تفضلا.

كانت القاعة الفسيحة تعوم في شلالات النور المنصب من الثُريات الضخمة المعلقة هنا وهناك.

وقفت مترددا غير عازم أمري على الدخول، ومحاذرا المشي بالحذاء المبتل فوق السجاد الشينواه الثمين الذي يغطي كل شبر ببذخ سامحا لخشب الباركيه اللامع أن يظل عمره كله مستترا بانتظار فرصة عارضة ليتنفس ويعلن فيها عن وجوده وشوقه لملامسة أقدام البشر.

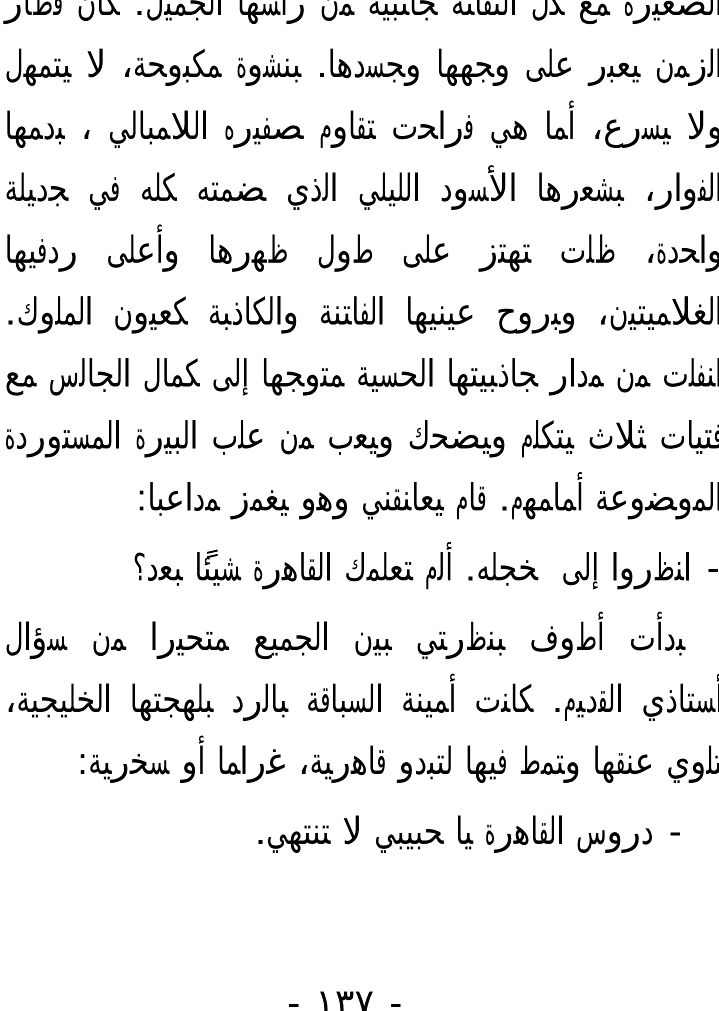
خلعت حذائي عند المدخل من غير أن انتبه لما أفعل، فأحسست بقدمي تهبطان في لين دافئ مع كل خطوة أخطوها. مضيت أمس الأرض مسا، أطفو على زبد الموج المخفوق، أو أحلق على البساط السحري ينزل بي ويصعد بلذة حسية وبلهفة توجع القلب. حدقت في صورتي المنعكسة فوق المرآة البلجيكية المنتصبة بعرض الجدار المواجه للباب، وهي تدور مع الأعمدة لتهب المشهد ملمح السعة والانفساح، وفي وسط القاعة، عند الجدار الأخير، وفوق المدفأة المنسية،

يقبع تمثال كبير لبوذا من خشب الورد مدهونًا بزيت له رائحة عطرة، غاطسا في تأملاته عن الألم وسر الألم وكف الألم، معزولاً عن الوجود بكل ما فيه ومن فيه، ومكتفيا بوحدته الباردة، وحدته المتقدة، التي شملت الكون برحمتها. جاء صوتها واضحا دسما من الركن البعيد المفروش بالحشايا والتكايا البدوية.

- أهلا وسهلاً.. تفضلا.

وقفت في عباءتها السوداء المطرزة بالخيوط المذهبة تستقبلنا وتسلم علينا، طويلة ممشوقة القوام قوية، بدا صدرها باذخًا، متعارضا مع حوضها الضيق وفخذيها اللتين لاحتا لعيني، رغم العباءة، مشدودتين ناحلتين وذكوريتين على نحو ما، أما قدماها الحافيتان الغاطستان في الوبر الكثيف فدقيقتان وأنثويتان. انشلح كم العباءة الفضفاض وهي تمد يدها كاشفًا عن ذراع متينة رقيقة مشربة بسمرة خفيفة من مفصل الكوع حتى الرسغ، وتضاحكت عيناها السوداوان الواسعتان المحددتان بالكحل الثقيل وهي تقدم نفسها لي بما قدرتُ أنه بساطة محسوبة:

- مريم آل حميد.



قدمت نفسي بصوت خفيض منشغلا بمحاولة تخمين عمرها، ومتابعا الهالات السوداء الخفيفة التي لم تفلح البودرة في مداراتها أسفل العينين وتحت الذقن التي تتموج تغضناتها الصغيرة مع كل التفاتة جانبية من رأسها الجميل. كان قطار الزمن يعبر على وجهها وجسدها. بنشوة مكبوحة، لا يتمهل ولا يسرع، أما هي فراحت تقاوم صفيره اللامبالي ، بدمها الفوار، بشعرها الأسود الليلي الذي ضمته كله في جديلة واحدة، ظلت تهتز على طول ظهرها وأعلى ردفيها الغلاميتين، وبروح عينيها الفاتنة والكاذبة كعيون الملوك. انفلت من مدار جاذبيتها الحسية متوجها إلى كمال الجالس مع فتيات ثلاث يتكلم ويضحك ويعب من علب البيرة المستوردة الموضوعة أمامهم. قام يعانقني وهو يغمز مداعبا:

- انظروا إلى خجله. ألم تعلمك القاهرة شيئًا بعد؟

بدأت أطوف بنظرتي بين الجميع متحيرا من سؤال أستاذي القديم. كانت أمينة السباقة بالرد بلهجتها الخليجية، تلوي عنقها وتمط فيها لتبدو قاهرية، غراما أو سخرية:

- دروس القاهرة يا حبيبي لا تنتهي.

أشاحت بوجهها بعيدا كأنها تنأى بنفسها عن اختبار أثر كلماتها المتفلسفة المتبرمة علينا. كانت قصيرة، تميل إلى الامتلاء وإن لم تصبح بدينة بعد، قصيرة الساقين، يوشك البنطلون الجينز أن يحفر الأخاديد العميقة في طيات وركيها اللحيمتين، وينفر صدرها من تحت البلوزة الفيروزية الحرير ككرتين منفوختين لأقصى حدود احتمالها، أما بشرتها، وخلافًا لمريم، فكاكاوية محروقة السمرة، وأدنى منها إلى لون تراجي الجالسة في ساريها السوداني المنقوش الزاهي وهو يهفهف ويشف عن ساقيها العصويتين وساعديها الصلبين الناحلين. قالت مريم معرفة:

- أمينة صديقتي منذ الطفولة، تعد الماجستير في العلوم السياسية بجامعة القاهرة أيضا، وتراجي صديقتها وضيفتنا.

رفع كمال علبة البيرة عاليا:

- في صحة القاهرة وضيوفنا من القاهرة.

صوصوت الفتيات يشاركن كمال مرحه المشبع بروح التهكم، بينما لاذ ناجي بالصمت، ونمت نظرته المطفأة عن اكتئابه وحزنه. نظرت إليه خائفًا ومفلسا فما بادلني النظر لمرة واحدة، كان قد اختار لجلوسه مكانًا قصيا بمواجهة

رحاب المستريحة على حشية قطن عريضة وقد صالبت قدميها وساقيها في دعة. كنت مستطيعا تخيلها الآن، لا بعيني صاحبي الوالهتين بالنور الضبابي، ولا بعيني كمال النهمتين إلى القوت الأرضي، ولكن بعيني قلبي الظمآن إلى حب المرأة، زهرة صغيرة بيضاء اللون، طفلة نمت فجأة وباتت تتأرجح خائفة ملتذة على الحد الفاصل بين البراءة وفتنة الأنوثة، أو نغمة كمان بطيئة حزينة تتذبذب بفتور فراشة دائخة توشك على السقوط.

جلستُ أسترق النظرات إلى الخط اللامرئي الواصل بين روحيهما ونظرتيهما فصدمني يقين العذاب الذي لن يعرف صديقي سواه في قصة حب لن تنتهي كما تشاء لها أحلامه، بل ولن تبدأ كما تنبئه الظنون. ومن كوكب ناءٍ في فضاء مجرة منسية جاءني صوت كمال الجديد متلاشيا مغناجا:

- هل قلت لكم؟ هو أيضا شاعر. حتى خجله لم يمنعه من الإسهام في تعميق أزمة الشعر العربي.

أغرب في ضحكته القاسية كالذاهل عن نفسه وعمن حوله، كالرحى تطحن حجرها الخاوي فلا يتخلف عنها غير الصرير. خرجت رحاب عن صمتها لتسأل بفضول:

- نشرتَ شيئًا من شعرك؟

صوتها خفيض رقيق كجناحي عصفور يتمطى في وخم شمس الفجر، أو كما يجدر جدا بشاعرة عاشقة، بعزراء أبدية تسبح بين السحب والغيم، وليتم قدر الهشاشة التي أملت وجودها على كيانها الناحل، دقيق الخطوط، في البلوفر الأبيض الخفيف والبنطلون الجينز الملتحم بالخصر الضامر والفخذين الرهيفتين الشاحبتين، رددتُ بحسم:

- لا.

لاحظت أمينة متعالمة:

- ليس النشر متاحا لأي أحد هذه الأيام بعد توقف المجلات الأدبية الرسمية عن الصدور. في القاهرة، ظاهرة ثقافية جديدة يسمونها مجلات الماستر يقوم بتحريرها وإصدارها جماعات صغيرة من الشعراء الشبان والشيوعيين، أشعارهم غامضة وجريئة.

مالت مريم إلى كمال متسائلة:

- هل تتابع هذه المجلات التي تقصدها أمينة؟

- وقع بعضها في يدي بالصدفة، لكني لم أهتم كثيرا بقراءة القصائد، وعنيت بالدراسات السياسية والتاريخية.

- دراسات ماركسية؟

- ليس بالضبط.. معظمها يبحث في الهوية الحضارية للشخصية المصرية، وبعضها ينتصر صراحة للملامح غير العربية في هذه الشخصية وينادي بضرورة العودة إلى جذورنا الفرعونية.

رفعت حاجبيها استنكارا ، فيما رمى كمال ناجي بنظرة غامضة من جانب عينه لم يهتز لها الثاني، أو يجهد نفسه في الرد عليها.

قالت مريم بصوت ناعم تبطن به أمرها الملكي:

- هل تعيرني بعض هذه المجلات؟

- وما حاجتك إليها؟

- أريد أن أطّلع على ما فيها، أنا معنية مثلك بكل ما يجري هنا.

- ولماذا أنت معنية مثلي بكل ما يجري هنا؟

نزل صمت متوتر لبعض الوقت، ثم ابتسمت مريم بترفع وهي تشيح برأسها إلى الناحية الأخرى، شعرت بها تصر على أسنانها خفية، وترسل نظرتها الخرساء الرمادية منتصبة في وسط الفراغ الممتد بين ناجي ورحاب، كتهديد أخير لن تفصح عنه اليوم.

كانت أمينة هي المبادرة بخدش حجاب التوتر الأبكم، قالت بخفة:

- ما هذا المال؟ تكفينا الدراسة والماجستير، جئت للإسكندرية ولأسترخي وأستمتع، لا لحضور ندوة.

ضحك كمال ضحكة قصيرة وهو يقرص أمينة من ذراعها مداعبا :

- وماذا يمتع ضيفتنا الحلوة ويجعلها تسترخي؟

غامرت تراجي بنبذ موقف المتفرج الساكت، همستْ بسخرية مستترة:

- قصص الحب طبعا .

- نعم، نعم، فليحك كل واحد منا قصة حب عاشها أو قرأها أو حتى سمع بها، هل تعرفون؟ أنا أعشق الأفلام

الرومانسية، وأحتفظ بمجموعة كبيرة منها على شرائط الفيديو، هل شاهدتم فيلم "قصة حب"؟ رائع.

اندفعت أمينة في الحديث، وقد جعلها حماسها تلهث، ولسبب ما تذكرتني، ونفحتني بابتسامة مفاجئة وهي تدعوني عندها بنزق:

- إذا زرتني في القاهرة فيمكنك أن تشاهده عندي، أو استعارته، هل لديك جهاز فيديو؟

أجبتها نفيا بهزة من رأسي. بدت لي صغيرة بالرغم من جرأتها وطيشها، وما كنت لأصدق أن وراء عرضها الغريب ذاك شيئا يمكن للمرء أن يخجل من طلبه أو إجابته على السواء، مع ذلك رحت أفكر فيها كما لو أنها إحدى العجائب، وكما لو أنها تحدرت من جنس ما عاد له وجود، جنس لا جفوة بينه وبين ما يريد، توهج في داخلي ألم نظري نابع من الرثاء والاشتهاء.

نهضت مريم تضع شريطًا في جاهز الاستريو الضخم بسماعتيه الكبيرتين. كانت الموسيقى الجيتار الأندلسي لرودريجو تنساب في رقة ونعومة كحلم من أحلام الصيف المزدهر، خيم الصمت لدقائق رحت أصغي فيها، وأتشرب

الإحساس البهيج بالارتواء، والتسامح، وأخذت دقات قلبي ترتعش بالحنان متحيرة من عظمة سلطان الموسيقى على الروح. ابتسمت مريم مجاملة:

- هلا أسمعتنا قصيدة من قصائدك؟

باغتني طلبها، أحسست بروحي محاصرة كمن فاجأه المطر في صباح صيف قائظ. نفسي تتأرجح بين القبول والرفض، وصدري يضج بإيقاع رتيب ومجهد. أستجمع شجاعتي لأجيبها:

- أحرقتها كلها.

رنت رحاب بفضول:

- ماذا؟

شعرت بتسلية شاذة في صدم خيالاتها الشعرية عن الوجود.

حسبت أني قادر على هزها بقوة، على إيقاظها من غفوتها السحابية المريبة، والنزول بها إلى الأرض لتعترف بدمها ولحمها وطينها ولا تفزع.

وأهم من ذلك كله اشتهيت، في قلبي، لو أبهرها، لو أركب على روحها التي ما كانت لي ولا له ولا حتى لها. وأتسلط، لو أسوط هذه الروح لسوط الرغبة والدم، وأعمدها بعماد كثيف فوار لازج القوام.

أجبتُ مستظرفًا :

- نسفت حمامي القديم.

ضجت أمينة وكمال بالضحك، بينما بدأت شفتا ناجي ترتعشان كعصفور بائس حبسته العاصفة وما أدرك عشه.؟ قال كمال بمرح:

- هكذا؟ الظاهر أن أشرف ولي ومكشوف عنه الحجاب.

- أشرف من؟

- الدكتور أشرف، لا تقولي إنك نسيته، لقد حكى لكِ ناجي عنه كثيرا .

- آه، فهمت، أتعرف يا كمال؟ أنني أحتفظ بكلمتين أهمس بهما في أذنه.

- وهما؟

شملتنا بنظرة من عينيها المفتوحتين على صحراء لا آخر لها، قالت:

- سأنصحه بأن ينظر الخشبة في عينه.. أليس هذا ما يأمرنا به المسيح يا ناجي؟

كلماتها المختالة المستفزة تنبع من قوة داخلية تدرك صاحبتها وجودها وسيادتها مهما تظاهرت بالترفع عليها، قوة تؤكد لها حقها في الشطب على الآخرين، في الهزء من أفكارهم وصبواتهم، وفي التصديق على حكم القلب الملكي بحرق ما تبقى من الجزر المحاصرة التي يحتمي بها المنسحقون بإشارة صغيرة ملول من أصبعها.

نظرتُ إلى ناجي. وجهه يشحب وشفتاه ترتجفان كقارب قديم تلعب به العاصفة وتتقاذفه أنواء شتى، لكن عينيه تلمعان ببريق يكشف ضوضاء الحياة وتدافعها بداخله. كان يبحث ويستجمع ما تبقى بروحه من إرادة الوجود، كمقاتل لا يسلم سلاحه إلى الغزاة المنتصرين متحديا إياهم أن يغامروا بانتزاعه من جثته. صوب نظرته، بين عيني مريم الواسعتين الضجرتين وهو يصر:

- الخشبة ليست في عينه يا مريم، إنه المؤمن الوحيد الذي قابلته في حياتي، تدفعه قوة أكبر منه باتجاه فهم أعمق وأنبل للحياة. ماذا لو أن ما يدركه عنها اليوم مضطرب وغير كاف؟ سيتجاوزه، أعرف أنه سيتجاوزه هل أقول لك لماذا؟ لأنه لا يريد، ولا يستطيع إلا أن يحيا إيمانه أو يموت دونه. إنني أصدقه يا مريم، أصدقه.

أنهى ناجي شهادته، وجسده ينتفض من الانفعال، لم يكن في مظهره ما ينم عن الألم بعد، ثمة نظرة نشوانه متحدية تطل من تحت جفنيه المسبلين قليلاً. حط على الجميع ترقب قلق، بينما بدت رحاب المنكمشة على نفسها، وهي تجاهد كي تداري فزعها من رؤية ناجي مقاتلاً :

أخيرا همهمت أمينة بضجر، وقد قامت إلى الشرفة المتوارية في الظلال، مشيرة إلى تراجي، لتتبعها:

- نشم هواء البحر أحسن.

ثم بضحكة عصبية التوى لها جانب فمها الكبير الشهوي:

- لا شيء هنا إلا هواء البحر والكلام، هم لا يتعبون من الكلام.

بعد رجوعي للقاهرة، ولعامين طويلين متصلين، سأغدو أسير مائدة أمينة وفراشها. سأكبح رغبتي في إدارة قرص التليفون مجربا الرقم الذي خطّته على ورقة صغيرة رمتْ بها في يدي، كأنما غير عامدة، قبل أن أنهض مع ناجي عند منتصف الليل، أسبوعا، اثنين، ثم لا أكثر، وفي شقتها المفروشة الفخمة بالمهندسين ستستقبلني بابتسامة مغوية منتصرة، وهي تقدم لي البيرة والسفن آب، وتطلب البيتزا الساخنة بالتليفون لنأكل على مهل ونحن نتابع فيلما عاطفيا دافئا، ولن يكون بيننا في تلك الليلة، سوى قبلة مخطوفة غير مجربة أطبعها على خدها وأنا أفتح باب الخروج، مختبرا إمكانية التقدم إلى ما هو أبعد في زيارتي التالية، سأنصت إلى صوت قبلتي المسروقة كما أنصت إلى خشخشة الأوراق الجافة المتيبسة، دون أن تبدي معارضة أو ملامة، وعندما أصل بها إلى فراشها الواسع المتهدل، عابرين فوضى ملابسها وأشيائها المبعثرة في غرفة نومها بعد زيارتين لا غير، سيصرخ قلبي ضاجا بوحدته وأنا أعصرها إلى صدري، ستتدافع معي، تصارعني، مبهورة، خائفة وملتذة، وستصرخ بي في ألم مرتعب ثمل:

- دعني، دعني، لا إلى هذا قصدت.

استمسك بها بين ذراعي لتنقطع أنفاسنا معا، أقيدها إلي بقوة، حالما بطحنها، بتفتيتها بضغطي العنيف، قاسيا عليها وعلي، طامعا في حب صاف أغطس فيه، وأعلو بنبض جديد، بإيقاع داهش متشنج، بالأمل. أما هي فتختنق وتجن كلما طغى موجي على روحها، جسدها، وكل مسام جلدها المتفتحة لتشرب عسل الحب العكر المنصب، وستجد ما يلزم من اليقظة لتصرخ محذرة قبل نفاذ السهم:

- احترس أنا بكر.

أتمدد مستويا على السرير، ذاهلاً عن عريي، حابسا أنفاسي، ومحاولاً أن أتبدد، وعندما تعزمني على الحسين لنأكل كبدة ومخ، ونشرب الشاي الساخن بالنعناع الأخضر، وندور بالحنطور المكشوف في الحي المزدحم كالسياح، ثم تلقي بخمسين جنيها في كف الحوذي المنشدة الذي طلب بطمع ورقة بعشرة، سأقول لها لائما متسفزا :

- هذا كثير جدا ، أنت تقتلينه بهذه الفلوس.

تضحك من جديتي، وتتهمني بالعبط والبخل، وفي الآخر يرق صوتها:

- سيتعشى جيدا ، هو وأطفاله وحصانه الغلبان.

- أنت عنيدة وغبية، لماذا تريدين إذلالنا؟

ونحن سائران في شارع الموسكي سيكون الظلام قد هبط، وستضيء مصابيح المتاجر والبيوت وتتلألأ، لكن لا في روحي، وبوصولنا لميدان العتبة، ستوقف سيارة أجرة وتأمر السائق بالعودة بنا إلى المهندسين دون استشارتي، وسأصر على الدفع أنا في هذه المرة ولا أتنازل، حتى لو كلفني المشوار خمسة جنيهات هي كل ما في جيبي من نقود، وستبتسم وهي تسوطني بكلماتها:

- تخجل أن أنفق عليك؟

- يكفي ما أنفقته علي من قبل.

تدير رأسها إلى الناحية الأخرى محتمية بمويجات الموسيقى المتعالية في فضاء البيت المقلوب وسكونه.

- تعتبرون أنفسكم أرقى منا.

- من؟

- المصريين. حتى وأنتم تأكلون على موائدنا وتقبضون رواتبكم من خزائننا تبقون على تعاليكم الداخلي تجاهنا،

قائلين لأنفسكم: هم بدو أجلاف لا أكثر، كانوا يعيشون على الإبل والتمر قبل انفجار الزيت تحت أقدامهم الحافية.

- أنا لا أقول شيئًا .

ثم تبدأ في البكاء بنشجات جافة متوحشة، كازة على أسنانها، كما لو أنها ستفقد عقلها:

- بل تقول، أعرف، وتقول ما هو أكثر عني بالذات، في بلادها تختفي تحت العباءة ولا تظهر وجهها حتى لأخيها، أما هنا فبيتها وجسمها مفتوحان لكل من هب ودب، أليس كذلك؟ كن شجاعا واعترف.

أتسند على الحائط الصلب اللامنظور بيننا منهكًا ومهانًا، بينما تطوف ابتسامة كبرياء وتقزز على شفتها. هل كانت إنسانا آخر يعذبه وجوده، ويسأل، دون أن يعي سؤاله، عن غاية كل هذه الفوضى، كل هذا التناقض، وعن معنى اندفاع الماء إلى البحر، وضوء النجوم البعيدة التي لا ندركها، وكتائب الشياطين والملائكة المتحاربة في قلب الإنسان، حتى الموت؟ سددتْ نظرتها المسعورة إلى شفتي تنتظر كلمة لن تخرج من بينهما، كلبؤة لا تعرف معنى التصالح.

بصقت بقرف:

- ولا كلمة، لا أهمية لرأيك عندي، قل ما تريد، وسأفعل ما أريد.

استدارت تصفر بشفتيها مع الموسيقى المؤثرة لبيانو بطلة الفيلم، كأنها خلية، كأنها ليست هي، وكأنها تتسكع في خفة حالمة على طول الطريق المفضي إلى الصباح.

بعدها ستهمس لي تراجي:

- لنأخذ منها ما نستطيع أخذه، إنهم لا يساوون.

وسأجفل من العداوة المبيتة في كلماتها، الكراهية المدفونة في صوتها. أمتنع عن النظر إليها غارقا لحظة بعد أخرى في لجة قرار التعب واليأس. كانت تنهشها:

- حتى إدريس استكثرته علي، وبعثت به إلى بلدها بعقد عمل لنبقى عبيدا عندها.

ولن أفكر في الرد عليها غير جاهل أنهما كانا الساعيين إلى عبوديتهما، الحالمين باكتمال وعد تحققها، هناك في البلد الكريم الذي لن تطؤه أقدامهما إلا بصك بيع رقبة.

- نعم أكتب معها الماجستير، لستُ مجنونة لأرفس بقدمي ألف دولار.

ثم بنبرة رتيبة مجهدة أشتم فيها رائحة الطوفان القادم:

- كل منا يعرض بضاعته في السوق العربية المشتركة، أمة واحدة ذات رسالة خالدة، كما تقول إذاعتكم.

ولم تضحك، ولم أضحك، ولا كذلك كمال الذي يقترح محاذرا انفلات أمر السهرة:

- ما رأيك يا مريم.؟ يمكننا دعوة أشرف لزيارة الإسكندرية عدة أيام لتهمسي في أذنه بأي كلمتين تريدين.

- وأقع أنا بين مطرقة أشرف وسندان ناجي، كنت أحسبك أطيب من ذلك يا كمال.

اقتسما ضحكة قصيرة لا حماس فيها، بينما جاء صوت أمينة الساخر من الشرفة متسائلا ومتبرما على طريقة مسلسلات التليفزيون:

- خير إن شاء ا .؟ فُرِجِت؟

أهلت علينا الخادمة بهدوء، ساحبة أمامها عربة الشاي التي تصطف فوقها الفناجين والأباريق الخزفية بنقوشها اليابانية الدقيقة، والأطباق المكتظة بالكيك والفطائر الخفيفة المتنوعة. نهضت مريم بجلال وأبهة توزع على ضيوفها الفناجين الممزوجة بحليب ابتسامتها، مؤكدة هيمنة حضورها

على حفلنا السعيد، ومعمقة في كل حركة جديدة، مشاعر الانفصال بيني وبينها، مستغرقة، أظن، في وهمها اللذيذ عن الأثر المذهل، الذي لا بد أن تخلفه في نفوسنا. هتفت بمرح واثق:

- توجد بيرة لمن يحب.

مدد كمال جسمه بحرية على السجادة الوثيرة مرتكنًا بظهرة على الوسائد اللينة وأغمض عينيه المجهدتين قبل أن يعزم أمره وينادي:

- بيرة، ما تيسر من البيرة.

ضحكت مريم بنعومة وهي تفرغ محتويات العلبة المثلجة في الكوب الكريستال الشفاف فتتعالى الرغوة وتفور منحلة إلى لونها الذهبي الرائق، ثم تقدمه إليه وتتقدم بالكوب الثاني إلى رحاب التي لم تطلب ولم تعتذر. أطبقت رحاب بأصابعها على الزجاج اللامع المندى بالبرودة كغلالة رقيقة ممزقة من الضباب الثري. راحت نظرتي تلهث وراء يدها الشمعية الهشة بعروقها الدقيقة البارزة، وهي تهتز بوهن لا يلاحظ، كبرعم جديد فاجأه البرد النازل.

باغتتني بسؤالها:

- وتنوي حقا هجر الشعر؟

في كل الليالي يجافيني النوم أبات أنتظرك تأتين أعرف أنك لست امرأتي، وأهتف باسمك ضارعا أسرج مصباح حبي من زيتك وترابك تتوهجين في سمائي، توهجت نافذة أماني المضاءة والشجرة العجوز في ليل صيفي الخانق، ألعن فيها أمي ما رأيتها ولا رضعت لبنها، حرمتني الشبع والفطام، أتضور جوعا في الدروب لا كسرة خبزك أختلسها من ناجي تشبعني ولا زيت عطفك يشعل قنديلي، تواري احتجبي أنام.

- كنت أظن نفسي شاعرا إلى أن سمعت قصيدة لزميل لي يتخيل نفسه فيها كلبا ضالا في الشوارع، وبعد دقيقة يصبح الكلب ذاته، ينبح ويعض ويبول على الجميع، وقتها شعرت بالرعب وجمد الدم في عروقي، إذن هذا هو الشعر، قلت لنفسي، اعتراف وابتهاج متكبر بالعار ورغبة في بلوغ خلاص الانحطاط النقي، لا، أنا لا أستطيع، محمد يقدر، أما أنا فأجبن من ذلك.

بدأت كلامي جافلاً، معميا عن تلك القمة المحتجبة من المعرفة العميقة بقلبي، وفي أول من ثانية بدأ كل شيء كما لو

أنه محسوم من زمان. وبرغم الحزن الذي يطوق روحي، راحت فراشات وليدة ترفرف في فؤادي مؤكدة أن الموت لا خطر منه، لا وجود له، وأن ارتجاف يدي رحاب وارتعاشة شفتيها الرقيقتين، وهما تمتصان البيرة ببطء، طريقي المتاح اليوم لإعلان دولة البراءة، ولاستمرار الحياة في ظل السديم، ورغمه. من غير أن تعي ما تقول لاحظتْ مريم:

- أنت ترتعشين يا رحاب.

التمت رحاب على جسمها الصغير تلتمس دفء الداخل من خارج يزداد برودة ووحشة، كانت تنظر إلى الليل الأسود الصامت خلف الشرفة، ومن مكان ما فوق الخليج الغافي كان ثمة ضوء ينبعث من ثكنات الجنود الساهرة للحراسة. انتظرت متقطعة الأنفاس ومتحاشية النظر إلى عيني ناجي المتقدتين لهفة وخشية. ردت بصوت لا يكاد يفلت من بين زفراتها:

- الجو بارد الليلة.

لعلها أرادت أن ترمي بالعمر كله في جب الكراهية والنسيان. أو لعلها أرادت أن تذرف بعض الدموع، ولأنها لم تفعل لا هذا ولا ذاك، وعوضا عنهما، أدارت وجهها إليه

تستنجد به، وتدعوه ليخلصها، هو، وحده. أحنى ناجي جذعه يخلع بلوفره الثقيل في صمت، عابرا فضاء القاعة على ركبتيه، ليدثرها به بحب واتضاع بينما تدير رأسها عنه في تعب. لم ينطق أحدنا بكلمة، ووقفت أمينة تتأمل المشهد الطقسي بافتتان، أحسست بقلبي ينشرح وأنا أنصت إلى نبضاته تعلو متسارعة، كنت أجوس في ظلام الحب المرعب عارقًا ما تعنيه تقدمة ناجي له. كان قد اختار، على نحو نهائي، طريقه، وسيمضي فوقه إلى حيث صار مقدرا له منذ بداية البداية، وحيدا يائسا وغير منتظر لشيء. كان كل ما حولي قد استحال وهما، يبحر في الضباب البحري، ورأيته ساهرا يرقب انبلاج نجم الصباح، مترفعا على الوعد الذي يزجيه له الرب، وانكشف العالم أمام عيني الروح ضائعا ، بلا أمل، في سهوب الظلام الدقيقة.

استجمعت مريم بأسها تسأل بصوت جامد يتكلف الثبات:

- إلى أين يذهب بنا السادات يا كمال؟

انتبه كمال المأخوذ بسحر الحركة الصغيرة التي صفع بها ناجي تاريخًا من التعامي، واضعا ، كلا منا في مواجهة مرآة ضميره. كان يفهم دوافع مريم من سؤالها المفاجئ. تلبسه

حزن طفولي قديم، واخترق قلبه إحساس بعزلة خفية باتت تهدد روحه إلى الأبد. هل كان من الأفضل ألا يلقاها مطلقًا؟ ألا توجد قط؟ لكن ذلك كله صار مستحيلا الآن، وبرغم بعدها الشاسع عنه، وبرغم الجفوة التامة بينها وبين طابور الصباح في المدرسة، وعيون التلاميذ المفتوحة على وسعها بدهشة المعرفة والتفلسف، وبينها وبين فرح أمه المحبة للحياة تقنع بأفراحها وأوزاتها، تطعمها وتسقيها، وتطرب لزياطها الذي يملأ الدار، كان ثمة شيء فيها يجذبه إليها، شيء يستعصي على فهمه، ليس الحب، بل مزيج من رغبة ونفور. وتحت حجاب تظاهرها، كانت تبدو لعينيه صغيرة جدا ، تحلم بالحب وبالعيش من أجل أحد ما، شريطة أن يحدث ذلك كأنما عيل نحو عارض، غير محسوب، نبيل وبطولي.

رد بضيق:

- إلى جهنم.

- نعم أضاع كل شيء عندما نزل من سلم طائرته، لأرض مطار بن جوريون.

تدخلت تراجي مستوضحة:

- تقصدين نضال الفلسطينيين وحقوقهم؟

- أقصد التضامن العربي، والكبرياء العربي. عندما رأيناه في الخليج يصافح الصهاينة واحدا واحدا ، حتي ديان وجولدا مائير وشارون، لم يقدر الكثيرون على منع دموعهم من النزول، وجلس أبي يغلي صامتا وهو يرى حلم حياته، في وحدة العرب وانتصارهم، يتهاوى أمام عينيه، وأصبحت تضحياته السياسية والعائلية، بلا ثمن.

نظرت حولها بارتباك، بينما راحت عينا رحاب تتابعانها وتومضان ببريق خاطف لم أدرك بواعثه، قالت أمينة بنزق:

- أنا شخصيا معجبة بشجاعة السادات وواقعيته، قد يعطينا السلام ما عجزنا عنه بالحروب، لماذا لا نجربهم يا جماعة الخير؟

لحقتها تراجي بتهكم مكشوف هذه المرة:

- أنت يا حبوبة معجبة أكثر بالجينز الأمريكاني، ووسامة ترافولتا.

- وما الخطأ في ذلك، أنا أحب أن استمتع بحياتي، بكل الأشياء البسيطة فيها، بالجينز الذي يلبسه كل الشباب الآن، وبدجاج كنتاكي أيضا، كل إنسان يحب هذا، لكن بعضنا ليست لديه الشجاعة الكافية ليعترف به، والبعض الآخر يسير

مغمض العينين خلف الشعارات البالية، أتنبأ لكِ يا حبيبتي أن تفيقي على حياتك التي ضيعتها الشعارات، وتلعني دين الكل.

أحنت جذعها القصير المدملج إلى الأمام متلهفة أن تهبنا قليلا من إيمانها بالحياة وأشيائها الصغيرة، وحالمة مع صوت خوليو إيجليسياس، المتسلل إلى آذاننا من بعيد، كنجم للحب يلمع في سمائنا القاحلة، يتلألأ رويدا رويدا ثم يتراجع متلاشيا في إيقاع هش يمنح الصمت لذة وفتنة ورهبة. عارضتها مريم:

- هذا بالضبط ما يريدونه لنا، شعارات أخرى غير الشعارات القديمة، عقيدة برجماتية قصيرة النظر، وفهم للحياة يقدس اللذة، يقولون لنا يا أمينة كلوا واشربوا والبسوا وارقصوا، لكن دعونا نفكر عنكم، ونقرر لكم، تفرغوا أنتم للأهم، للسعادة.

اعتدلت في جلستها آخذة وضعا يليق بمكانتها، حريصة على تأكيد جدارة نسبها ومعتلية منبر الخطابة الثورية الذي خلته يوما محجوزا باسمي كمال وأشرف، وما جال بخاطري أن تزاحمهما عليه بدوية جميلة من صحراء بعيدة تطفو رمالها الذهبية فوق بحار من زيت وغاز. سأل كمال:

- والوالد ما رأيه في ما يجري؟

- غير متفائل بالمرة، يقول إننا نعيش زمن الهزيمة الكاملة.

- هكذا؟

حدجته بنظرة باردة مستهجنة، كانت لهجته الساخرة المستفزة قد مست العصب العاري لكبريائها الذي اجتهدت لترويضه طويلاً . قال موضحا أو معتذرا:

- أي رجل في الشارع العربي من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر يعرف أننا نعيش زمن الهزيمة الكاملة، لكن والدك ليس رجلا عاديا، ولا بد أن لديه تصورا للخروج من هذا النفق المظلم.

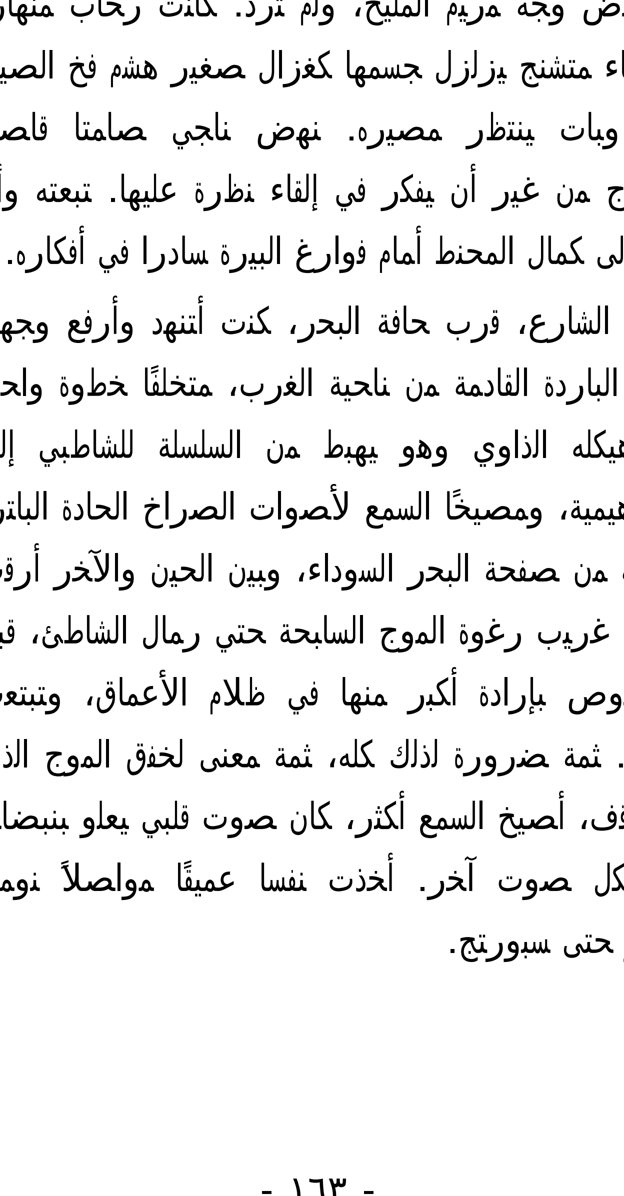
- كان. أما اليوم فما تبقى له غير الخيل.

آب الجميع إلى السكوت الهش. راحت تنظر إلى عينيه بعناد والقلق يداخل روحها. رأيته يجفل لمرأى عينيها الواسعتين المكحلتين وقوة أعصابها، ومن داخله، من مكان منسي ومرفوض بداخله، ظل يعترف لنفسه أنه سيعطيها من ذاته أي شيء يستطيع، تمتم يكرر على نحو آلي خالٍ من المعنى:

- الخيل!

لا أدري كيف صبرنا جميعا على احتمال وطأة ذلك الحديث بصمته وكلامه، وأوهامه، ولا أعرف ماذا كنت أترقب حصوله، دون ثقة في حصوله طول المساء، غير أن ما كان هاجسا ضبابيا ينداح على سديم من اليأس المجرد والتطلع، أطل بلحمة وشحمه، في لحظة لن أنساها. كانت الثريات المغرورة تتبجح بوهجها فوق رؤوسنا التي انحنت لمرور عاصفة زمن الهزائم والحب، لكن وجه رحاب المتقاص بآلام باطنية أفصحت عن نفسها بلا حرج كقمر ينشق، جعلني أعاني مع نفسي حيرة بالغة، كنت أهيئ نفسي للإبحار إلى بلاد غريبة لم يعرف أهلها لعنة اللغة، وكنت أحلم بأرض الخرس حلو الرنين، وكانت رحاب تدخر لي مفاجأة مضادة، واحدة من هداياها، هل أقول أكاذيبها؟ التي لن يخلو جرابها منها، أوبتي إلى البيت الذي ما كنت أبدا فيه. غدا صوتها متشنجا دامعا ، وهي تناضل ضد مرضها المزمن صارخة في... مريم:

- كفاية يا مريم أرجوك.



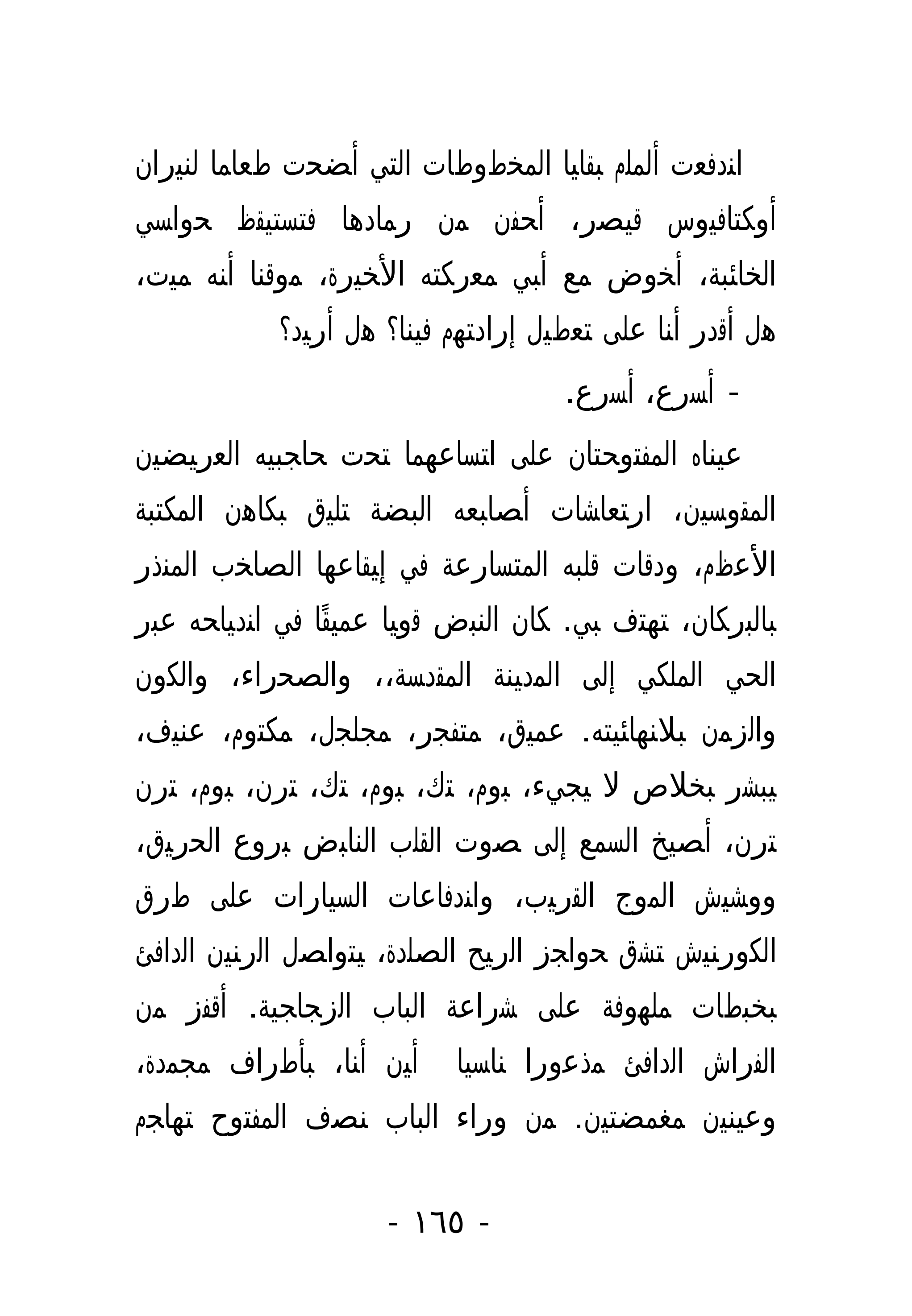
انقبض وجه مريم المليح، ولم ترد. كانت رحاب منهارة في بكاء متشنج يزلزل جسمها كغزال صغير هشم فخ الصياد قدمه وبات ينتظر مصيره. نهض ناجي صامتا قاصدا الخروج من غير أن يفكر في إلقاء نظرة عليها. تبعته وأنا أرنو إلى كمال المحنط أمام فوارغ البيرة سادرا في أفكاره.

في الشارع، قرب حافة البحر، كنت أتنهد وأرفع وجهي للريح الباردة القادمة من ناحية الغرب، متخلفًا خطوة واحدة عن هيكله الذاوي وهو يهبط من السلسلة للشاطبي إلى الإبراهيمية، ومصيخًا السمع لأصوات الصراخ الحادة الباترة القادمة من صفحة البحر السوداء، وبين الحين والآخر أرقب بشغف غريب رغوة الموج السابحة حتي رمال الشاطئ، قبل أن تغوص بإرادة أكبر منها في ظلام الأعماق، وتبتعث سواها. ثمة ضرورة لذلك كله، ثمة معنى لخفق الموج الذي لا يتوقف، أصيخ السمع أكثر، كان صوت قلبي يعلو بنبضاته فوق كل صوت آخر. أخذت نفسا عميقًا مواصلاً نومي السائر حتى سبورتنج.

(١٤)

على امتداد الدروب المستقيمة كانت الرياح الشمالية تطارد الفراشات المحترقة أبعد نحو الصحراء، وفي جوف الليل المحتشد باتت المدينة الشهباء تترنح برخام قصورها ومعابدها على نصال ألسنة اللهب المبهورة، وقطعان دخان الحرائق المتعالي نحو سماء خرساء لا مبالية. أسطول روما المنتصر يبتسم بعيون زرقاء ويرجم الحلم العاطفي الساذج لكليوباترا بنار ودم وتراب، ومن الميناء الشرقي إلى شاطئ الملكة ظلت أسراب العصافير والأوهام والغرور تتموج مشتعلة في أتون ليل جاهلي، وتطفو في سماء العمر كالبقع الميتة. وخزني أبي مهرولاً هنا وهناك، زائغ البصر مكروبا ومعاندا:

- افعل شيئًا ، هل فقدت الإحساس نهائيا؟



اندفعت ألملم بقايا المخطوطات التي أضحت طعاما لنيران أوكتافيوس قيصر، أحفن من رمادها فتستيقظ حواسي الخائبة، أخوض مع أبي معركته الأخيرة، موقنا أنه ميت، هل أقدر أنا على تعطيل إرادتهم فينا؟ هل أريد؟

- أسرع، أسرع.

عيناه المفتوحتان على اتساعهما تحت حاجبيه العريضين المقوسين، ارتعاشات أصابعه البضة تليق بكاهن المكتبة الأعظم، ودقات قلبه المتسارعة في إيقاعها الصاخب المنذر بالبركان، تهتف بي. كان النبض قويا عميقًا في انديا‌حه عبر الحي الملكي إلى المدينة المقدسة،، والصحراء، والكون والزمن بلانهائيته. عميق، متفجر، مجلجل، مكتوم، عنيف، يبشر بخلاص لا يجيء، بوم، تك، بوم، تك، ترن، بوم، ترن ترن، أصيخ السمع إلى صوت القلب النابض بروع الحريق، ووشيش الموج القريب، واندفاعات السيارات على طرق الكورنيش تشق حواجز الريح الصادة، يتواصل الرنين الدافئ بخبطات ملهوفة على شراعة الباب الزجاجية. أقفز من الفراش الدافئ مذعورا ناسيا أين أنا، بأطراف مجمدة، وعينين مغمضتين. من وراء الباب نصف المفتوح تهاجم

أنفي رائحتها الأنثوية، فأستفيق قليلا على وجهها الأبيض في عتمة السلم الخفيفة، اقتربت مني مباشرة بلا كلام، وفي غمضة عين كانت رحاب تخطو برقة مصممة إلى مرسم ناجي، ترد الباب الموارب بيد، وبالأخرى تفتح الشباك المطل على المدى المبسوط لناظري في تقلبه المثير. نظرت إلي بعينين مشتعلتين بالسهاد والأرق قبل أن تعبر بهما بسرعة إلى البورتريه المعلق فوق الحامل كمن يبحث عن شيء يخصه وهو يعلم أن لا وجود له هنا.

وقفت أرقبها ساكنا ممتلئ الصدر، لا أزال، بالدخان والتراب، بدت في بلوفر ناجي والبنطلون الجينز الضيق كواحدة من فتيات الإعلانات وهي تغرينا بتدخين سجائر الـ" كنت"، أشعلت لنفسها واحدة، وهي تسأل باعتذار متكلف:

- أقلقتك؟

كنت مستطيعا أن أنصت إلى صوت عظامها، تصطك تحت جلدها، عبر زبد اللحم الشحيح، كنت أقدر على طيها في حجري كقطة بيضاء وليدة، وما كان لدي ما أخاف منه وعليه في مواجهتنا الصامت معا في هذا الصباح الغريب، لكن قدومها المبكر، على غير انتظار ناجي المفاجئ

بعد أن هزمني سلطان النوم عند الفجر، غافلاً عن متابعة هسيس أنفاسه وزفراته المخنوقة التي ظلت الليلة بطولها ترجعها. قلت:

- ناجي غير موجود.

ابتلعت نبرة التأنيب الذائبة في صوتي، وراحت تنفث دخان سيجارتها في هدوء وقوة. أحببت أصابعها الرفيعة المشدودة العصب، أما عيناها اللامعتان الشقيتان، فقد غدتا مصدر رعبي في حضورها. ردت بصوت خفيض كأنما لنفسها:

- غير موجود.

- لم يخبرني بذهابه إلى الكلية مبكرا.

- لم يذهب إلى الكلية.

صوتها واضح ولهجتها قاطعة، لم أفهم سر يقينها الذي يهيج بنفسي قلقي عليه أكثر فأكثر، هل ثمة ما يتم الإعداد له بينهما بغير معرفتي بالدور المرسوم لي فيه؟

- ينتظرني الآن في محطة الرمل.

قاسية في رقتها كما يجدر بامرأة أن تكون، صمتت لحظة أخرى قبل أن توضح ما تريد متحاشية النظر إلي في عيني:

- أريد أن أتحدث معك في غير حضوره، قليلا:

جلست ساكنًا منتصبا على الأريكة القريبة، كارها أكثر من أي وقت مضي، أن أرى ناجي وأراني دميتين في يدها الجميلة. كان عقلي يمضي صعدا على درب الإفاقة الكاملة، صافيا ومتلاذا على نحو حسي غريب بأخلاط من مشاعر الذنب والظفر معا ، استسلمتُ لهبة الهواء المندفع عبر الشباك المفتوح على بحر صاف هذا النهار.

- بخصوص؟

رفعت حاجبيها تستنكر سؤالي أو تعجب له، ربما، وفي استنكارها وعجبها لاح لي كل شيء من حولنا وهميا في حقيقته، كما في شريط سينمائي. ومن مكان بعيد بعيد، أبعد من محطة الرمل ومن طنطا، بدا ناجي وحده خارج المشهد التخيلي، وهو في قلبه وتلافيفه.

- بخصوصه طبعا.

- وما شأني أنا بينكما.

- اسمعني، هذا مهم جدا له، أنتما صديقان قديمان، إنه يثق بك، عندما دخلتما علينا ليلة أمس أدركت فورا أنك الشخص الذي يمكنني الاعتماد عليه في توصيل رسالتي له بأمانة، إنني لا أقدر على مواجهته، أخاف منه، هل تفهمني؟

هززت رأسي نافيا، ولمحت ناجي يقف منزويا مقرورا في برد محطة الرمل كاشفًا قلبه لريح لا ترحم، وماضيا بروحه إلى لجة البحر يروي ظمأها بالملح الأجاج.

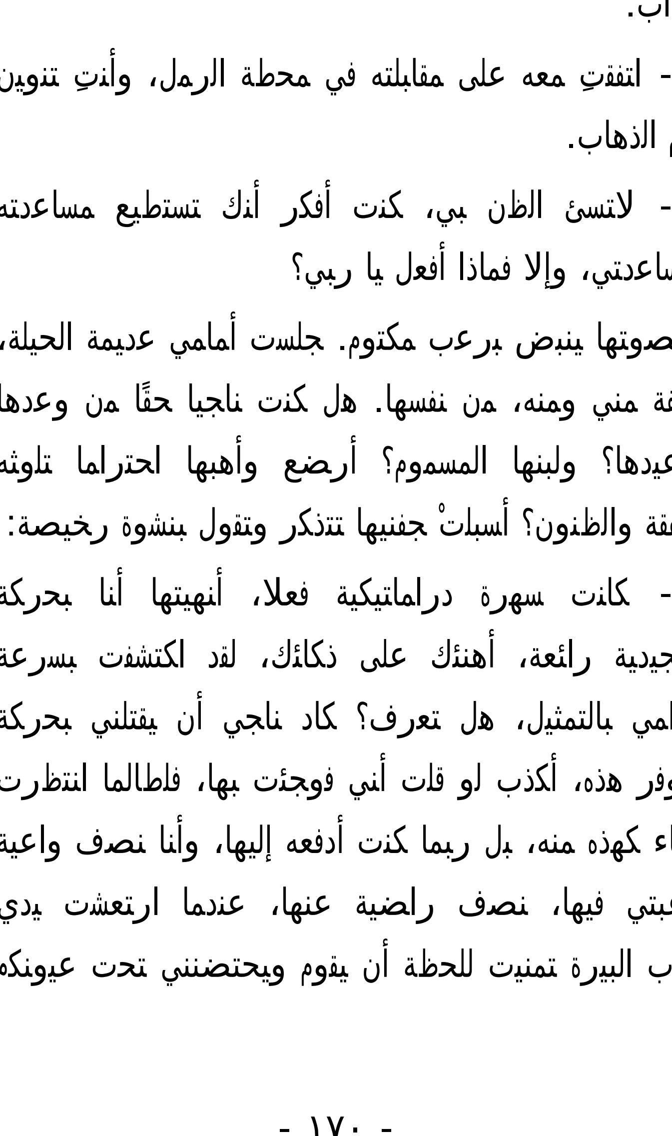
أليس هذا ما تدعوني إلى فهمه؟ انفجرت غاضبا .

- أنت مغرمة بالمواقف المسرحية.

- أنا وأنت يجمعنا إخلاصنا له.

أجابت بهدوء متجاهلة شفتي الممطوطتين بحركة ازدراء قاسية، عازمة على مواصلة عرضها الشائق:

- هل تعلم أنه اتصل بي تليفونيا عند مريم حوالي الساعة السادسة؟ لا بد أنه بحث طويلاً عن تليفون يتكلم منه في مثل ذلك الوقت، كان عنيدا ولحوحا في طلبي حتى بعد أن طمأنته الخادمة معتذرة عن أن الجميع في الفيللا نائمون، ولم يكن هناك مفر من إيقاظي ليهدأ ويضع السماعة، لما سمعت



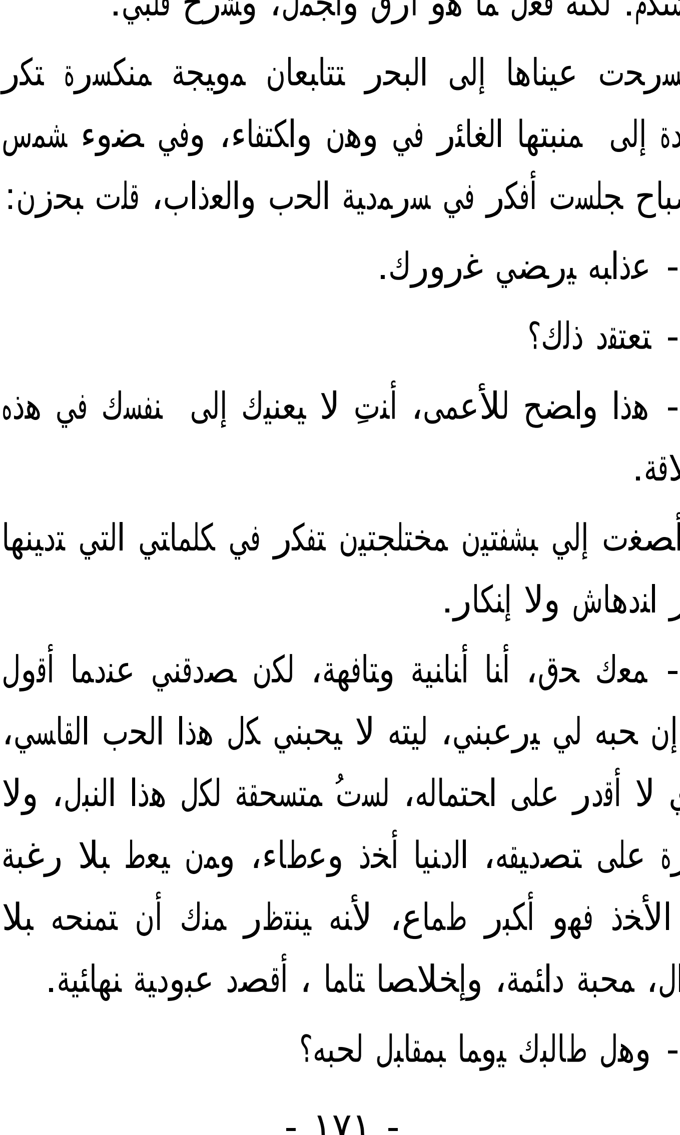
صوته تيقنت أنه منهار، وصممت على وضع حد لكل هذا العذاب.

- اتفقتِ معه على مقابلته في محطة الرمل، وأنتِ تنوين عدم الذهاب.

- لاتسئ الظن بي، كنت أفكر أنك تستطيع مساعدته ومساعدتي، وإلا فماذا أفعل يا ربي؟

صوتها ينبض برعب مكتوم. جلست أمامي عديمة الحيلة، خائفة مني ومنه، من نفسها. هل كنت ناجيا حقًا من وعدها ووعيدها؟ ولبنها المسموم؟ أرضع وأهبها احتراما تلوثه الشفقة والظنون؟ أسبلتْ جفنيها تتذكر وتقول بنشوة رخيصة:

- كانت سهرة دراماتيكية فعلا، أنهيتها أنا بحركة تراجيدية رائعة، أهنئك على ذكائك، لقد اكتشفت بسرعة غرامي بالتمثيل، هل تعرف؟ كاد ناجي أن يقتلني بحركة البلوفر هذه، أكذب لو قلت أنني فوجئت بها، فلطالما انتظرت أشياء كهذه منه، بل ربما كنت أدفعه إليها، وأنا نصف واعية برغبتي فيها، نصف راضية عنها، عندما ارتعشت يدي بكوب البيرة تمنيت للحظة أن يقوم ويحتضنني تحت عيونكم



جميعا، لأغمض عيني وأستمتع برؤية غيرتكم وتخيل دهشتكم. لكنه فعل ما هو أرق وأجمل، وشرخ قلبي.

سرحت عيناها إلى البحر تتابعان مويجة منكسرة تكر عائدة إلى منبتها الغائر في وهن واكتفاء، وفي ضوء شمس الصباح جلست أفكر في سرمدية الحب والعذاب، قلت بحزن:

- عذابه يرضي غرورك.

- تعتقد ذلك؟

- هذا واضح للأعمى، أنتِ لا يعنيك إلى نفسك في هذه العلاقة.

أصغت إلي بشفتين مختلجتين تفكر في كلماتي التي تدينها بغير اندهاش ولا إنكار.

- معك حق، أنا أنانية وتافهة، لكن صدقني عندما أقول لك إن حبه لي يرعبني، ليته لا يحبني كل هذا الحب القاسي، الذي لا أقدر على احتماله، لستُ متسحقة لكل هذا النبل، ولا قادرة على تصديقه، الدنيا أخذ وعطاء، ومن يعط بلا رغبة في الأخذ فهو أكبر طماع، لأنه ينتظر منك أن تمنحه بلا سؤال، محبة دائمة، وإخلاصا تاما ، أقصد عبودية نهائية.

- وهل طالبك يوما بمقابل لحبه؟

- لن يطالبني، وسيكفيه أن يحملني دوما عبء أنه لن يطالبني، من يرضى بأن يغرف من حب إنسان له لا بد وأن يدفع الثمن، لا شيء في الحياة مجاني، أما أنا فلا طاقة لي على دفع الثمن الذي ينتظره ناجي مني.

رفعت إليها رأسي محدقا في عروقها الزرقاء الدقيقة، وقد انتفخت بالانفعال مانحة وجهها مسحة من الكآبة والأسى.

سألتها متألما وآملا:

- ولماذا لا تريحين قلبه وتهبينه الحب الذي يريد؟

- لن يرتاح، تعلم أنه لن يرتاح، هذا الأمر أكبر مني ومنه.. ثم.. ثم إنه لا ضرورة له.

- لا أفهمك.

- انظر بنفسك إلى هذا البورتريه لتفهم ما أعنيه، إنه لا يراني أنا، ولا يريدني أنا، بل صورة مني، انحفرت بذاكرته، يمكن، وهو ينحني يوما لتقبيل أيقونة مقدسة، إنه يجري وراء الذكرى، معي أو مع غيري يلهث خلفها، والشيء المرعب الذي أصبحت متأكدة منه، أنه يضمر في نفسه رغبته العنيدة في تضييع الصورة وصاحبتها.

نهضت فجأة تتمشي في الصالة الضيقة بين حامل الرسم والنافذة. ألمت ارتجافه صغيرة بأوصالها اجتهدت لتسيطر عليها بسرعة، أخذت تحدجني الآن بنظرة صريحة كأنها تزنني بميزان الحقيقة التي كابدتها ودفعت ثمن معرفتها بها غاليا. أصرت بصوت كظيم يحتقر الاضطراب:

- ثم أي مستقبل ينتظر حبنا هذا؟ هل يعلن إسلامه مثلا ونتزوج؟ هل يقدر على التخلي عن أهله ودينه من أجلي؟ وما يضمن لي أن يظل على حبي كما هو اليوم؟ وكيف نربي أولادنا ونعلمهم الصلاة والصوم؟

- هل تشغلكِ هذه الأمور حقا؟

- تشغلني طبعا، هل تبدو لك تافهة ولا تستحق.

- لم أقل ذلك.

- أريد أن يعيش أطفالي عيشة طبيعية بين أقاربهم وزملائهم في البيت والشارع والمدرسة، لو أنك ذقت مرارة فقدان الأهل والأصدقاء لوافقتني فورا فيما أقول.

ارتسمت، رغما عني، ابتسامة ألم فوق شفتي. بدا منطقها قويا صافيا وضاربا بجذوره في أرض الإخلاص للواقع، ونبذ أحلام المراهقة الغريرة، ناضجة، مجربة، وتحت قناع

الشباب الجميل، جثمت روح عجوز لم تنطل عليها خدعة الحياة، عارفة أن عشرة عصافير على الشجرة ليست ملكا لصاحب الشجرة ولا للسماء المفتوحة ولا لأنفسها حتى.. استمرت:

- انتبهت مريم للمسألة وحذرتني من الانسياق وراء العواطف دون تفكير.

- حكيمة.

عبرت فوق سخريتي مسرعة، وهي تتشاغل بإشعال سيجارة أخرى. قالت:

- إنها صديقتي، أرجو ألا تنخدع في تفسير ثورتي عليها أمس، كنت قرفانة من هذه المظاهرة القومية التي تعمدت تمثيلها أمامكم، لكني أعرف أن لها قلبا من ذهب، وهي تحبني بجد.

- قلب من ذهب أسود.

رمقتني بنظرة لائمة. أحسست بوجهها يشحب وبأنفاسها تتقطع، وكنت قادرا على سماع نبض قلبها يعلو في صدرها وهي تجيبني بغم عميق:

- هذا ما أخبرك به ناجي عني؟ على كل حال ما عادت أفكار أي أحد عن حياتي تهمني، نعم، أعيش في بيتها، ألبس وآكل وأشرب وأدخن كما ترى، ومع ذلك سألعن جدودها إذا حاولت أن تستعبدني، لست عبدة لأحد، ولا أشعر أني مدينة لأي إنسان في العالم بشيء.

لا مريم ولا ناجي ولا غيرهما، واضح؟

انسابت من عينها دمعة طال اعتقالها، كانت كافية لإغراق مراراتي الصغيرة. اقتربت منها لأعتذر لها، وللحظة قصيرة تخيلتني أمسد على شعرها براحة يدي مهدئا، قبل أن أفيق على وجه ناجي الواقف على محطة الرمل. قالتُ:

- سامحيني يا رحاب، لم أقصد إيلامك، لكن فكرة ثمن الحياة تعذبني، لكل شيء ثمن كما تقولين، وأحيانا يكون مطلوبا منا أن ندفع ثمن ما لن نحصل عليه أبدا، منتهى الظلم، إنني أجاهد لأنسى، لكن أفكاري مركزة على الموت، أليس الموت هو الفعل الوحيد في هذه الحياة البريء من شبهة الثمن؟

- الموت؟ إنني أكره الموت وأخاف منه، لا تحدثني عنه، أنا أحب الحياة، وأتعلق بها، أريد أن يكون لي بيت وأطفال،

ولو جعت أو عدت إلى الشارع الذي جئت منه، وفي سبيل ذلك سأكون مستعدة دائما لدفع الثمن المطلوب، مهما كان.

خضب الدم وجهها قليلاً. كانت حرارة الكلمات التي نطقت بها قد أنهكتها فاكتست ملامحها الشاحبة جمالا أرضيا مثيرا. لمن كان صوتها يقول إن الحياة والآمال ليست محض حفنة من الرماد تسد أفواهنا؟ من خلف الظلال الضجرة بالشكوى كانت شمسها تضج بالهوى والدفء، هوى الدم ودفؤه، حرارة الطلب والقبول. استجمعت شجاعتي لأفجر ظنوني:

- تقولين إنها تحبك بجد؟

- لا شك عندي في ذلك.

- كيف؟

- ماذا تقصد؟

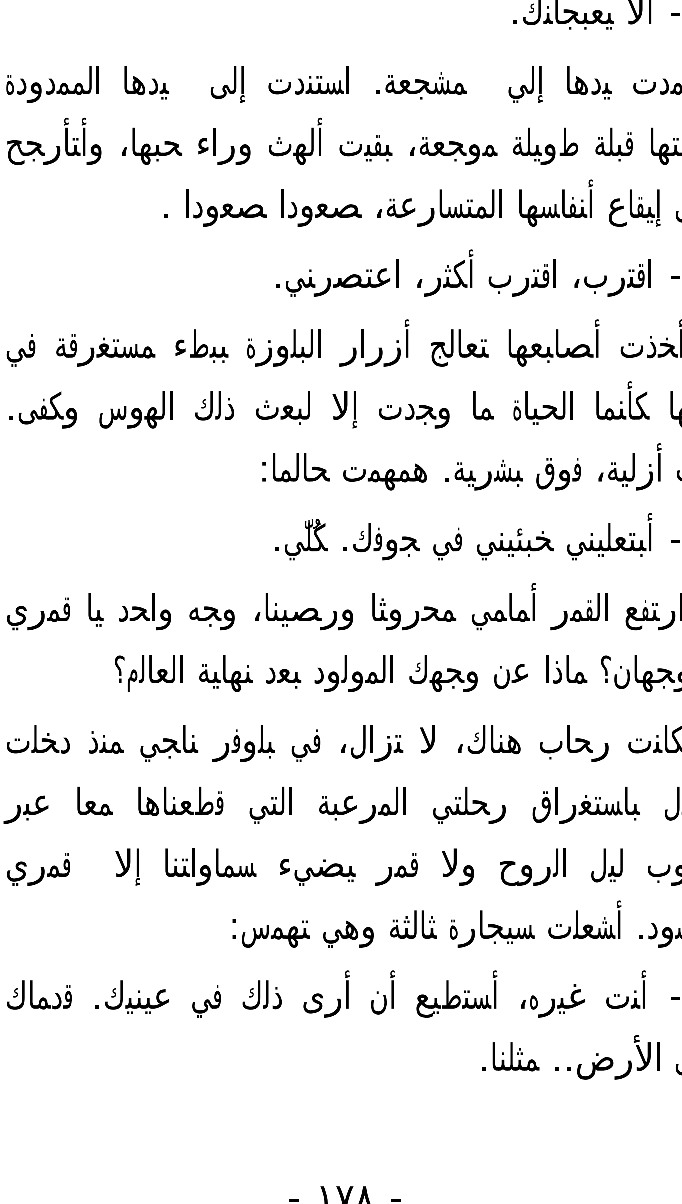
راحت تبحلق في عيني بثبات، أو حتى بتحدٍ وهي ترسل سحب الدخان الأزرق تعتم نظرتها الزجاجية، وتكسو وجهها لهالة من الفتنة والإثارة.

كان خيالي قد رمح بي بعيدا، خيالي النافر المسوط بظلال سود لشهوات لا تتحقق فتنقلب، كنجم ساقط فوق المياه تطهرني بالحميم.

اغسليني اغسليني، زمليني زمليني، وفي جوف الليل أقيميني شاهدا ونذيرا، حرا وبريئا من رجس السؤال والتساؤل.

- أنت غريب جدا.

ابتسامتك الصغيرة ترفرف شفتيك الرقيقتين غير الناضجتين للقُبل، طفل عنيد يكتشف بالصدفة المتعة المختلسة ولا يعبأ بذنبه، قوة رهيبة تنفلت من عقالها تهدد الموت بالحياة، هديرك هديرك، وفي صمتك الضاج تتنهدين، تحمحمين، وصوب المرآة الكبيرة تخطين، تتأملين صورتك المتلاشية بنظرة حالمة نشوانة ومتأملة. امتدت يدها تنزع عنها بلوفر ناجي بحركة متوترة، ثم ترمي به إلى المقعد القريب، وقفت في بلوزتها الحريرية الخفيفة والبنطلون المحبوك، كزهرة متلألئة سوداء، وبهدوء ارتفعت كفاها إلى صدرها تقبضان على برعميها البازغين في انتظارهما الطويل لربيع مستحيل. همس قلبها يتنهد:



- ألا يعبجانك.

مدت يدها إلي مشجعة. استندت إلى يدها الممدودة وقبلتها قبلة طويلة موجعة، بقيت ألهث وراء حبها، وأتأرجح على إيقاع أنفاسها المتسارعة، صعودا صعودا .

- اقترب، اقترب أكثر، اعتصرني.

أخذت أصابعها تعالج أزرار البلوزة ببطء مستغرقة في فعلها كأنما الحياة ما وجدت إلا لبعث ذلك الهوس وكفى. بدت أزلية، فوق بشرية. همهمت حالما:

- أبتعليني خبئيني في جوفك. كُلّي.

ارتفع القمر أمامي محروثا ورصينا، وجه واحد يا قمري أم وجهان؟ ماذا عن وجهك المولود بعد نهاية العالم؟

كانت رحاب هناك، لا تزال، في بلوفر ناجي منذ دخلت تتأمل باستغراق رحلتي المرعبة التي قطعناها معا عبر سهوب ليل الروح ولا قمر يضيء سماواتنا إلا قمري الأسود. أشعلت سيجارة ثالثة وهي تهمس:

- أنت غيره، أستطيع أن أرى ذلك في عينيك. قدماك على الأرض.. مثلنا.

أتطلع إلى البحر هاربا من نظرتها، كانت السماء اللازوردية الصافية تمرح بخفة مع الموج، لو أستطيع التيقن أني ذاهب حتما مع رمل الأرض إلى التبدد في موج بحرك اللاّنهائي؟ استدرت إليها بغتة:

- رحاب ماذا تريدين مني بالضبط؟

- أنا كصديقك الشاعر الذي حكيت لنا عنه، مجرد كلبة جاءت من الشارع، هل تسمعني؟ قل له إنني أحتقر الروح التي يتكلم عنها، أخبره أن طريقينا مختلفان لكل الأسباب التي قلتها لك ولغيرها أيضا.

- لكنك تحبينه، هذا واضح جدا ، فلماذا تختارين طريق العذاب؟

- سأتعلم كيف أنتزع حبه من قلبي، سأحاول أن أحيا. أريد بيتا وزوجا وأطفالا، ولا يرى هو في حبي إلا صليبه، هل أتفلسف؟ لا بأس، أنا أيضا أحب تعليم الناس ووعظهم، وربما كان هذا هو الدرس الوحيد الذي أقدر على تعليمه إياه هذا قدر.

- قدرك أم قدره؟

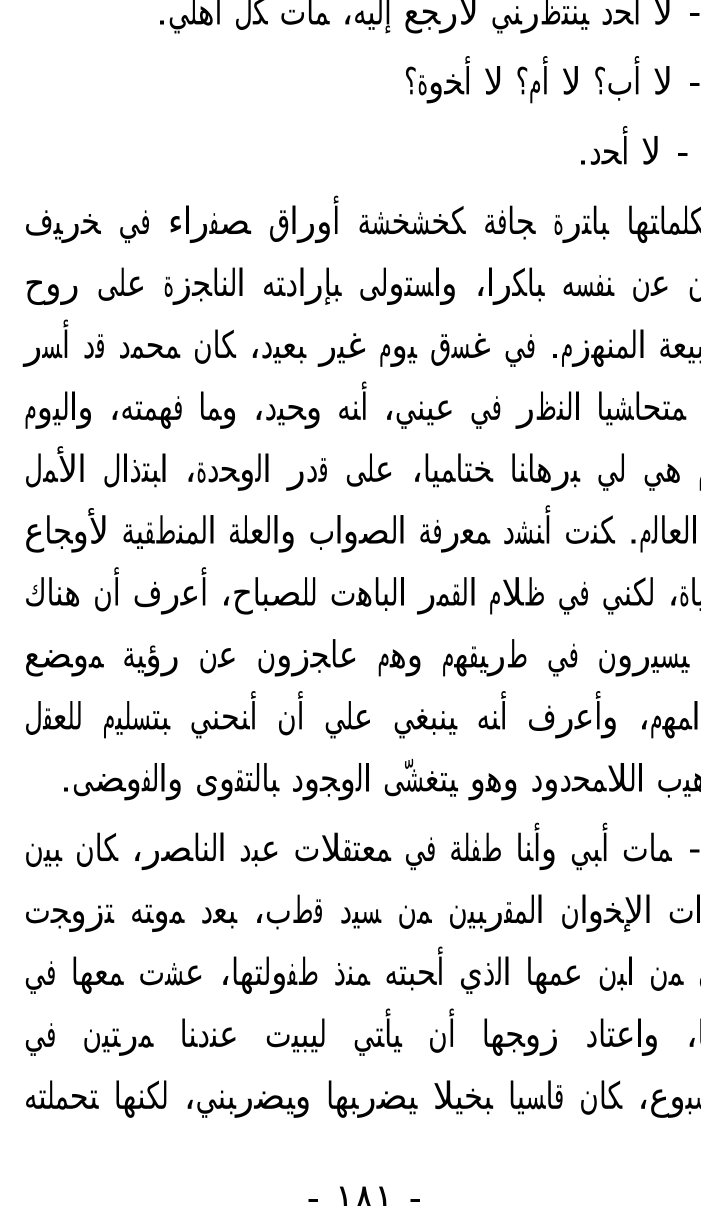
سحبت نفسا عميقا من سيجارتها التي استطال عمود رمادها المنسي. حبسته في صدرها لثوان، لتطلق سراحه دفعة واحدة كثيفًا مسودا وعابقا بروائح مرة:

- قدري أن أعيش على إحسان مريم بدعوى الصداقة، هل تؤمن بخرافة الصداقة بين فتاتين؟ عندما أتخرج من الكلية سأسافر إلى الخليج فورا، أريد أن أكسب كل النقود التي حرمت منها طوال حياتي، ساشتري شقة واسعة وأفرشها، وسيارة يابانية، أحدث موديل أركبها كالأميرات، وأنظر إلى الناس وهو يعبرون الشارع أمامي باحتقار وتشف، سأحاول أن أنسي أصلي وأتصرف كبنات الذوات. لا كبنت عامل غلبان من كفر الدوار.

كان وجهها أبيض مطفئًا . تمددت على مقعدها ساكنة منهكة، لكن متحررة، حبستُ أنفاسي لزمن طويل ثم أطلقتها أخيرا:

- اذهبي يا رحاب، اذهبي، اتركي مريم وارجعي لأهلك، يوما ما ستقابلين الرجل الذي يفتح بيتك وقلبك.

عبثت أصابعها بالولاعة الثمينة وسلسلة مفاتيحها الفضية وهي تهمس بصوت لا حياة فيه:



- لا أحد ينتظرني لأرجع إليه، مات كل أهلي.

- لا أب؟ لا أم؟ لا أخوة؟

- لا أحد.

كلماتها باترة جافة كخشخشة أوراق صفراء في خريف أعلن عن نفسه باكرا، واستولى بإرادته الناجزة على روح الطبيعة المنهزم. في غسق يوم غير بعيد، كان محمد قد أسر لي، متحاشيا النظر في عيني، أنه وحيد، وما فهمته، واليوم تقدم هي لي برهانا ختاميا، على قدر الوحدة، ابتذال الأمل في العالم. كنت أنشد معرفة الصواب والعلة المنطقية لأوجاع الحياة، لكني في ظلام القمر الباهت للصباح، أعرف أن هناك من يسيرون في طريقهم وهم عاجزون عن رؤية موضع لأقدامهم، وأعرف أنه ينبغي علي أن أنحني بتسليم للعقل الرهيب اللامحدود وهو يتغشّى الوجود بالتقوى والفوضى.

- مات أبي وأنا طفلة في معتقلات عبد الناصر، كان بين قيادات الإخوان المقربين من سيد قطب، بعد موته تزوجت أمي من ابن عمها الذي أحبته منذ طفولتها، عشت معها في بيتنا، واعتاد زوجها أن يأتي ليبيت عندنا مرتين في الأسبوع، كان قاسيا بخيلا يضربها ويضربني، لكنها تحملته

بصبر لأن ظل رجل أفضل من لا شيء، إلى أن جاء يوم واختفى نهائيا من حياتنا، لم نعرف إذا كان قد مات أو سافر أو راح في داهية، الغريب أن أمي حزنت عليه كثيرا، وبقيت تنتظره حتى ماتت في المستشفى الميري بسرطان الرحم.

أزاحت خصلة شعر صغيرة أرخت سدولها على جبهتها الشمعية وانتظرت لفترة طويلة قبل أن تسألني بصوت متهكم تداري به ما تجده من صعوبة في الكلام:

- حكاية مؤثرة!

- نعم.

- كأفلام فاتن حمامة التي تحبها أمينة؟

تلفظت بكلماتها الأخيرة بقرف وكأنها تحرضني على إعلان اشمئزازي وإنكاري لروايتها. كانت تنقّب في ضميري عن أية علامة للاحتقار، جاهدة كي أعلن للعالم وفاتها الأخلاقية، وأحرر لها شهادة بها، فتستريح، ومن تحت الخراب، كعنقاء الرماد، ستطل علينا بغرورها الصبياني مادة لسانها للجميع، تحلق في سماوات لن نبلغها، وفوق عوالم لن نبصرها. كانت يائسة مغرورة، كافرة، يزين لها كبرياؤها أنها مجاوزة لكل ما تعارفنا من إيمان. أجبتها بهدوء مغيظ.

- نعم

- نعم. نعم. ليس عندك شيء آخر تقوله غير كلمة نعم؟

- عندي.

- أنت تسخر مني.

قبضت على حقيبتها انتترت غاضبة تنوي الذهاب وقد رمتني بنظرة حاقدة. وقفت في طريقها أسد بجسمي سبيل الهرب أمامها، وما شعرت بنفسي وأنا آخذ كفها الصغير بين كفي أضغطها بإيقاع مضطرب، وأهمس لها من بين أنفاسي المتلاحقة:

- سأبلغه رسالتك ورغبتك في رؤيته وقد هزم أحزانه.

غمغمت إلي بنظرة غائمة في عينها:

- هزم أحزانه!

- سيصدقك يا رحاب، لكن الأهم أن تصدقي أنت.

جمدت في مكانها مبهوتة كمن نهشته الحقيقة. أدركت أني قد أصبت كبرياءها وتظاهرها إصابة مباشرة، كانت أيامي، تعلمني، خطوة وراء أخرى، درس التحرر من نير الرغبة والأمل، لكن قلبي متعطش إلى العزاء. من يبيعني كسرة

سلوان أهبها لدموعها المتحجرة في مآقيها بنصف عمري. هتفتُ أسالها وقد تذكرت شيئا ظل يؤرقني طول الليل:

- هل يحب كمال مريم؟ أقصد هل تعرفين شيئا عن ذلك؟

أفلتت زفرة مخنوقة بصدري، بينما وقفت هي مستندة بيدها إلى الحامل القريب، وقد استعاد وجهها المتعب تعبيره الطفولي المعابث، وأخذت عيناها الجميلتان تتلامعان بشقاوة متهكمة. أجابت بصوت منشده هادئ كما لو أنها غير مهتمة على الإطلاق:

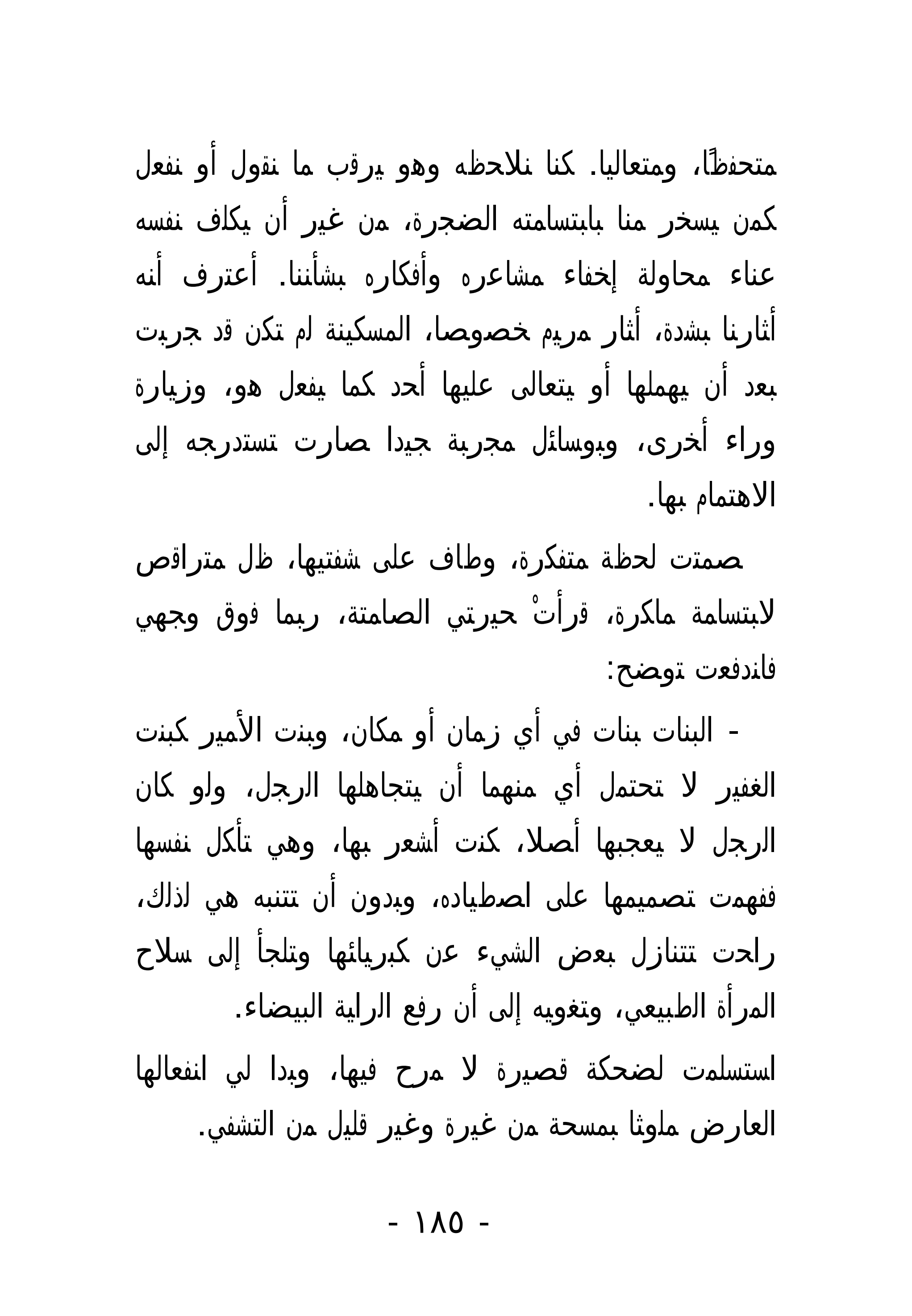
- من لا يحب مريم؟ إنها كريمة جدا .

- ليس هذا ردا على سؤالي يا رحاب، أظنك لا تعرفين كمال وإلا لتحدثتِ عنه بطريقة مختلفة.

- أعرفه، أؤكد لك أني أعرفه، رغم أنه أعقد مخلوق قابلته في حياتي، يبدو لي أحيانا رقيقا جدا، حنونا، بل وعاطفيا إلى أقصى حد، وفي أوقات أخرى أشعر بالرعب منه، وأحس أنه قادر على افتراسي بأسنانه وشاربه.

- يذهب كثيرا عند مريم؟

- كل يوم تقريبا. في البداية عندما قدمه ناجي لنا، لم يكن يأتي إلا على فترات متباعدة ويبقى معظم الوقت ساكنا



متحفظًا، ومتعاليا. كنا نلاحظه وهو يرقب ما نقول أو نفعل كمن يسخر منا بابتسامته الضجرة، من غير أن يكلف نفسه عناء محاولة إخفاء مشاعره وأفكاره بشأننا. أعترف أنه أثارنا بشدة، أثار مريم خصوصا، المسكينة لم تكن قد جربت بعد أن يهملها أو يتعالى عليها أحد كما يفعل هو، وزيارة وراء أخرى، وبوسائل مجربة جيدا صارت تستدرجه إلى الاهتمام بها.

صمتت لحظة متفكرة، وطاف على شفتيها، ظل متراقص لابتسامة ماكرة، قرأتْ حيرتي الصامتة، ربما فوق وجهي فاندفعت توضح:

- البنات بنات في أي زمان أو مكان، وبنت الأمير كبنت الغفير لا تحتمل أي منهما أن يتجاهلها الرجل، ولو كان الرجل لا يعجبها أصلا، كنت أشعر بها، وهي تأكل نفسها ففهمت تصميمها على اصطياده، وبدون أن تتنبه هي لذلك، راحت تتنازل بعض الشيء عن كبريائها وتلجأ إلى سلاح المرأة الطبيعي، وتغويه إلى أن رفع الراية البيضاء.

استسلمت لضحكة قصيرة لا مرح فيها، وبدا لي انفعالها العارض ملوثا بمسحة من غيرة وغير قليل من التشفي.

- تغويه؟

- ليس كما فهمت، هذه إحدى عباطاتكم كرجال، تظنّون أن الإغواء يعني الجنس وحسب، قد يكون جنسيا في نهاية الأمر، لكن البنت الذكية تستطيع أن تنوع أساليبها ليصبح الجسد في آخر السلم لا في أوله، كارت تلوح به فقط وتتمنى في أعماقها ألا تضطرها الظروف للعب به أبدا، أما تفسير حركاتها ولفتاتها وكلماتها فمتروك لخيال الرجل وغروره وشغفه الجسني، وهذا ما تفعله مريم مع أستاذكم بمهارة تُحسد عليها، مرة تظهر له تعاطفها مع الاشتراكية والشيوعية، ومرة أخرى تتعمد إبهاره بالإسهاب في نظريات تفسير الأحلام ومعرفة الطالع، ومرات عديدة بادعاء الاهتمام بالبوذية والتصوف الشرقي.

سكتت فجأة والتفتت تسألني مقدمة الدليل الدامغ على صدق تحليلاتها:

- هل رأيت تمثال بوذا الخشبي في صدر صالة الفيللا؟

أمعنتُ التذكر لتعاودني صورة التمثال الجميل الذي لاح لي في حينه غريبا عن المكان، ومتعارضا في انطفائه الباطني مع تألق أنوار الثريات المنعكسة على المفروشات

الحريرية الثمينة. واصلت بسرعة غير منتظرة إجابتي على أية حال:

- عادت به من إحدى سفرياتها في نفس الفترة التي بدأت تنشغل فيها باستمالته إليها، همست لي بنشوة مؤكدة أنه سيعجبه، وما صدقت أنا أنها مهتمة حقا بما يعجبه. المدهش أن مناورتها هذه حققت نجاحا مذهلا، وفي زيارته التالية مباشرة أبدى ملاحظة واهتماما واضحا بالتمثال، مستفسرا عن معناه بالنسبة لها، وكتمتُ ضحكي بصعوبة وأنا أسمعها تندفع في حديث طويل رزين عن ميولها الكامنة للتصوف وعن ألم الاشتهاء وعن النيرفانا، وعن كل ما لا أتذكر من هذه الأفكار البلهاء.

استسلمت لضحكة حاقدة، قبل أن تتابع درسها إلى تلميذها الخائب:

- قلت لك، أنتم الرجال أغبياء، ما أسهل أن نخدعكم إذا أردنا ذلك

- تعتقدين؟

- طبعا لكن من ناحية أخرى، ولكي أكون صادقة معك، يظل الرجل أكبر لغز يشغل المرأة، يحيرها ويجذبها

وتتشاغل عنه وتعجز عن الهرب منه، ولو إن بعضهن يستطعن.

- وأنتِ تستطيعين؟

- أستطيع.

لم أعر يقينها المتحدي أذنا مصدقة، وما وجدت بقلبي ما يلزم من القوة لملاحقتها على درب الاعتراف. وبمهارة أنثوية أعجبتني نجحت في الاستدارة بحوارنا راجعة به إلى نقطة الاستفهام الأولى:

- أظن أنه يحبها، إذا كان قادرا على حب أي أحد، هل ترى.. أصابتني عدوى تفلسفكم وتحليلاتكم النفسية العميقة؟ الحقيقة أني سأكون كاذبة إذا ادعيت فهمي لأستاذكم مهما عرفته أو تعاملت معه، لكن قلبي يحدثني بهذا، ولقد قلته لمريم على أية حال، بكل الحذر والتحوط اللازم طبعا.

- وماذا كان ردها؟

- ضحكت من مخاوفي وسكتت. إنها عميقة كبئر في الصحراء، ومن المحال التكهن بما تفكر أو تشعر به؟. قلت لناجي هذا عنها فلم يصدقني، يظنها مجرد واحدة من أثرياء النفط، مغرورة وتافهة.

- أنت ذكية يا رحاب، كلامك عن كمال صحيح، لكنه ناقص، هو يريد أن يحب، وفي نفس الوقت يريد ألا يريد، هل تفهمين ما أعني؟ إنه لا يكذب على نفسه لا في الأولى ولا في الثانية، هنا وهناك يكون الصدق دافعه، أو فلنقل على الأقل، إن هذا ما يعتقده بإخلاص.

- أظنني أفهم ما تقصد، عندما يجلس ليشرب البيرة بشراهة، وهو يتحدث عن بوذا والحقائق الأربع النبيلة، ماذا تكون هذه الحقائق بالمناسبة؟ أو عن السادات والثورة الشعبية المجهضة، أو عن بيكاسو وفان جوخ، دون أن يسمح لأحد من الموجودين بالمشاركة في الكلام أو التمرد على دور المستمع الدائم، كنت أحس باقتناعه بكل ما ينطق به، مهما كان متناقضا مضطربا أو غامضا .

لمعت عيناها ببريق دهشة مفاجئ وهي تستدرك بافتنان وعجب:

- تعرف إنه يعجبني أحيانًا .

- مريم معذورة إذن عندما تضعه في دماغها.

- بالتأكيد، هي معذورة حتى لو لم أوافقها. قلب المرأة جراب مليء بالألغاز هو أيضا.

تمهلتُ دقيقة طويلة قبل أن أغامر بقذف سؤالي بلا مواربة:

- هل تعرفين إذا كان يبحث عن عقد عمل في بلدها عن طريقها؟

كانت معاناة الليلة الماضية والصباح المثير قد استنفدتنا، تسمرنا في مكانينا تعبين، كفرسين في نهاية الشوط، لكن أفكارنا كانت تناضل، ضد إرادتنا، كالنمل، وتتصارع باحثة عن يقين ما. زفرت بغيظ حقيقي:

- ياللغباء! وهل تحتاج هذه المسألة إلى كل تلك المجهودات والمناورات منه أو منها؟ سامحني إذا قلت لك أن هذا أغبى تصور سمعته عن سر انجذابهما لبعضهما، أنا متأكدة أنه لم يطلب منها شيئا من هذا أبدا، ومتأكدة أكثر أنها ستطرده من حياتها فورا لو استشعرت أنه يفكر، مجرد تفكير، في استغلال علاقتها به لتحقيق هذا الهدف التافه.

- كنت أظنه يخطط للمستقبل...

لم أقدر على استكمال جملتي تحت وطأة تحديقها المربك في عيني. كانت تتأملني باستغراب كما لو أنها تتابع مخلوقا عجيبا هبط إلى عالمها المعقول على طبق طائر من الكلمات

الطنانة، أسلمتْ قلبها، أخيرا ، لضحكة ممتلئة متهكمة وممرورة وهي تقول:

- يخطط للمستقبل.. طريقة تفكيرك غريبة، لكن الأغرب منها كلماتك الضخمة، طبعا أنت أيضا شاعر، وكشاعرة زميلة سأحاول أن أطلعك على خططه لإعلان الثورة العربية الشعبية من فيللا مريم، وعلى كل القوى التقدمية أن تجهز للتحرك.

ضحكتها الساخرة تخض دمي، تخثره وتنزع به من عروقي. بقينا صامتين، عارفين بعد كل ما يفكر به الآخر، لتطفو معرفتنا فوق رغوة وقفتنا الأخيرة، وقفتنا الأولى، كعشب بحري رخيص تلهو به مشيئة الموج. مالت إلي هامسة بصوت مطفأ معتذر:

- هل تعرفني يوما على صديقك الشاعر الذي حكيت لنا عنه؟

طأطأت رأسي موافقا. ثمة شيء في التقائهما، فكرت، يستغلق على فهمي ويثير بروحي مشاعر حزن مبهمة. وقفت عديم الحيلة على نحو فظيع أمام طلبها الذي بدا لي، بالرغم من كل شيء أكثر الأمور معقولية في هذا الصباح. ابتسمت

ابتسامة حزينة خرساء، كطفل مذنب يعرف أن لا حق له في طلب السماح، وبدون كلمة إضافية راحت تخلع بلوفر ناجي عن جسدها الهزيل كاشفة عن بلوزتها الشتوية الثقيلة المقفلة عند النحر والرسغين. قالت بحسم:

- ليعرف أني كنت هنا.

أطرقت صامتا وهي تغلق باب الشقة من ورائها، أتابع رنين كعبها العالي يكاد يثقب أذني بخبطاته الخفيفة على السلم الرخامي القديم. تخوفت قليلا من عيون الجارات تتابعنها من خلف أبواب الشقق الصامتة. أبصرت قلبها يرتجف في قلب الليل الذي يملأ قلبي. ومن مكان ما عند أفق البحر، كانت شمس لا تزال تسطع في سماء زرقاء صافية تغني نشيد الحياة المقدسة عميقة الأسرار، وراح ناجي يغمس فرشاته الدبقة في زيت البحر يلون وجهها الميت على كل غيمة شاردة تفتتها الريح.

البحر هائج الليلة على غير انتظار. عند قمة الجرف القاسي أجلس وحيدا مبتسما لهيجانه أرقب طلوع الشمس في مفتتح رحلتها اليومية، وأحصي أنفاس الموج وهو يهضب بدخانه المحلي الأبيض. من بعيد تلمع فوانيس مراكب الصيد

الصغيرة كبقع من نور، تنزلق بخفة فوق سطح المياه السوداء، ثم تذبل ضائعة عند الأفق مع خيط الضوء المتسلل، وانفجارات موج يكشر عن أنيابه متباهيا بقدرته. أعرف أني مائت هنا، دون أن أخاف ورائي أثرا ما، سيتجرجر جسدي إلى الهاوية، مرتطما بهذه الصخرة وتلك، مسلما وجوده لإرادتهم التي تشده لأسفل حتى يبتلعه وحش الزبد المنتظر بلهفة واثقة. كل ليلة أخرج فارغا لملاقاة مصيري. أتحدى ظني ويقيني وأرتقي مصاطب الجبل الجهم واحدة بعد أخرى، قاصدا قمتي، تستفزني وتغويني، والريح الرطبة تكنس غبار الصحراء والذكريات، وما يتبقى في القلب من آمال.

في نفس اللحظة التي تُرجع نداء الريح الأخير بروحي، يعاودني وجهه الصغير، جرحي الإنساني الباقي. يضرب مد الشفقة قاعدة جدار العدم، ويعوي ذئب رعديد في صدري كاشفا عن وجه إنسان. ثلاث ليالٍ طويلة من الخوف والسهر، ثلاث ليال يكتوي فيها جسده الهزيل بالحمى ويشتعل دماغه بنار خفية أدفعها عنه بكمادات الماء البارد ومحاليل

المضادات الحيوية التي أمر بها طبيب المستشفى الجديد ذو النظرة المرتبكة من تحت عدسات نظارته المذهبة.

الشفقة! دليلي الأخير على الحياة، رهاني على إمكانية الخلاص، أنا وأنت واحد، واحدنا يتألم في بحران الحمى وهذياناتها، القمة تبدو لنا قريبة، يستغرق بلوغها أكثر مما تحلم، شفقتي قمتي، مثلما العدم قمتك، أي أحجية هذا القلب؟

قبل الضحى تأتينا ميرفت جارتنا امرأة مدير البريد، تغير له الكمادات وتدعوني للذهاب إلى مدرستي متعهدة برعايته أفضل مما سأفعل. أترنح خارجا لتقديم إجازة لثلاثة أيام إضافية حتى تنكسر الحمى تماما، وفي طريق العودة أمر على السوق لشراء شوربة الخضار، واللحم البتلو. أطرق باب الشاليه بخفة لينفرج الباب عن وجهها الغماز وجسمها الريان. تبتسم لي بعينين متواطئتين واضعة أصبعها السبابة متصالبة على شفتيها اللحيمتين. همست:

- نام من ربع ساعة.

أتسلل صامتا إلى المطبخ الضيق وأشمر أكمامي لغسل الخضراوات وتقشير البصل. رائحة جسدها من خلفي تهاجم

مسامي كلها، وأحس بلسع أنفاسها القريبة تكاد تكوي قفاي. زفرت بصوت تحشرجه الرغبة:

- خل عنك.

ألتفت إليها فتقبض على يدي تضغطهما لصدرها. عيناها الشاخصتان نحوي تنضحان بعواطف شتى. أرق لوجهها الشاحب وشفتيها المرتعشتين، ولجسمها المرتجف كقطعة من الفلين الطافي على صفحة بحر مائج. تنبعث ضوضاء بالخارج فجأة فأقول لها:

- أخرت على بيتك.

- بيت فارغ، وخالد طفلي.

تندفع خطوة أخرى حتى تلتصق بي، منقّبة في وجهي عن صدى ما لكلماتها. أشعر بدبيب الرعب يسري في عروقي ويلهب دمي. امرأة ثانية تحاصرني بلهاثها، برائحة عرقها، وبفراغ رعشة الأمومة في حياتها. أبتعث رحاب التي قذفت به من رحم عمائها إلى لجة عماء الوجود، وغابت. أبتعث مريم التي نازعتني فيه، ساومتني عليه، قبل أن أفلت به من رحمة عنايتها الملكية. وأبتعث محمد وهو يحذرني:

- لا تتخل عنه، حتى لي.

استمد العزم من شجاعة يأسهم طائرا فوق الطرق المغلقة كلها. كل شيء عشته يهبني الحرية التي لن تعرفها ميرفت. أتطلع إليها متخذا مظهرا غريبا كالمتألم، أو المجبول على القسوة، وأشهر في وجهها سلاحي الماضي عازما على سحقها:

- زوجك يشك بنا.

تلملم خيبة أملها ولا تقترب بعد. أعبد لروحي المرتجفة سبل الهرب التي تسدها علي بنهديها المنتفخين، بفخذيها الوطيدتين، وبنظرتها المغتلمة المحرضة. ستروح بلا رجعة، أو ستسر لي رائحة دفقها الشهواني المدوخة:

- أنت زوجي وسيدي وحياتي كلها.

قوارب الصيد تبلغ مرساها بعد أن أوشكت عاصفة الليل على نثرها حطاما، عيوني المحمرة من سهر، ترقب عيونهم اللامعة بفرحة الإياب، وغنيمة الصيد الذي قسم ا لهم به. على رمل الخليج الناعم ترقد أنثى نمر الرمال الضخمة بجلدها الناعم اللازج وأنيابها القاطعة كالخطاطيف. رأيت عينيها الضيقتين تومضان كالزجاج المغسول، وتتسمران بجمود على خطى آسريها المتحلقين من حولها، غير آمنين

لانتصارهم على الوحش الرائع الذي دوخهم وهو يجوب البحار لأربعمائة مليون سنة خلت. أرنو إلى فكها المفتوح على الموت الغادر متحسسا أنياب ميرفت المغروسة في رقبة حلمي. أعود ألي، بينما يجمجم صغيري في ليل حماه الأحمر يسألني كوب ماء.

أول أمس كنت هنا أيضا.

بالأمس ما كان سواي.

أما اليوم فلم أكن أبدا .

(١٦)

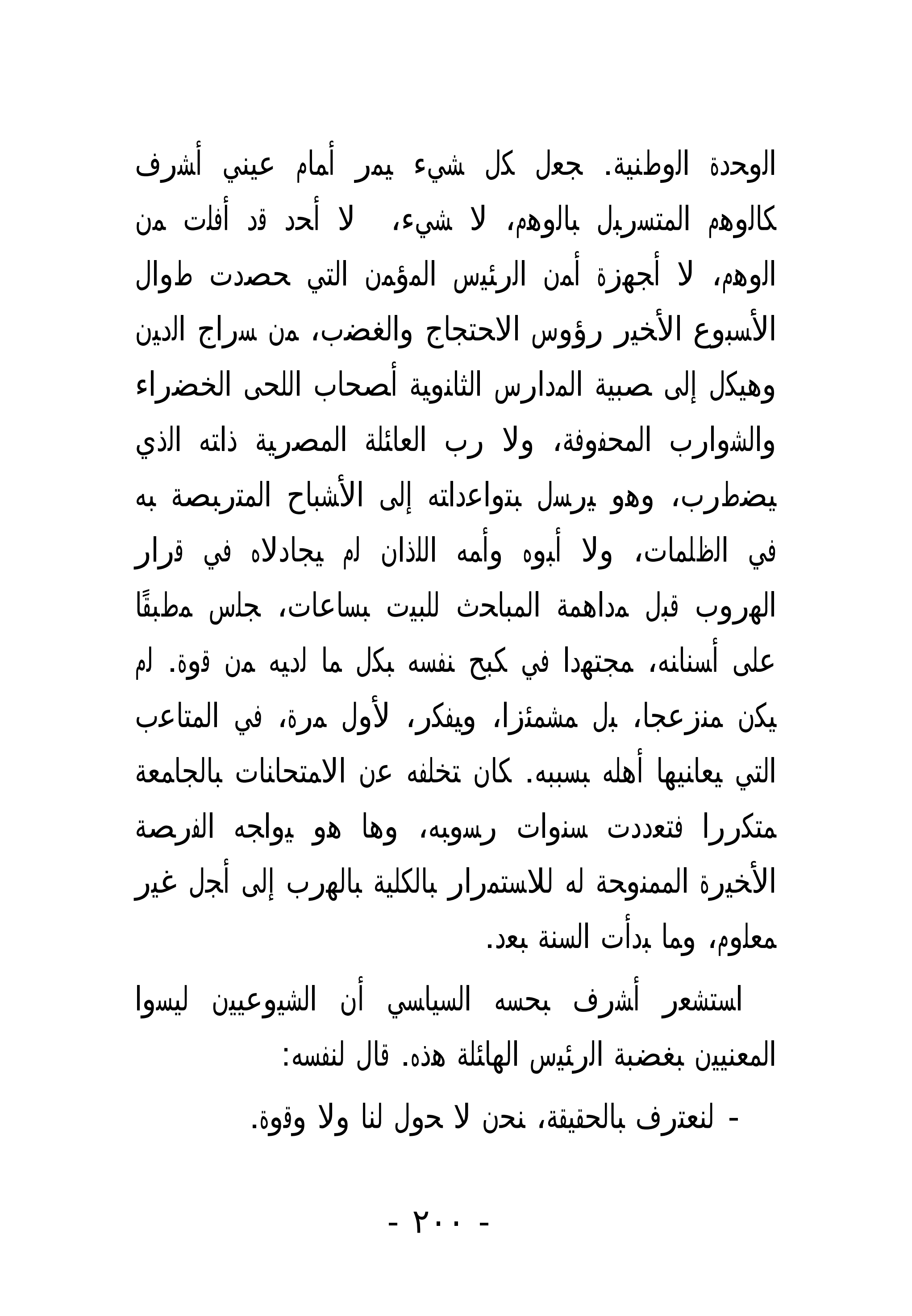
للهرب آن، للهزيمة زمن.

ولّت مسرعة نهارات العمل وسط الناس، تحت شمس الثورة المنتظرة التي تدفئ الأشواق المعتلجة في النفوس الشابة، وحلّت تقاويم التخفي والتساؤل والنقد الذاتي، وبين محطة وأخرى، على طريق المراجعة، يجلس أشرف يسترجع في خياله بعضا مما كان، وبعضا مما لم يكون، كانت الساحات ترتج بالجماهير المحتشدة من العمال والطلبة تثير ضجة عنيفة مكتومة كزلزال بعيد تحت الأرض، وكان النظام يتهالك عاجزا عن حماية نفسه من زحف اللحظة الثورية، منتظرا رصاصة الرحمة تصمي قلبه هنا والآن، وكان الرفاق يهبون حياتهم وموتهم لمجد الشعار، بلا سؤال.

هل كان؟

بين ليلة وضحاها تلاشت فراشات الأحلام البنفسجية مخلفة امتدادا قرمزيا داكنًا، وصاحت الديكة مؤذنة رحيل الضوء المخادع قصير العمر. وتحت سفعات ريح الجنوب الشرقي، بات العالم ينكشف متراجعا منحلاً وطافيا كفأر ميت على وجه الغمر، الحزب زال من الوجود كأن لم يكن، والرفاق من شغيلة الغزل والنسج بالمحلة، وعمال النقل العام، وطلبة الجامعة ذوي النظارات الطبية والشعور التي يسهون عن تسريحها، امتدت يد أمن الدولة لتقطفهم بهدوء، كثمرة آن قطافها تكاد تقصف غصنها الضامر، أما سرية الحزب فقد أفلحت في الحفاظ عليه من الالتحام بقواعده الشعبية المستهدفة حامية الطليعة الثورية، ووقود حرب الشعب الطبقية! هل تفسر الخيانة الفشل؟ وما الذي يقهر الناس على خيانة أنفسهم وأحلامهم؟ الخوف، الطمع، اليأس، أو دعاوى العقل؟ لعله ذلك كله، لعله الضجر.

قعد أشرف في مكمنه ساكنًا ضجرا، كارها أكثر من أي وقت مضى، أن يتحرك، وعلي شاشة التليفزيون وقف السادات في الخامس من سبتمبر يعلق قراراته الثورية لحماية



الوحدة الوطنية. جعل كل شيء يمر أمام عيني أشرف كالوهم المتسربل بالوهم، لا شيء، لا أحد قد أفلت من الوهم، لا أجهزة أمن الرئيس المؤمن التي حصدت طوال الأسبوع الأخير رؤوس الاحتجاج والغضب، من سراج الدين وهيكل إلى صبية المدارس الثانوية أصحاب اللحى الخضراء والشوارب المحفوفة، ولا رب العائلة المصرية ذاته الذي يضطرب، وهو يرسل بتواعداته إلى الأشباح المتربصة به في الظلمات، ولا أبوه وأمه اللذان لم يجادلاه في قرار الهروب قبل مداهمة المباحث للبيت بساعات، جلس مطبقًا على أسنانه، مجتهدا في كبح نفسه بكل ما لديه من قوة. لم يكن منزعجا، بل مشمئزا، ويفكر، لأول مرة، في المتاعب التي يعانيها أهله بسببه. كان تخلفه عن الامتحانات بالجامعة متكررا فتعددت سنوات رسوبه، وها هو يواجه الفرصة الأخيرة الممنوحة له للاستمرار بالكلية بالهرب إلى أجل غير معلوم، وما بدأت السنة بعد.

استشعر أشرف بحسه السياسي أن الشيوعيين ليسوا المعنيين بغضبة الرئيس الهائلة هذه. قال لنفسه:

- لنعترف بالحقيقة، نحن لا حول لنا ولا وقوة.

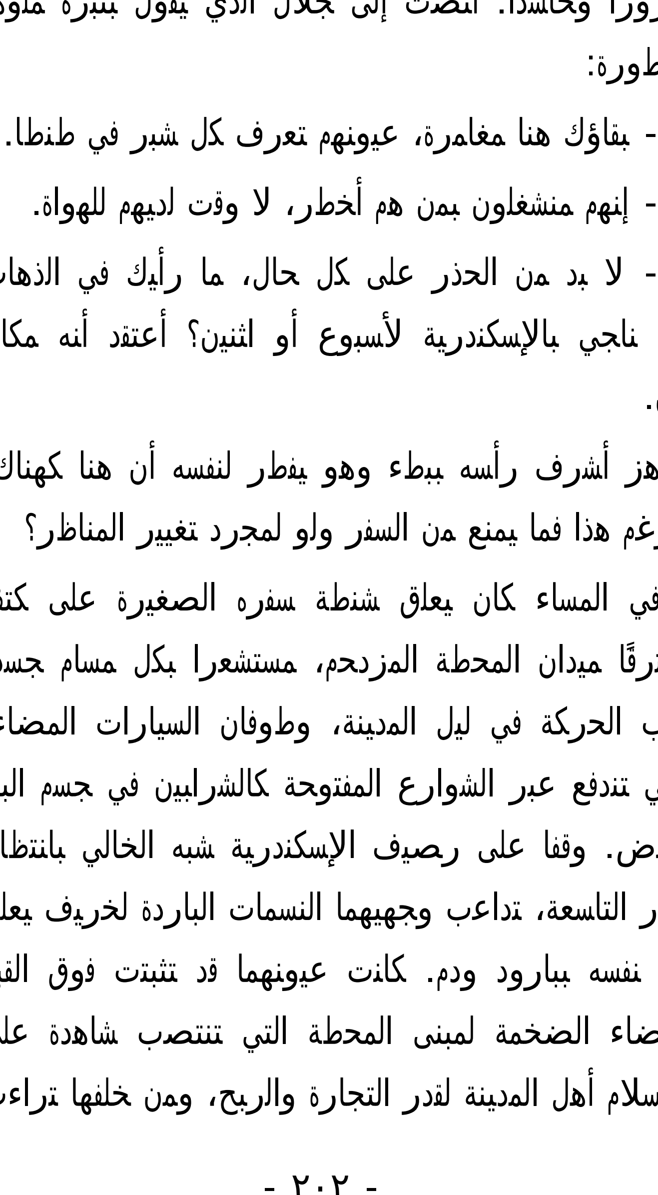
أدرك أيضا أن مسرح الظل لم يسدل أستاره بعد، وأن الحركة الختامية التي طال شوق النظارة لحدوثها أمست قريبة قريبة، وعندما سقط البطل من فوق منصة عزته مضرجا بدمه، لم يجد في قلبه ميلاً للراحة أو الاطمئنان. همس في أذن جلال:

- اليوم تُفتتح الحركة الجديدة، المشاهد التالية كلها محجوزة للدم.

سرح ببصره بعيدا عن عيني صديقه المشفقتين وهو يغمغم كأنما لنفسه:

- يحملون البنادق ويضربون في عز النهار، ولا تهتز لهم يد.

كان يفكر بجدية مهلكة في صرامة الحياة، في معنى الإيمان، وفي دور المثقف العضوي، في إنتاج هذا المعنى، واجتراح المستقبل الذي تتطلع إليه الجماهير. رأى نفسه كحفرية من حفريات تاريخ الكلام، بينما يمور العالم بغضب النار والدم. إحساس معذب بالذنب والتفاهة، ورغبة لجوج في تعلم درس طلاب الموت باقتناع وثبات. كان دائخًا جدا،



ممرورا وحاسدا. أنصت إلى جلال الذي يقول بنبرة ملؤها الخطورة:

- بقاؤك هنا مغامرة، عيونهم تعرف كل شبر في طنطا.

- إنهم منشغلون بمن هم أخطر، لا وقت لديهم للهواة.

- لا بد من الحذر على كل حال، ما رأيك في الذهاب عند ناجي بالإسكندرية لأسبوع أو اثنين؟ أعتقد أنه مكان آمن.

هز أشرف رأسه ببطء وهو يفطر لنفسه أن هنا كهناك، وبرغم هذا فما يمنع من السفر ولو لمجرد تغيير المناظر؟

في المساء كان يعلق شنطة سفره الصغيرة على كتفه مخترقًا ميدان المحطة المزدحم، مستشعرا بكل مسام جسده دبيب الحركة في ليل المدينة، وطوفان السيارات المضاءة وهي تندفع عبر الشوارع المفتوحة كالشرايين في جسم البلد النابض. وقفا على رصيف الإسكندرية شبه الخالي بانتظار قطار التاسعة، تداعب وجهيهما النسمات الباردة لخريف يعلن عن نفسه ببارود ودم. كانت عيونهما قد تثبتت فوق القبة البيضاء الضخمة لمبنى المحطة التي تنتصب شاهدة على استسلام أهل المدينة لقدر التجارة والربح، ومن خلفها تراءت

لهما مآذن المقام الأحمدي رشيقة متعالية وماضية، تشق بطن السماء ولا تقدر على إلهام أحد اليقين. همس جلال بغرابة:

- كيف احتملناها كل هذا العمر؟

كان يفكر في مدينته التي فر عائدا إليها قبل سنوات كما يفكر أشرف بالضبط، بدهشة وعدم تصديق. وبرغم ارتباطهما به كانا يعرفان كيف ولماذا يمقتانها. نظر أشرف إلى ساعته متبرما وهو يعتذر لصديقه:

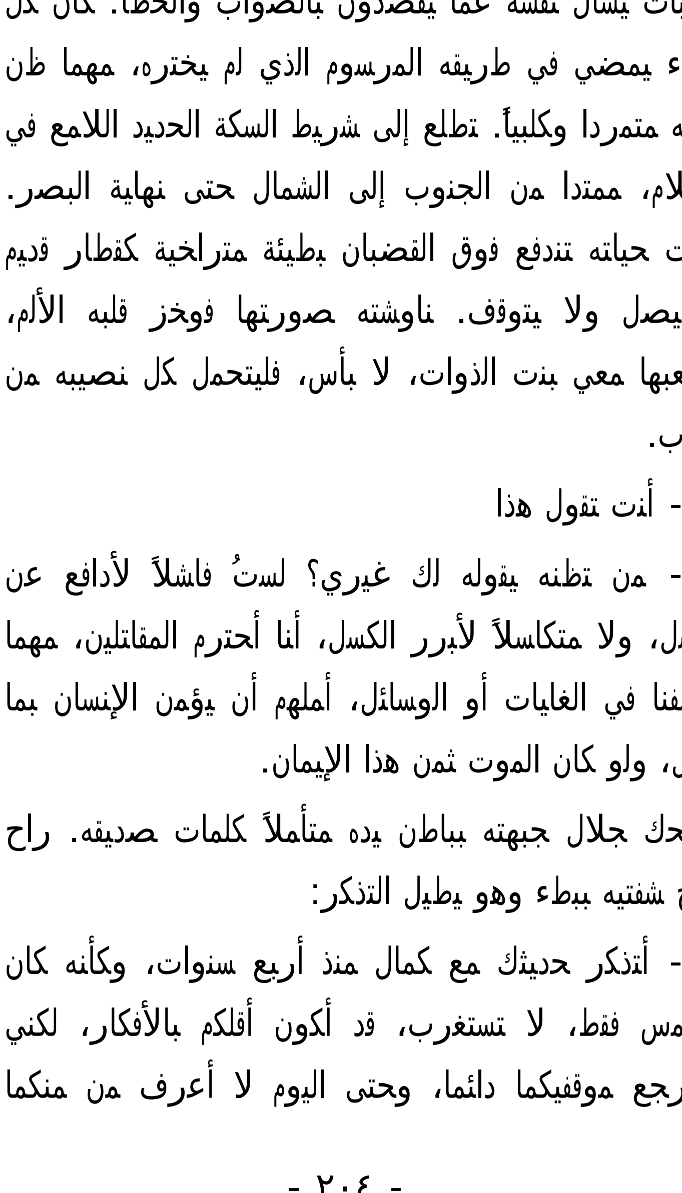
- شغلتك معي.

- شغلتني عن ماذا؟

هز جلال كتفيه في غير اهتمام. كان الليل والبرد وشبح المطاردين لهما قد بلّدت أفكاره، وبدأ يغوص أعمق فأعمق في حال من الكآبة المزعجة. قال أشرف بنبرة ممتلئة قوية:

- لا بد أن تحافظ على تفوقك يا جلال لتصبح معيدا بالجامعة، هذا هام جدا.

شعر جلال بخجل يدرك بواعثه جيدا، هل هذا هو أفضل ما يستطيعه في الحياة بينما يضحي الآخرون بكل شيء على مذبح الاعتقاد والشرف؟ استغرب الأهمية التي يعلّقها صديقه على تعيينه بالجامعة. كان فاقدا لكل إحساس بالهدف. وكثيرا



ما بات يسأل نفسه عما يقصدون بالصواب والخطأ. كان كل شيء يمضي في طريقه المرسوم الذي لم يختره، مهما ظن نفسه متمردا وكلبياً. تطلع إلى شريط السكة الحديد اللامع في الظلام، ممتدا من الجنوب إلى الشمال حتى نهاية البصر. كانت حياته تندفع فوق القضبان بطيئة متراخية كقطار قديم لا يصل ولا يتوقف. ناوشته صورتها فوخز قلبه الألم، سأتعبها معي بنت الذوات، لا بأس، فليتحمل كل نصيبه من التعب.

- أنت تقول هذا

- من تظنه يقوله لك غيري؟ لستُ فاشلاً لأدافع عن الفشل، ولا متكاسلاً لأبرر الكسل، أنا أحترم المقاتلين، مهما اختلفنا في الغايات أو الوسائل، أملهم أن يؤمن الإنسان بما يفعل، ولو كان الموت ثمن هذا الإيمان.

حك جلال جبهته بباطن يده متأملاً كلمات صديقه. راح يفتح شفتيه ببطء وهو يطيل التذكر:

- أتذكر حديثك مع كمال منذ أربع سنوات، وكأنه كان بالأمس فقط، لا تستغرب، قد أكون أقلكم بالأفكار، لكني أسترجع موقفيكما دائما، وحتى اليوم لا أعرف من منكما

على حق، أنت اخترت العمل والإيمان لتنجو، وهو كفر بالعمل والإيمان لينجو، أين الحقيقة إذن؟ ولماذا أنشغل أنا بكل هذه الفوازير؟

- كل إنسان يختار لنفسه الحقيقة التي يريدها.

- التي يريدها؟

- عندما يختار المرء لنفسه فإنه يختار للبشرية كلها معه مؤمنًا بصواب وأخلاقية اختياره، ومستشعرا مسئوليته تجاه العالم..

وبالإيمان يقع في حب الحياة والناس، ويكتسب قوة وثقة لا حد لهما، هكذا كان جيفارا في حياته وموته.

أطلت من عينيه نظرة حالمة. كانت كلماته التي بدأت رزينة متطاولة تجنح، رغما عنه، شيئا فشيئًا نحو التورط في مستنقع الانفعال والحماسة. ومضت عيناه لحظة وهو يضيف بإعجاب وحسد:

- هكذا كان الإسلامبولي أيضا.

راقب جلال جيشان الألق الناري من حدقتيه المتسعتين معجبا مشدوها. أحس بقلب صديقه يمور كقاع بحر

مضطرب، وتساءل صامتا عن القوة التي تعربد بقلبه. قال مجادلاً:

- تتكلم عن مسئولية الفرد تجاه العالم وأنت تتسال فارا مطاردا من كلاب الأرض، هل لهذا معنى؟ وأين هم هؤلاء الناس الذين يستحقون أن تضحي براحتك ومستقبلك من أجلهم؟ انظر إليهم من حولكم، أراهنك أنهم سيسارعون بتسليمك للمباحث في هذه اللحظة بالذات لو عرفوا من تكون، ودون أن يطالبه أحد بذلك، أنت تتشعلق بالأوهام يا صديقي، ولا فرق بينك وبين ناجي في هذا.

حدق فيه أشرف بنظرة حائرة متألمة. كان يريد التصديق، كل التصديق، دائما. واصل جلال:

- أنت تتعلق بالطبقة العاملة، وهو يتشعلق بالمسيح، فلا الطبقة العاملة تسمع لك، ولا المسيح ينظر إليه، ما ضرورة تعبكما إذن؟ هل تقول لي؟

أدار أشرف وجهه داخلاً في الظلمات التي راحت تراكمها أسئلة رفيقة، أحس بداخله يتأجج، هل يمضي العمر كله مرتحلاً من وهم إلى وهم؟ عادت إلى ذاكرته توسلات سلوى بصوتها المرتعش الرقيق، وخال الحسن على شفتها العليا:

- لن أنتظر إلي ما لا نهاية، لا بد من وضع حد لهذا لنعيش كباقي البشر.

كان قد أجابها بخشونة حتى لمعت عيناها بالدموع. قال متباهيا وحزينًا:

- أنا ما أنا عليه، من تحبني عليها أن تقبلني كما أنا.

- أنت لا تحبني، بجد، كيف لم أنتبه إلى أنانيتك وغرورك قبل اليوم؟

سحبت شنطة يدها الغالية وغادرت الكازينو مسرعة دون أن تلقي عليه نظرة وداع. خرج من" البوريفاج " في ذلك الأصيل، وحيدا، ينقل خطواته السريعة على طول شارع البحر مفكرا أنها كانت حبه الوحيد، وها هو يضيعها من بين يديه، ولدهشته البالغة، أحس بطائر غريب يرقص مبتهجا في صدره.

أجاب ببطء وهو يداري نظرته عن صديقه المتحفز:

- تعرف ردي الذي ترفضه عدميتك.

حملق جلال في الفراغ بشكل جاد. كانت أنوار المحطة القليلة تنعكس على وجه صاحبه مراكمة الظلال والعتمات

فوق المنخفضات، وتحت نتوءات المحجرين والأنف والذقن والمبذورة بالنمش الوفير. هز رأسه بتسليم هادئ:

- معك حق أنا عدمي وابن كلب.

أنا مصباح الجرار القوي، ظلام السكة عن بعد، قبل أن تخدش صفارته العالية الصمت معلنا عن قدومه في هدير مكتوم، وقعقعة الحديد على الحديد، وصلصلة الفرامل المكبوحة، دقيقة واحدة ثم يجمد أمام الرصيف يستقبل ما تبقى من مسافري الليل، بهمهماتهم غير المفهومة، وخطواتهم العجلى. تَعانق الصديقان بمودة، وقفز أشرف إلى جوف العربة المتهالكة ليغيب فورا في ظلامها. تسمر جلال في وقفته مشيعا القطار بنظرة شاردة وهو يزحف فوق الشريط الحديدي ممعنًا في الليل المفتوح، لحظات مثقلة بالحيرة والصمت قبل أن يميز صوت كمال في أحراش روحه الجهمة. كان يبتسم متعاطفًا أو ساخرا:

- لستَ وحدك.

(١٧)

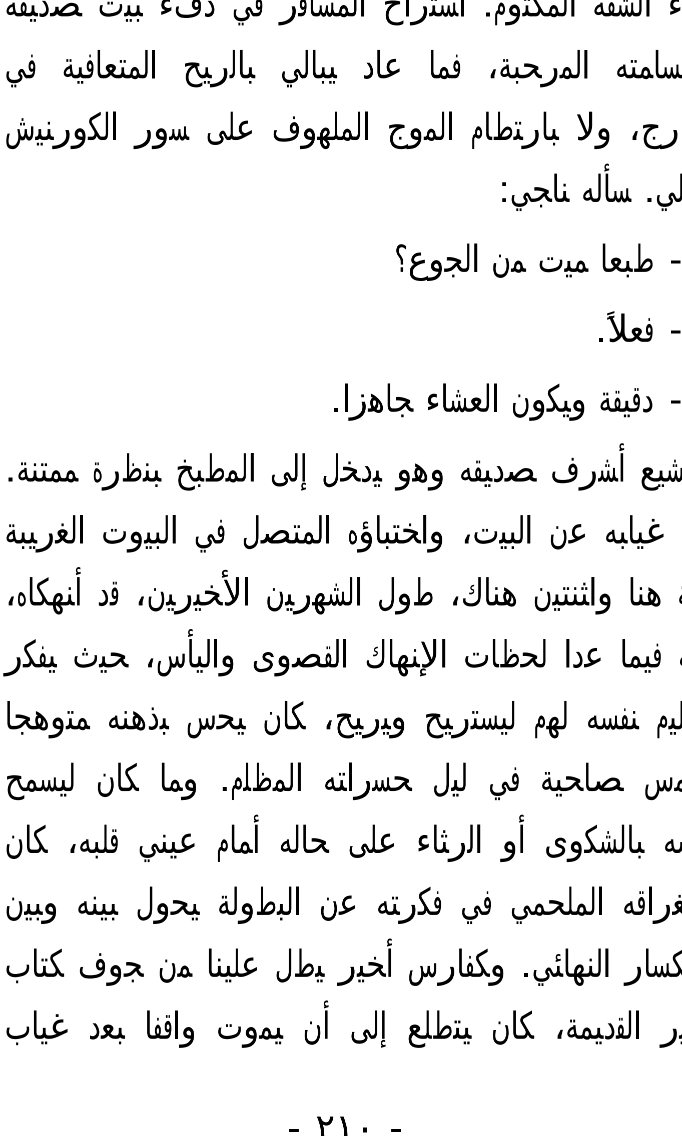
حدق ناجي في وجه زائره غير المنتظر من خلف الشراعة المواربة، قبل أن يهتف باندهاش وفرح:

- أخيرا!

فتح الباب بسرعة وراح يعانق صديقه ويربت على ظهره بحماسة:

- حمدا على السلامة.

ولج أشرف من فرجة الباب إلى الصالة الصغيرة، ثم استراح على الكنبة القريبة من دون أن ينبس ببنت شفة. كان يشعر بجسده ثقيلاً، وظل يرقب عقارب الساعة في يده وهي تقفز متباطئة باتجاه منتصف الليل، متمنيا لو أنه في بيته الآن يرشف كوب الشاي الساخن الذي ستقدمه له أمه من غير أن يطلبه، ثوان طويلة من الاستغراب، حتى اعتادت أنفاسه،



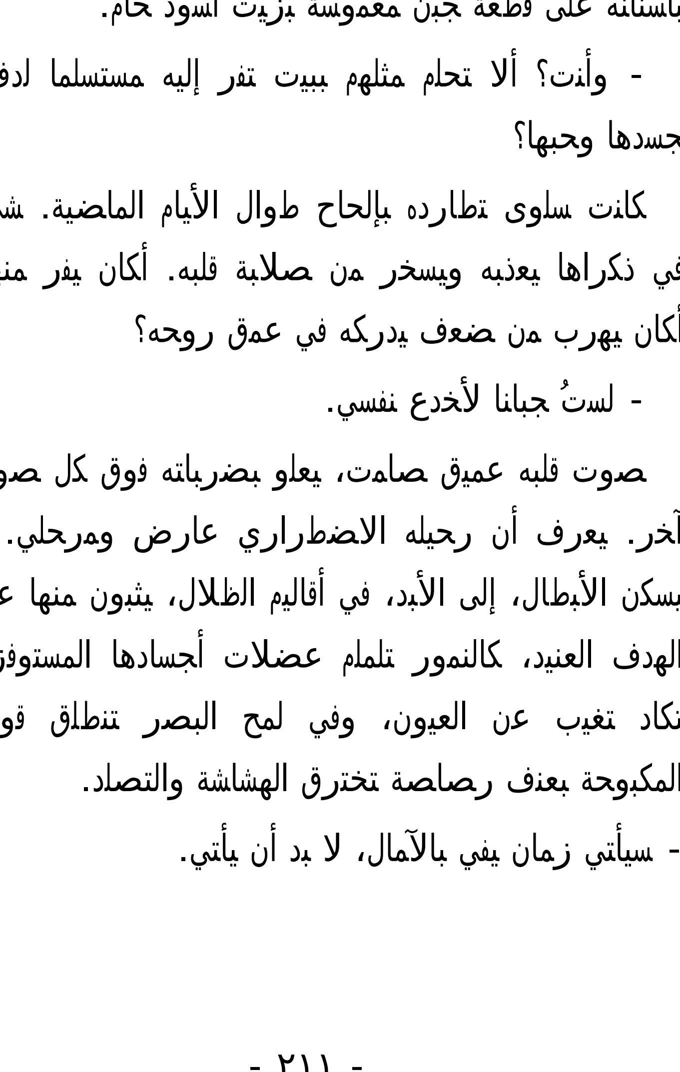
رويدا على رائحة الألوان والأصباغ والزيوت الطيارة في هواء الشقة المكتوم. استراح المسافر في دفء بيت صديقه وابتسامته المرحبة، فما عاد يبالي بالريح المتعافية في الخارج، ولا بارتطام الموج الملهوف على سور الكورنيش العالي. سأله ناجي:

- طبعا ميت من الجوع؟

- فعلاً.

- دقيقة ويكون العشاء جاهزا.

شيع أشرف صديقه وهو يدخل إلى المطبخ بنظرة ممتنة. كان غيابه عن البيت، واختباؤه المتصل في البيوت الغريبة لليلة هنا واثنتين هناك، طول الشهرين الأخيرين، قد أنهكاه، لكنه فيما عدا لحظات الإنهاك القصوى واليأس، حيث يفكر بتسليم نفسه لهم ليستريح ويريح، كان يحس بذهنه متوهجا كشمس صاحية في ليل حسراته المظلم. وما كان ليسمح لنفسه بالشكوى أو الرثاء على حاله أمام عيني قلبه، كان استغراقه الملحمي في فكرته عن البطولة يحول بينه وبين الانكسار النهائي. وكفارس أخير يطل علينا من جوف كتاب للسير القديمة، كان يتطلع إلى أن يموت واقفا بعد غياب



الرفاق جميعهم، من مات، ومن فُقد، ومن ارتضى الانزواء في جحر صغير من حجرتين وريسبشن، كفأر، يقبض بأسنانه على قطعة جبن مغموسة بزيت أسود خام.

- وأنت؟ ألا تحلم مثلهم ببيت تفر إليه مستسلما لدفء جسدها وحبها؟

كانت سلوى تطارده بإلحاح طوال الأيام الماضية. شيء في ذكراها يعذبه ويسخر من صلابة قلبه. أكان يفر منها؟ أكان يهرب من ضعف يدركه في عمق روحه؟

- لستُ جبانا لأخدع نفسي.

صوت قلبه عميق صامت، يعلو بضرباته فوق كل صوت آخر. يعرف أن رحيله الاضطراري عارض ومرحلي. لا يسكن الأبطال، إلى الأبد، في أقاليم الظلال، يثبون منها على الهدف العنيد، كالنمور تلملم عضلات أجسادها المستوفزة، تكاد تغيب عن العيون، وفي لمح البصر تنطلق قواها المكبوحة بعنف رصاصة تخترق الهشاشة والتصلد.

- سيأتي زمان يفي بالآمال، لا بد أن يأتي.

تساق ناجي حيطان الصمت الملساء التي شيدها، حول روحه، أشرف الممدد على الكنبة مغمض العينين. همس مداعبا:

- لقمة بسم ا .

طوف أشرف بنظرته على العشاء المكون من البيض المقلي، والفول والجبن، واستقرت عيناه للحظة على براد الشاي الذي تتصاعد منه أبخرة عبقة بنكهة قوية محببة. نهض في نشاط، مستجيبا لنداء معدته الخاوية، ولإغراء ابتسامة صاحبه، شيء ما يحيره ويثيره في هذه الابتسامة. خلف ودها ورقتها وتفانيها يلمح القلب ظلا من غياب ليس قرينًا للإخلاص والتواضع، غياب معذب، يقاسي وحدته، وتشرنق في بطن صدفته، التي لن يدخلها أحد، ولن يعرف بوجودها أحد. تناول أشرف طعامه وهو يجيل بصره، في لوحات ناجي المعروضة على الجدران. استطاعت عيناه أن تميزا الموضوع الذي يكرر نفسه لوحة وراء أخرى، وفي تجاورها المكاني بدت له كامتدادات لحالة شعورية بصرية واحدة، أو كتنويعات متحاورة على نفس التيمة. كان بإمكانه أن يتعرف فيها على الشوق الموجه نحو شيء ما، وبخلاف

توقعاته، جاءت رسومات ناجي مثقلة مكتملة، وصريحة كنهار بلا غيم. تمددت الأجساد المصورة غليظة ومنشدهة في تعبيرها المتوهج عن ذكورتها، وأنوثتها، يشعرك عريها الكلي بالصدمة من ذوبان الأحمر الدموي والبرتقالي الناري، وهما يلتفان ويموجانه كإعصار لهب. يتماس الموجب بالسالب، يتداحان ويتباعدان، ثم يبرقان عند تزاوجهما المحتم. تنفجر من رحمهما المشترك الذي لا جنس له، شياطين صغيرة تتطاير بعيدا إلى أقصى حدود الصورة، ودائما هناك الغيوم لتبتلع شياطين النار فلا تبين. مركزية اللون الساخن لا غلاب لها على عين مصورها وفرشاته، لكنها مركزية محاصرة، محكومة بحلقات الأزرق والرمادي على الحواف. كان من النادر أن يتوقف أشرف ليتأمل لوحة ما متابعا العلاقات التي تنشأ بين مكوناتها، أو مستشعرا معاناة المصور مع الأشكال والألوان، لكنه أمام صور ناجي أحس أكثر من أي وقت مضى بالوطأة الثقيلة للخيال.. كيف يمكن لتلك الأوهام البصرية أن تمنح الإنسان كل هذا الشعور بالحياة؟ كل ذلك الألم من غور جرح الصراع ومن نشوته؟ ابتلع رشفات سريعة متلاحقة من كوب الشاي واجدا حرجا

في خدش الصمت. بدا مترددا يبحث عن الكلمات، وهو يقول:

- حسبتك ترسم بطريقة أخرى.

عدل ناجي من وضع نظارته على عينيه بطرف أصبعه، ومال برأسه للأمام كاشفًا عن اهتمامه بسماع ملاحظة صديقه. ظل أشرف يمسد ذقنه الحليقة بأصابعه مفتشًا عن الألفاظ المناسبة يجلي بها المعنى الهارب، ويقتنص الأفكار التي بقيت تشغل باله عن ناجي كل هذه السنوات. ابتدأ ينازع نفسه كالمعتذر:

- أعترف أني لا أفهم في الرسم، لكن شيئًا في لوحاتك يثيرني ويحيرني ويحبطني معا.

صمت دقيقة قبل أن يردف بنبرة هادئة عميقة:

- ربما توقعتُ منك العكوف على استنساخ صورة المسيح فوق الصليب، أو بورتريه السيدة العذراء، أو...

- نسخ أيقونة مار جرس التي تملأ بيوت الأقباط في طنطا.

قاطعه ناجي مبتسما بسخرية تقريبا:

- نعم.

- وهل أبدو لك كراهب في دير أو كواحد من المتعصبين دينيا؟

بانت ابتسامته المرة هذه اللحظة فقط على جانب فمه المزموم بشدة. ظهر جليا لأشرف مقدار الجهد الذي يبذله مضيفه لكبح انفعاله والسيطرة على مشاعره. كان يرى كرة النار تتأجج بداخله وتستهلكه. لكن السطح بارد دائما، وما كان هناك شيء يثير أعصاب الثوري الحالم أكثر من التحفظ والفضائل البرجوازية. أجاب محتدا:

- ليس إلى هذا الحد يا ناجي، ولكن علينا أن نتكلم بصراحة، فهل تدلني على المسئول عن خيالاتي هذه بشأنك؟ إنه أنت ولا أحد غيرك، بابتسامتك المهذبة الممرورة هذه التي تطل بها علينا من عليائك الروحي، ترى دماءنا تسيل وأعصابنا كأطفال يلعبون، يتخاصمون ويتصالحون، وتقف أنت لتقول دعهم يلعبون، فهل أنت كبير إلى هذا الحد حقا؟

الغيوم السود تتكاثر، أدرك الليلُ ناجي باكرا، وأطفأ الرب شمعة الشمس ليحبس العالم في الظلام، لماذا يشك في نواياه السرية؟ قوته تسند كل شيء، تهدهد الوجود، تؤرجحه

وتحميه من السقوط، أخذت أمه تبكي وتغني ولا تقول شيئًا، واحتجب مينا في حجرته يطارد الروح بالصلوات والبخور، عاتبه الكاهن العجوز:

- لم نرك في الكنيسة، يا ولدي لا تكتم صوت الرب بقلبك.

صحراؤه تفيض بالدعوات الكاذبات وبالأمل المستحيل في الحب، عندما دفعت يدها الصغيرة بابه انفتح بغير جلبة، تقدمت ببطء حابسة أنفاسها لتتكوم في الركن البعيد عند قدميه، قلبه ينبض بحبها الذي ينكره على نفسه، وجسده ينضح بعرق بارد، امتدت أصابعه راعشة تتحسس نعومة كتفها وذراعها، وراح دفؤها ينتقل من أطراف أصابعه إلى عروقه ويلهب دمه، قام يضمها إلى صدره المختنق بالنشيج والعبرات، فنفضت عنها سكونها، وانتترت تنوي الذهاب، هز الملاك سبابته موبخًا:

- دعها....تذهب.

فوق رأسه تهتز أوراق الليمون، وجهها شلال ماء ينزل من الأعالي فائرا متبدلا كل لحظة.. قال:

- أخطفُ صورتها وأطبعها على وجه الأرض، على أحجار الجبل الرهيب.

همستْ بحزن:

- وداعاً.

ورمته بالصليب الذي ما زينتْ به عنقها ونحرها، أبدا، أبدا.

همس لأشرف متذكرا:

- وأنا صغير، كنت أستشعر دائما رهبة عند دخول بيوت الأغراب. كانت بيتنا ملفوفًا بالصمت، أما بيتكم فقد كانت أصواتكم تملؤه بلا محاذير ليل نهار. وبدون وعي بدأت أقارن بيننا وبينكم وانتهيت إلى أننا لسنا مثلكم، ولا مثل بقية الجيران. كتمتُ مشاعري وأفكاري وصدمتي عنكم محاولا هزيمة رهبتي وخوفي منكم، أقصد من كل الجيران والمسلمين. ذهبتْ لألعب الكرة في الشارع معكم، وأسهر على الناصية إلى منتصف الليل غير عابئ بتنبيهات أبي ومخاوف أمي، لكني كنت أقترب من عالمكم أجدكم تستغربون وجودي كما أستغرب وجودكم بالضبط. صحيح أن أحدا لم يطردني أو يمنعني من المجيء، غير أن معاملتكم

كانت تتسم بالحذر مما يزيد من إحساسي بالغربة بينكم. ونادرا ما كان يتحمس أحد لضمي إلى فريق الكرة الشراب، كنت آخر لاعب يتم اختياره للفريق، وكنت غالبا حارس المرمى الذي لا يلمس الكرة، وبرغم كل شيء، كنت أقبل ذلك، وأفرح به أحيانًا، على الأقل كان أفضل من الحبس وراء جدران البيت الساكت كل الوقت.

صمت ناجي فخيم هدوء قلق عليهما. كان أشرف ينصت إليه متصلبا، محملقًا إلى الأمام، ومندهشًا قليلا من طاقة الكلام السحرية التي انفتحت مع حماسة صديقه المفاجئة. كان يراه في ضوء جديد، ويجتهد في فهم معنى الألق الخاطف بنظرته المطفأة، ومعنى المرارة المكبوحة في الابتسامة نصف الهازئة المتلاشية سريعا. واصل ناجي محاولا استعادة هدوئه:

- أبدا يا أشرف، لستُ كبيرا إلى هذا الحد، بل ربما كنتُ أشد هوانًا على نفسي مما تظن، انظر إلى هذه الرسومات الشقية، هل ترى كائناتي قادرة على الخلاص من فخ الوحدة متحررة من وجودها العضوي ومتحققة في المطلق؟

ألقى أشرف نظرة فاحصة متمهلة على اللوحات من جديد قبل أن يجيب:

- بل أراها متورطة حتى النفس الأخير في كثافتها وعضويتها، أنت تسجنها في حسيتها، أو تدفعها للتلاشي في الغيوم الداكنة.

- لستُ أنا، أحد سواي بداخلي يفعل، أو دعني أقول إنه نصفي السري فقط، إن روحي قوية يا صديقي، لكنها ليست قوية بما يكفي لالتهام الجسد وهضمة نهائياً، هل تفهم الآن عذابي؟

- أنا لا أفهم استسلامك لعذاب واضح المصدر كل هذا الوضوح، اسمع يا ناجي، أنا رجل واقعي ومادي، ولا أستريح لكل تلك التهويمات الميتافيزيقية، إذا كنت تعاني من عداء الناس لهويتك وثقافتك كقبطي، فلماذا لا تواجه العداوة على أرض الواقع؟ أليس ذلك أجدى من كل تلك المناورات والمداورات؟

عض ناجي على شفتيه متألما وهو يصغي لكلمات أشرف المسنونة تنغرس في لحم كبريائه كنصال مفاجئة. كان يلوم نفسه قليلًا على استسلامه لشهوة الحكي والاعتراف، وراح

يسأل نفسه عما كان يظن أنه بانتظاره، رد بصوت بطيء ممدود:

- تعرف؟ كأنك تعيد علي كلام كمال وتحليله لفشل علاقتي مع رحاب، يقول إنني لن أستطيع نسيان قبطيتي يوما، وإنني أسعى لتعذيب كل الأقباط في شخصي، والانتقام من كل المسلمين في شخصها، وإن مشاعري نحوها ليست أكثر من أيديولوجيا وتبرير سيكولوجي أموه بها على عقلي حقيقة دوافعي، وكلام كثير غيره، كما تفهم طبعا، وفي الأخير نصحني بنسيانها تماما.

- لكني أنصحك بالعكس على طول الخط، فلتذهب إلى فتاتك وتقول لها إنك لست قبطيا، بل عاشقًا، وإنها ليست مسلمة وإنما عاشقة، وأي شيء عدا ذلك لا أهمية له في قصتكما.

انتاب أشرف الحنق وهو يفكر في كمال، صمت لحظة ليواصل مندهشًا:

- ماذا حدث للناس هذه الأيام؟ كيف يجرؤ كمال على التفرقة بين حبيبين على أساس الدين؟

- لا بد من أساس للتفرقة بين الناس، على أي حال.

أجاب ناجي بمزاج متكدر كمن يرغب بشدة في طي هذه الصفحة، ليستريح. قال أشرف مستثارا:

- أنت تقول هذا؟ يبدو أنني أدافع عن القضايا الخاسرة باستمرار. إذا كنت لا تثق بعدالة قضيتك فافعل ما ينصحك به كمال. وسيكون علينا أن نفرق بين الأهلاوية والزمالكاوية بالمرة.

- سيتحمس جلال لهذا جدا.

نظر أشرف في عيني صاحبه مباشرة، ولم يضحك. كان الدم يخضب وجهه ورقبته من أثر الانفعال والتعب. قام يتمشى في الصالة الضيقة بهيئة مهمومة محاولا إخفاء تردده واضطرابه، ثوانٍ عديدة حتى حسم أمره معلنًا بصوته الواضح القوي:

- لعلك تتساءل عن سر زيارتي المفاجئة هذه في نصف الليل؟

أطرق ناجي ولم يرد. واصل أشرف حديثه ساحبا أنفاسا محرقة، غير منتظر رد محدثه بعد:

- جئت أختبئ عندك أسبوعا أو اثنين، اقترح علي جلال الاختفاء عن عيون المباحث هنا.

- خيم الصمت لفترة قصيرة من الزمن. كان أشرف يشعر بكلماته حزينة ذليلة، واجدا صعوبة في مواصلة النطق بها، توقف عن الدوران في الصالة وقبع في الركن البعيد موليا صديقه ظهره، وهو يسأل بصوت مشروخ:

- هه... ماذا تقول؟

- ماذا تعتقد أني أقول؟

- يمكنك الاعتذار دون الاضطرار لشرح الأسباب، وسأتقبل اعتذارك بلا مرارة متأكدا أنك لم تتخل عني أو تبخل علي بمساعدة تقدر على تقديمها، وسنبقى كصديقين كما كنا.

سكت مجددا يفكر في جملته التالية التي ظهرت تثقل روحه طول الساعة الأخيرة، دقيقة عادت به ذاكرته القهقرى ليهمس لقلبه أنه ما مس أحدا يوما إلا وألحق به الأذى، كان وجوده، مجرد وجوده، ينطوي على قوة تدميرية تهدد كل من يقترب منه أو يضمه. تصادمت أصوات متعارضة مختلطة في ضميره، وهو يقول بحسم ونفاد صبر:

- لكني لن أحتمل قبولا تلوثه شهوة الاستشهاد. الرفض الصريح أكرم لي ولك.

أصاخ ناجي بسمعه لصوت الريح التي يتعالى زئيرها فوق البحر. قال لنفسه إنها نوة المكنسة. كان يحب الريح تكنس المدينة والقلب، وتفتح براعم الموج بقوة كاشفة عن مكنون المياه. همس بنغم بطيء مستسلم:

- أنت لا تثق بي كثيرا يا أشرف.

أطرق أشرف متحيرا مرتبكًا وقد آلمته ملاحظة صاحبه الذي واصل بصوت أشد وضوحا:

- سؤال واحد قبل أن تسمع ردي.

- أرجوك، أسأل.

تضرج وجه ناجي بألوان شتى. راح يحدق بثبات، بل وحتى بلذة، في عيني ضيفه من غير أن يطرف له رمش. أحس بقلبه يرتجف نشوانا متألما، وتغشت كل الأشياء أمامه.

- هل شاركت في قتل إنسان؟

جفل أشرف مذهولا من جذرية السؤال. أجاب بسرعة قاطعة:

- لست إرهابيا، أنا شيوعي لا أعتقد في جدوى أو أخلاقية الإرهاب الفردي، وعقيدة العنف الثوري أنضج وأنبل

من ذلك.

أراح ناجي وجهه بين كفيه وهو يتكئ بكوعيه إلى المنضدة القريبة. كان يشعر بغثيان خفيف وهمس بغموض:

- كلنا تعذبنا الغايات والوسائل.

- أبدا، هناك من لا يشغلون بالهم بالوسائل، ويؤمنون إيمانا يائسا بشرعية غاياتهم، يسمون القتل قصاصا، ويرون أنفسهم أدوات بريئة في يد ا . تعرف؟ أحسدهم أحيانًا، أتمنى لو أقدر مثلهم على توجيه ضربة مؤثرة.

- لن تقدر، أبدا.

صمت لحظة قبل أن ينهي كلامه بيقين غامض:

- وحدي...

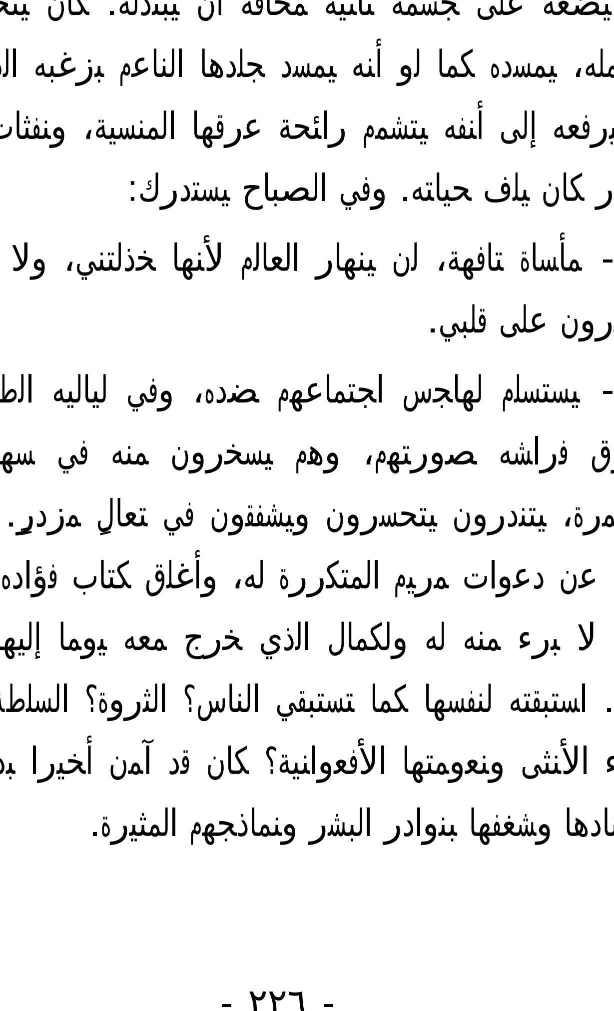
تنقلت نظرات أشرف المستفهمة بين عيني صديقه وشفتيه، كان قادرا على رؤية وجوه أحلامه الهشة بعيونها السود العميقة، ناسجة أوهامها الليلية، وناشرة أشرعتها الداكنة فوق بحر غامق حالك الظلمة. قام ناجي يرفع بقايا العشاء إلى المطبخ دون أن يتبادلا كلمة إضافية. دقائق قليلة، وكان أشرف يسلم جسده وعقله ليد النوم الحنون، وقد أدفأت فراش مضيفه، زاهدا في كل شيء، تحت أغطيته بالذات.

(١٨)

ضيق كمال عينيه مقترحا:

- نسهر عند مريم، من زمان تريد التعرف عليك.

تمهل أشرف في قبول الدعوة منتظرا رد ناجي، أحس بالصراع المحتدم في قلب صديقه. كانت ملامحه جامدة لا تبين عما تحتها وهو يداري انفعاله بتثبيت إطار نظارته فوق أرنبة أنفه، وراح وجوده يشيع من حوله مجالا عفيا من الرغبة في الوجود. طول عامين كان يناضل في روحه ضد هذه الرغبة، كابحا شوقه العنيد للذهاب عند مريم ليراها، هي التي غدت بعيدة ونائية بإرادة ضعفه وانتصاره على نفسه. كان يفكر فيها فيحس بقلبه متعبا جدا، حزينًا ومذنبا على لا شيء، يدرك أنه المتسبب فيه. ومن أحاسيس الندم والذنب، ظل يستقي راحة شريرة، وغدا، في حبها، شهيدا، كان يكفيه



أن يستعيد في ذاكرته بعضا من أبياتها الشعرية الساذجة، أو يلمح في دولاب ملابسه ذلك البلوفر الذي أصبح أيقونة وصليبا، ليبتسم لنفسه، دون أن يعلم بابتسامته، ويخبث لنفسه أن يضعه على جسمه ثانية مخافة أن يبتذله. كان يتحسسه بأنامله، يمسده كما لو أنه يمسد جلدها الناعم بزغبه الدقيق، ثم يرفعه إلى أنفه يتشمم رائحة عرقها المنسية، ونفثات من عطر كان يلف حياته. وفي الصباح يستدرك:

- مأساة تافهة، لن ينهار العالم لأنها خذلتني، ولا لأنهم يتآمرون على قلبي.

- يستسلم لهاجس اجتماعهم ضده، وفي لياليه الطويلة، تؤرق فراشه صورتهم، وهم يسخرون منه في سهراتهم العامرة، يتندرون يتحسرون ويشفقون في تعالٍ مزدرٍ. أصم أذنه عن دعوات مريم المتكررة له، وأغلق كتاب فؤاده على حقد لا برء منه له ولكمال الذي خرج معه يوما إليها وما عاد. استبقته لنفسها كما تستبقي الناس؟ الثروة؟ السلطة؟ أو ذكاء الأنثى ونعومتها الأفعوانية؟ كان قد آمن أخيرا بذكائها وعنادها وشغفها بنوادر البشر ونماذجهم المثيرة.

- تريد أشرف أيضا، متحفها الحي الصغير ينقصه بطل رومانسي لا يزال صالبا طوله ولم يركع بعد.

راح يفكر في تكتيكها المحتمل معه، أية جزرة ستغريه بها؟ وأية عصا سترهبه؟ لن تعدم الوسيلة المناسبة، ستعرف كيف ترشق أجنحته بدبابيسها الرفيعة اللامرئية، وترفع اللوحة فوق جدار صالونها الفخم معجبة وفخور بنزوعها الأنثربولوجي الذي يهب وجودها الطافي على بحيرات النفط عمقه الحضاري والتاريخي، فهل يقف أمامها عاجزا ومهزوما هكذا إلى النهاية؟ حدق في الصليب الموشوم على باطن معصمه، وقال لنفسه:

- ليحمل أحدنا خطاياهم فوق كاهله. تضحية جذرية وإلا...

أصغى إلى قلبه ينبض بشدة ويترنح صاعدا على الدرب المتعرج الوعر. راحت أنفاسه تتلاحق مبهورة وهو يبذل غاية جهده كي يستبقيها بصدره لثوانٍ. غامت عيناه وغابت الشمس عن الوجود وعند الدقة الثالثة صرخ الفادي متألما. همس لهما:

- سأذهب لأصلي في الكنيسة.

في ترام الرمل مال كمال على أشرف موضحا:

- مريم شخصية مدهشة، ذكاؤها غير عادي، يمكن للإنسان أن يعتمد عليها، بكل ثقة.

وقف أشرف مصالبا ذراعيه، وبدا له استهلال الكلام بينهما على هذا النحو غريبا. تابع كمال:

- ناجي يكرهها، يعتبرها مسئولة عن فشل علاقته برحاب، لكنه لا يعلم أنه تتألم من أجله، مسكين، ما زلت أتذكره في الفصل وأنا أشرح لهم معنى الفضيلة عند سقراط، كانت عيناه تلمعان بشدة، ويغرق في صمته لا تعرف خائفا أم متعاليا، لكنه ككل أبناء ملته شكاك ومرتاب.

- يعتقد ناجي أنك لا تحب الأقباط.

- أعتقد أنه لا يحب الأقباط، هل تحب أنت المسلمين؟

- أنا لا أحب ولا أكره على أساس الديانة، هناك معايير أخرى، تعرفها أنت جيدا، تحدد علاقاتي بالآخرين.

- آه... نعم.

غمغم كمال موافقًا بسرعة، قبل أن يستدرك:

- لكني لا أسلم بها بلا قيد أو شرط. سأقول لك حقيقة اعتقاده، إنني أعتبر كل إنسان مسئولا مسئولية كاملة عن أعماله وأفكاره غير أنها مسئولية مرتبطة بعنصر آخر خفي، أو قدري، هل تؤمن بخلود الروح يا أشرف؟

نظر أشرف إلى محدثه نظرة جادة ومندهشة معا. كان السؤال قد صدمه أكثر مما تصدم أذنه قعقعة الترام فوق القضبان المتآكلة. أحس باضطراب خفيف وهو يلمح جارهما في القطار وقد أعار حديثهما أذنًا مفتوحة، متظاهرا، في نفس الوقت، بالقراءة في جريدته. أجاب بصوت خفيض هادئ:

- إنني حتى لا أعرف، ما تقصده بكلمة الروح.

- اسمع، هذه المسائل يستحيل مناقشتها في الترام، لنتمشَ على الكورنيش، الجو دافئ الليلة، أليس كذلك.

هز أشرف رأسه موافقا، غادرا الترام في محطة الشاطبي نازلين بطول الطريق الواسع إلى البحر. راحا يتشربان بنهم أنفاس البحر الملحية الدافئة. من بعيد ومضت نجيمة بيضاء شاحبة ترتجف بخفة على صفحة المياه المظلمة، وتعالت أصوات النوارس الصيادة. انتظر أشرف أن يبادر كمال بالحديث، دقيقة، ثم قال الأستاذ:

- عندما أحدق إلى البحر، يحدث لي أحيانًا أن أتذكر وأتذكر، تتداعى الصور إلى عقلي سريعة مشوشة ولا آخر لها، أهمس لنفسي أني سأظل أتذكر إلى أن أصل لما قبل الحياة، وأحدد النقطة التي يبتدئ من عندها وجودي، هل جربت مرة أن ترحل بذاكرتك إلى بداية البداية في وجودك؟

هز أشرف رأسه نافيا ومبلبلا قليلاً.

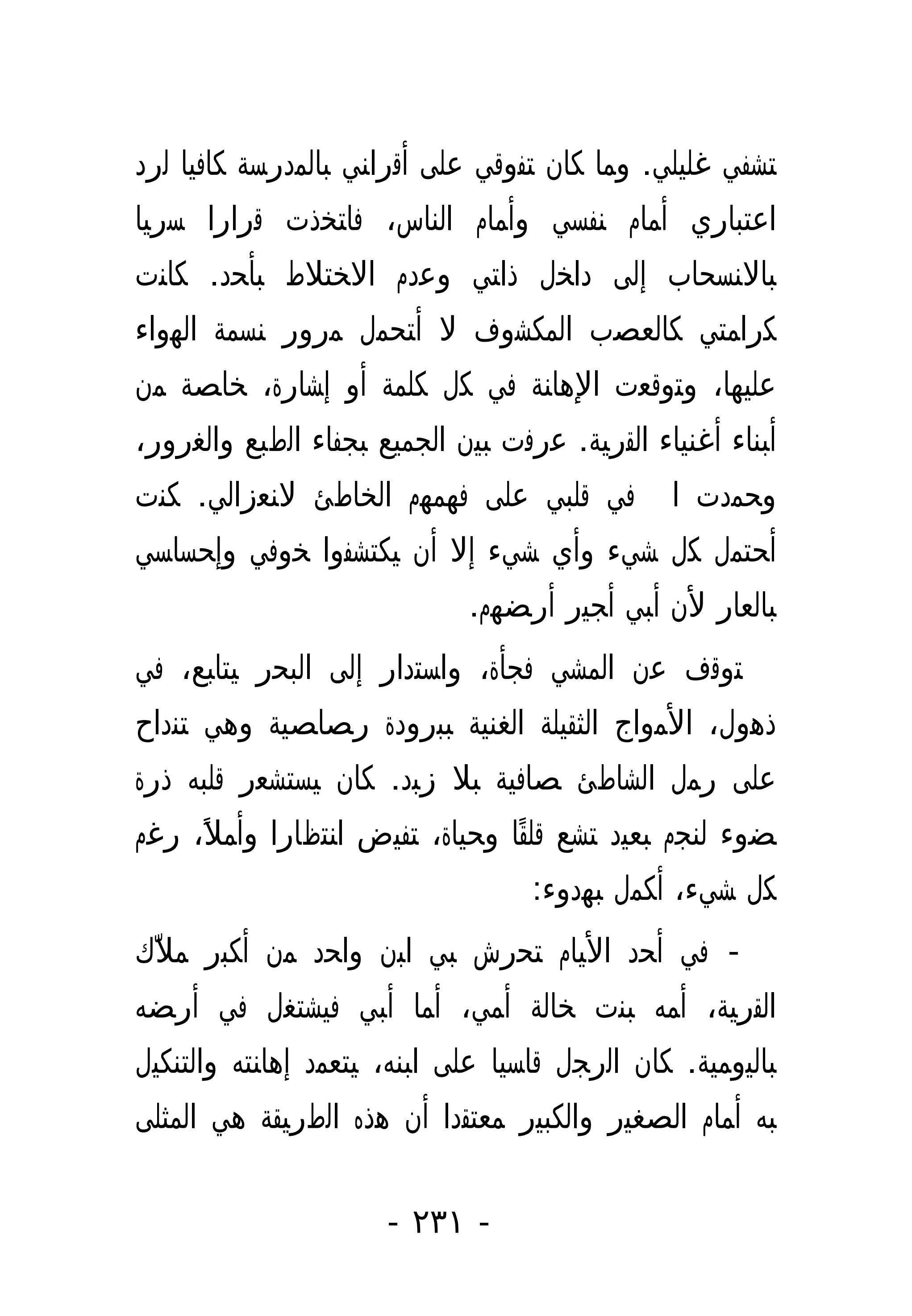
- أنا فعلت. لم يكن ما رأيته ساعتها حلما، بل الحقيقة التي عشتها قبل أن أولد، التاريخ السري للروح، ومن يومها وأنا أترقب تلك اليد التي ستقتص مني، وأتوقعها من حيث لا أدري.

- أية يد؟ وأي قصاص؟ ما معنى كل تلك الألغاز؟

كان أشرف، يحس بدبيب الدم في شرايين محدثه، بالتماعات نشوة متوحشة في عينيه. أصغى إلى كلماته مستثارا واستمر كمال:

- وأنا صبي في المدرسة الإعدادية كان إحساسي بالفقر مذلاً.

كنت أسأل عن سبب فقرنا والحكمة منه، وكانت كل إجابات أبي عن إرادة ا في خلقه، وعن حشمة الفقر لا


تشفي غليلي. وما كان تفوقي على أقراني بالمدرسة كافيا لرد اعتباري أمام نفسي وأمام الناس، فاتخذت قرارا سريا بالانسحاب إلى داخل ذاتي وعدم الاختلاط بأحد. كانت كرامتي كالعصب المكشوف لا أتحمل مرور نسمة الهواء عليها، وتوقعت الإهانة في كل كلمة أو إشارة، خاصة من أبناء أغنياء القرية. عرفت بين الجميع بجفاء الطبع والغرور، وحمدت ا في قلبي على فهمهم الخاطئ لانعزالي. كنت أحتمل كل شيء وأي شيء إلا أن يكتشفوا خوفي وإحساسي بالعار لأن أبي أجير أرضهم.

توقف عن المشي فجأة، واستدار إلى البحر يتابع، في ذهول، الأمواج الثقيلة الغنية ببرودة رصاصية وهي تنداح على رمل الشاطئ صافية بلا زبد. كان يستشعر قلبه ذرة ضوء لنجم بعيد تشع قلقًا وحياة، تفيض انتظارا وأملاً، رغم كل شيء، أكمل بهدوء:

- في أحد الأيام تحرش بي ابن واحد من أكبر ملاّك القرية، أمه بنت خالة أمي، أما أبي فيشتغل في أرضه باليومية. كان الرجل قاسيا على ابنه، يتعمد إهانته والتنكيل به أمام الصغير والكبير معتقدا أن هذه الطريقة هي المثلى

لتنشئته كرجل. في امتحان نهاية السنة كنتُ أول المدرسة، ورسب هو. كان خالي الشيخ على ـ هكذا كنت أناديه ـ يشك في أن ابنه يهرب من المدرسة، ويذهب إلى السينما أو يعاكس البنات. طلبني للشهادة، فقلت بصراحة:

- كان كثير الغياب.

ميزتُ في صوتي، وكلماتي نبرة تشفٍ وغل، كان طائر أسود حقود يرقص مبتهجا في صدري. قال الرجل يعنفه أمامي:

- يابن الكلب، هذا زميلك لا يأكل ما تأكل، ولا يلبس ما تلبس، وينجح هو وتسقط أنت.

أحسستُ بكلماته طعنات موجهة إلى كبريائي، كان يعايره بنجاحي ويعايرني بفقري. انسحبت بسرعة قبل أن تفضحني دموعي أمامهما. بعدها بيومين تربص بي الولد في الغيط مع عصبة من أصحابه. صرخ بي:

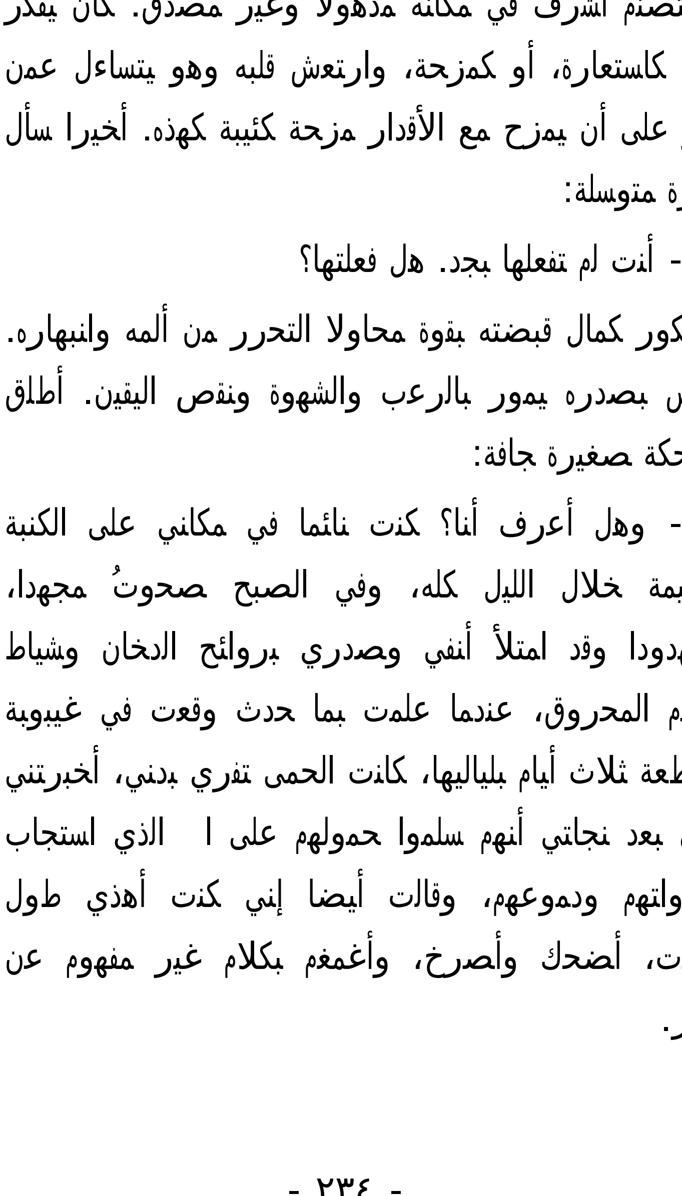
- تفتن علي يا شرموط.

أسرع الأولاد يربطونني إلى شجرة كبيرة، ثم خلع حزامه من حول وسطه، وأخذ يجلدني، لم أسمح لنفسي بالبكاء أو التأوه أمامه، وكلما ازددت تصلبا استشاط غضبا وصار

كالمجنون. اشتعل جسمي ككرة من نار. أخيرا كان التعب قد حل به، من تعذيبه لي، مسح عرقه المتصبب على جبهته بكم قميصه، ثم بصق في وجهي وهو يسبني:

- لن أكون رجلا إن لم أقطع عيش أبيك من أرضنا، سترى.

تركوني مقيدا ومشوا، وما إن غابوا عن عيني حتى انفجرت في البكاء. وقفتُ فاقدا الإحساس بجسمي. كانت دموعي تربطني بالأشجار والغيوم والشمس البعيدة وتهديدات الولد، فصممت على الانتقام منهم. في الليل رأيتني أحمل صفيحة جاز، وأتسلق جدار بيتهم في الظلام، نزلتُ فناء الدار الكبيرة من غير أن يشعر بي أحد، واختبأت متنصتًا إلى خوار البقر في الزريبة، وبلا صوت، بدأت أرشرش الجاز في جنبات المكان وفوق القش والحطب وعلى أبواب وعتبات الحجرات، وبابتسامة حاقدة على شفتي، أشعلتُ عود ثقاب ورميت به، وفي أقل من دقيقة كانت الدار تشتعل كشمس موقدة في الليل. عندما استيقظت القرية لتطفئ الحريق كان الأوان قد فات، وأخرجوا جثثهم وقد تفحمت وانطمست ملامحها.



تصنم أشرف في مكانه مذهولا وغير مصدق. كان يفكر فيها كاستعارة، أو كمزحة، وارتعش قلبه وهو يتساءل عمن قدر على أن يمزح مع الأقدار مزحة كئيبة كهذه. أخيرا سأل بنبرة متوسلة:

- أنت لم تفعلها بجد. هل فعلتها؟

كور كمال قبضته بقوة محاولا التحرر من ألمه وانبهاره. أحس بصدره يمور بالرعب والشهوة ونقص اليقين. أطلق ضحكة صغيرة جافة:

- وهل أعرف أنا؟ كنت نائما في مكاني على الكنبة القديمة خلال الليل كله، وفي الصبح صحوتُ مجهدا، ومهدودا وقد امتلأ أنفي وصدري بروائح الدخان وشياط اللحم المحروق، عندما علمت بما حدث وقعت في غيبوبة متقطعة ثلاث أيام بلياليها، كانت الحمى تفري بدني، أخبرتني أمي بعد نجاتي أنهم سلموا حمولهم على ا الذي استجاب لدعواتهم ودموعهم، وقالت أيضا إنني كنت أهذي طول الوقت، أضحك وأصرخ، وأغمغم بكلام غير مفهوم عن النار.

أقفل كمال شفتيه ومضى مستغرقا في مراقبة البحر. انتشرت أصوات النوارس الجائعة حولهما، وراح أشرف يحصي النجوم المتلامعة في السماء، المولود منها والميت. كان يفكر في حلم الإنسان، باقتحام المجهول، بالانفعالات من جاذبية تراب القلب، وفي الدرج السحري الذي يبتنيه كمال لنفسه مرتقيا جبل الشوق إلى المطلق. أكان هو كمال نفسه الذي سخر من غموض ناجي وأفلاطونيته قبل دقائق خمس لا غير؟ أهاب بعقله أن يستفيق من ثباته المضجر، وهمس كمال كالمعتذر:

- ما يحدث لي الساعة غريب يا أشرف، مشيتنا هذه، ونزولنا من الترام، وهدير البحر، ومشوارنا كله، أشعر وكأنني عشته من قبل، وأستطيع تذكر الأجواء والكلمات وأدق التفاصيل، بل والأحاسيس أيضا.

- خيالات. لماذا تنشغل بها كل هذا الانشغال؟

- حتى الخيال هو رغبة في التفسير.

في غمرة جاذبية ومعاناة خيالاته المتجسدة ذاب الكون بنجومه وبحره أمام ناظريه، ليغدو كحبة رمل لامعة يشع جمالها وصمتها على روحه، منحدرة من مصدر خفي يسبق

كل تكوين. حدق كمال مبهورا في الليل المصمت اللامع من حوله، كل شيء كان، سيضيع يوما، وما ضاع يكون من جديد، مرة ومرة وألف مرة، فما جدوى إرهاق عقولنا بالبحث عن تفسير ما لا يمكن تفسيره، ما لا ضرورة لتفسيره؟ ألا يكفيك أن تقول إنه تفسير نفسه؟ برهانه وغايته معا؟ جذب أشرف من كمه برفق ليوقظه، كان يريد أن يفتح له عينيه. قال مجازفا بتغيير موضوع الحديث:

- لعلك تتساءل عن طبيعة علاقتي بمريم.

- هذا شأنك، ولا دخل لي به.

- لا تكن خشن الطبع هكذا يا أخي، أنا أفتح لك قلبي، أريد أن نصبح صديقين، تعرف؟ أكاد ألمس طيبة قلبك وسخونة مشاعرك تحت ستار تظاهرك بالقسوة الموضوعية، أعتقد أنك تقسو على نفسك أكثر من اللازم جدا، ولأجل ماذا؟ هل تقول لي؟

طَن نحل السؤال في عقله طنينًا متواصلا، وبين لحظة وأخرى راح أشرف يراقب البقع السود التي حسبها قد ابتلعت في ظلام النسيان وهي تطفو على سطح ذاكرته من جديد.

كانت قد حذّرته بصوتها الرقيق المحب قبل أن تفكر به، وبكل أصحاب الرسالات:

- إذا ضيعتني ضيعت نفسك. لا حياة لك من غيري.

أمسك بيدها الصغيرة بين كفيه مطمئنا وناسيا أسرتها التي تنتظر طرقاته على الباب. كان يفكر أنها ملكه نهائيا، حتى ولو اختفت من أمام عينيه بلا رجعه. وراح يبتسم لنفسه متمنيا ومتحديا أن يفقدها ويحملها الموج بعيدا، ليأتي بها المد العائد، لا ريب. همس لنفسه ساخرا بمرارة:

- كل شيء تمام، فلتصمت أيها القلب.

- لا شيء في الدنيا يستحق أن يعذب الإنسان نفسه بسببه كل هذا العذاب.

أتاه صوت كمال الموغل في ظلاميته المنيرة، وهو يواصل بسط روحه لاهثًا وطامعا في بعض المشاركة:

- أعترف لك أني أحبها، كيف بدأ هذا الحب، وكيف سينتهي، هذا ما لا أعرفه بالمرة، يقولون إنه في الحب لا ضرورة للمعرفة أو للسؤال عن المصير، كلما فكرت أنها لن تكون لي كما تكون المرأة لرجلها، أحس بطعم الملوحة في

حلقي، وبرغم ذلك أوقن أني خيالها، وأتلذذ بفكرة أن أحدا لن يعرفها أو يسعدها كما أفعل أنا.

- ولماذا لا تتزوجان بدلا من هذا كله؟

أدار كمال عينيه الغارقتين بالألم ناحية البحر، كانت روحه تتلوى في وجهه الأبيض المستدير، وراحت عيناه تومضان بقوة، للحظة راهن نفسه فيها على إمكانية التصديق، ثم تنطفئان. لا، ليس في العالم ما يكفي من حياة كي يخضر برعم الروح الذاوي في النفس.

- تتكلم كأنك لستَ من هذا البلد، إنها خليجية، هل تراني زوجا مناسبا لثرية خليجية؟

- إذا كانت تريدك حقًا.

- تريدنى، لكنها لا تريدني بقوة تكفي لقلب العالم ووقوفه على رأسه، أما أنا فربما لا أريدها بالمرة، لا أستطيع تخيل نفسي زوجا لها، بافتراض أن ذلك ممكن الحدوث، في لحظة كهذه أظن أني سأضرم النار في العالم بجد.

سارا بخطوات متمهلة صامتين لبعض الوقت، استغرق كل منهما في آلامه، ووحدة قلبه، ولعبت بروحيهما فكرة أن الحب كالميلاد والموت، كالشرف والثورة، وكالحياة كلها،

أمر زائل بعد كل شيء، زائل وغير مفهوم. ابتسم أشرف بمرارة:

- تصدق؟ أراد جلال أن يحفظ قاموس المورد كله من الجلدة للجلدة، كان يسهر طول الليل يسمع الكلمات بنفس ترتيبها في الصفحة، لينسى في الصباح ما ذاكره في المساء، وأخيرا وقع مريضا ليومين كاملين ظل يرطن فيهما بالإنجليزية، وهو نائم. هل تعرف ما فعله بمجرد شفائه؟ جرى إلى المكتبة بسرعة وطوح بالقاموس الثقيل من الشباك على طول ذراعه.

استسلم كمال لنوبة من الضحك، وأخذ يهرش مقدمة رأسه بطرف أصبعه وهو يهز دماغه معربا عن تضامنه:

- رائع.

- لكن هذا يحيرني يا كمال، أحيانًا ألوم نفسي، ألومنا جميعا، على ما أعتقد أنه كبرياء وغرور زائدين، لماذا لا نعترف بتواضع أننا أصغر من أحلامنا عن العالم، أو من فكرتنا عن أنفسنا؟ لماذا لا أقنع بأن أصبح طبيبا كآلاف الأطباء غيري، وأتزوج وأنجب أطفالاً؟ ولماذا لا تسعى أنت بجد كي تذهب إلى الخليج في إعارة وتحل مشكلاتك؟

نظر كمال في عيني محدثه، تظن الإعارة تحل لي أية مشكلة؟

- سترجع بنقود كثيرة تكفي لشراء شقة وسيارة وكل الكماليات، وستجد زوجة تحبك وتنجب لك أطفالاً، وستعود لهم آخر النهار بعد انتهائك من الدروس الخصوصية بأكياس الفاكهة والبسبوسة، وستحيا كما يحيا الناس.

- وأحلّ مشكلتي مع الفقر، وأستمتع بمشاهدة برامج التليفزيون، أليس هذا ما تريد قوله؟

سأل بنبرة متهكمة، غاضبا تقريبا، فبان الارتباك والتردد في عيني أشرف. واصل كمال:

- أبدا، لا الشقة التمليك ولا السيارة ولا مال قارون كله يكفي لحل أي شيء، أنت لا تعرف ما تتكلم عنه.

ابتسم لصاحبه مشفقًا ومؤمنا أنه لن يفهمه أبدا. كان المشي وحرارة حديثهما الطويل قد أنهكهما، وأخذت خيوط من العرق البارد تنساب على ظهريهما وعموديهما الفقريين ساخرة من الريح الشتائية الخفيفة، ولدقائق عديدة تالية تجمع صمت دافئ معانقًا خطواتهما نحو الفيللا التي لاحت لأعينهما بعيدة، كأنها في آخر الدنيا. همس أشرف لقلبه الحزين:

- كل شيء مكتفٍ بذاته ولا حاجة له بي، كم يطول ذلك؟

استدار بحدة مع إشارة كمال الخرساء له بعبور الطريق. كان ثمة حقل من فراغ مرعب يمتد أمام عينيه وفي داخله. دقيقة أخرى وكانا يدقان بابها المفتوح بانتظار وصولهما.

(١٩)

ابتسمت مريم تدعوهما للدخول مداعبة:

- كنا سنرسل نشرة بأوصافكما لأقسام البوليس وإعلانات المفقودين.

اتسعت عيناها السمراوان عن آخرهما. وترقصت غمازتاها مستسلمة وحدها للضحك على نكتتها الخشنة. وقف أشرف يرنو إليها بفضول، لكن دون انزعاج. كان يبحث في تقاسيم وجهها القوية، في شعرها الفاحم الملموم فوق ظهرها على شكل ضفيرة سميكة، وفي قوامها المشدود القوي عن سر جاذبيتها. جلس ساهما يتنصت في قلبه إلى نوع من النداء الغريب يرغب في الاستسلام لغواية سحره، ويناضل ضده معا. بدت لعينيه فظة ومشتهاة، كالحياة ذاتها، أو كقوة كامنة هائلة بغريزتها لتغذية اللهب الذكوري الخامد

بالأكسجين النشط، وتفترس أنسجة الروح، وما عدا ذلك، لم يتلمس عندها أي نوع من الإثارة الجسدية، قال لنفسه:

- ما أتوق إليه هو الوجود.

جلست صامتة تدير نظرات متوجسة قلقة بينه وبين كمال الجامد كتمثال من الشمع، تناولت سيجارة من علبتها الفضية المطعمة بالأصداف وأشعلتها قبل أن يتحرر كمال قليلا من قبضة ذهوله هامسا:

- تمشينا على البحر نتكلم.

كان يتحدث بمرارة، وفي هدوء، كأنما في حلم. حدجته مريم بنظرة شغوف تفيض بالرهبة والاستثارة، في نفس اللحظة التي انسلت فيها رحاب داخلة القاعة. قالت مريم تقدم صديقتها إلى ضيفها بلهجة مرحة خفيفة:

- رحاب.

ظلت رحاب واقفة أمام عربة المشروبات التي أتت بها، تسدد إليه نظرة مرتبكة خجول، كأن كل ما يجري الساعة قد فاجأها ونبهها من نوم ثقيل. أشارت لها مريم بالجلوس فاستجابت كالمنومة، وجثمت بعيدا بالقرب من تمثال بوذا الخشبي. راح أشرف يرمقها صامتا، مفتشا عن علامة ما

على قدر ناجي الحزين معها. بدت كدمية صغيرة في فستانها الأبيض البسيط، ونحرها النقي النحيل، وشعرها المعقوص كذيل حصان قصير فوق كتفيها المقوستين المهزولتين. أرعبته نظرتها الجامدة وقد انعكس ضوء الثريات الضخمة عليها كالبلّور المهشم وردته إلى عيون الموتى المفتوحة في درس التشريح. كان قد تعلم، منذ زمن، كيف يطفو بوعيه فوق أمواج الهلع والصدمة والتساؤل التي انفتحت عليها، بغتة، تلك العيون. قالت مريم تضاحك كمال:

- ألا تشبع من الكلام؟

اغتصب كمال ابتسامة باهتة مثبتًا نظرته فوق التمثال الصامت للشخص المقدس، ثم أجاب بلا حماس:

- شبعت.

- معنا فقط؟

سألت ببرود وعلى نحو مفاجئ. أحس بالسخرية التي تبطن كلماتها ونبرة صوتها، فدق قلبه في صدره مستشعرا الإهانة، وتهاوت روحه العاشقة تحت وطأة ازدرائها المكتوم. لحظة واحدة وعاد يسائل نفسه مصدوما عما سببه لها من ألم بصمته أو بكلامه. أجاب كالمعتذر:

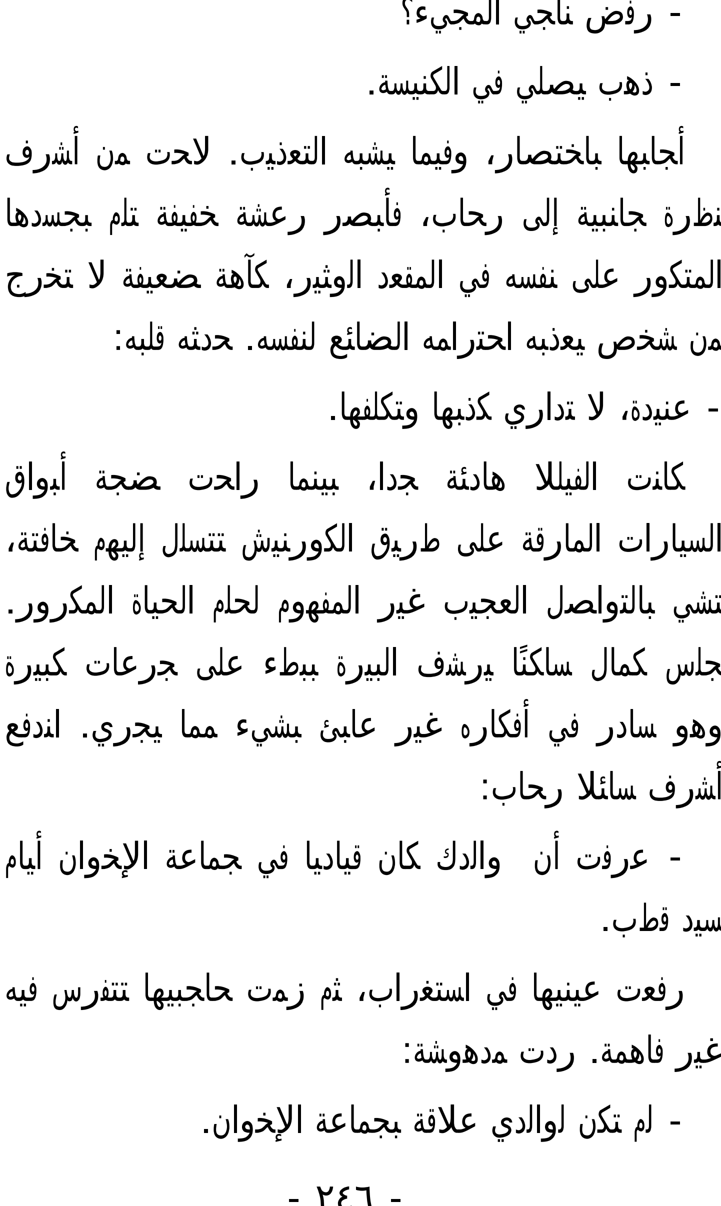
- أنا تعبان قليلاً.

قامت مريم تصب له البيرة وتقدمها مشفوعة بإماءة مشجعة متسامحة هذه المرة. ظل أشرف ينقل نظراته بينهما محاولا نسيان صورة جسمها المحبوك، بكتفيها العريضتين، وصدرها الباذخ تحت البلوفر الموهير الغالي، وبوركيها المبرومين المتماسكين في الجينز الأمريكاني الأصلي. كانت قد أحست بنظرته المطوفة فوق وفرتها، فمالت إليه ممتنة بنغمة حنون مثيرة وبكلمات بريئة:

- شكرا على زيارتك لنا.

ضم أشرف حاجبيه الكثيفين يتأملها بقلق. كان يشعر بروحها الأنثوية كشجرة حية تُزهر مع مطلع الربيع، غير آبهة إلا لرغبتها الفوارة في الإثمار. كانت مغوية وجميلة في قوتها ودلالها الذاهل إلا عن نفسه. حدثه شيطانه أن يمد يده يتحسس الثمرة، أن يقطفها بأصابعه المتعطشة إلى خصبها المدوخ، لكن ظلا داكنًا من شك وماضٍ راح يزحف على قلبه ورغبته رافضا التسليم.

التفتت إلى كمال ثانية، وقد استعادت بسرعة سيادتها الملكية. سألت بنبرة مثقلة بالمعاني:



- رفض ناجي المجيء؟

- ذهب يصلي في الكنيسة.

أجابها باختصار، وفيما يشبه التعذيب. لاحت من أشرف نظرة جانبية إلى رحاب، فأبصر رعشة خفيفة تلم بجسدها المتكور على نفسه في المقعد الوثير، كآهة ضعيفة لا تخرج من شخص يعذبه احترامه الضائع لنفسه. حدثه قلبه:

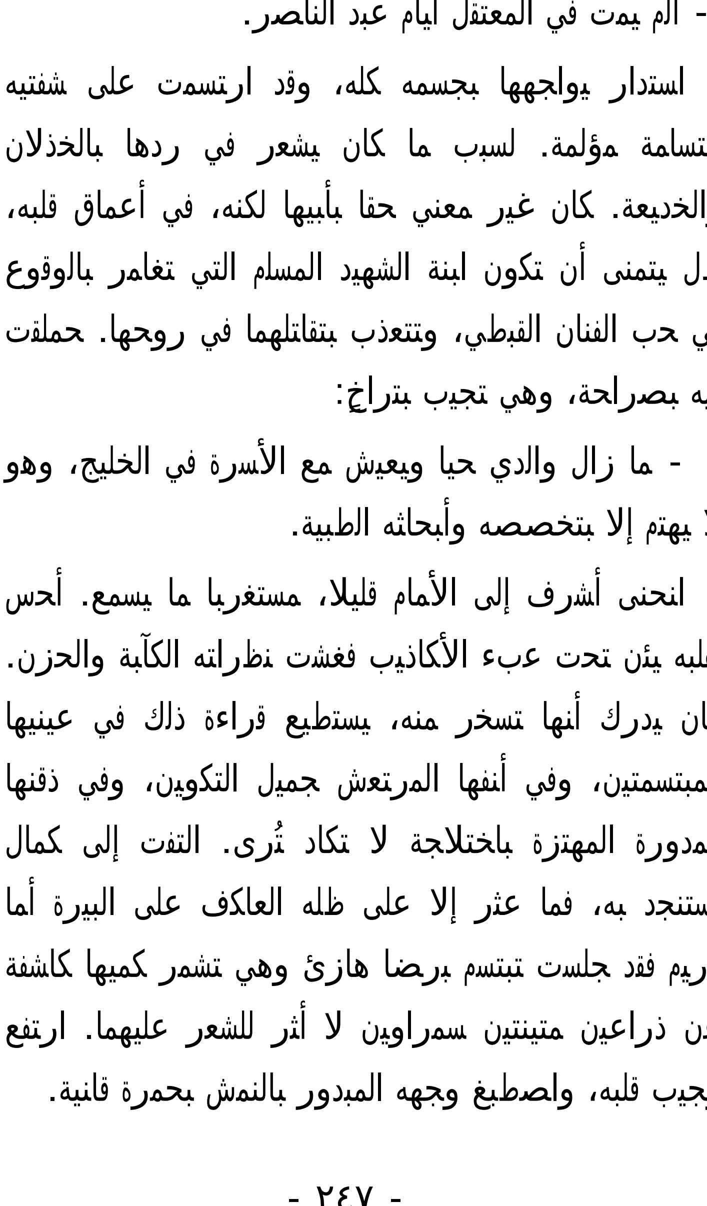
- عنيدة، لا تداري كذبها وتكلفها.

كانت الفيللا هادئة جدا، بينما راحت ضجة أبواق السيارات المارقة على طريق الكورنيش تتسلل إليهم خافتة، تشي بالتواصل العجيب غير المفهوم لحلم الحياة المكرور. جلس كمال ساكنًا يرشف البيرة ببطء على جرعات كبيرة وهو سادر في أفكاره غير عابئ بشيء مما يجري. اندفع أشرف سائلا رحاب:

- عرفت أن والدك كان قياديا في جماعة الإخوان أيام سيد قطب.

رفعت عينيها في استغراب، ثم زمت حاجبيها تتفرس فيه غير فاهمة. ردت مدهوشة:

- لم تكن لوالدي علاقة بجماعة الإخوان.



- ألم يمت في المعتقل أيام عبد الناصر.

استدار يواجهها بجسمه كله، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة مؤلمة. لسبب ما كان يشعر في ردها بالخذلان والخديعة. كان غير معني حقا بأبيها لكنه، في أعماق قلبه، ظل يتمنى أن تكون ابنة الشهيد المسلم التي تغامر بالوقوع في حب الفنان القبطي، وتتعذب بتقاتلهما في روحها. حملقت فيه بصراحة، وهي تجيب بتراخٍ:

- ما زال والدي حيا ويعيش مع الأسرة في الخليج، وهو لا يهتم إلا بتخصصه وأبحاثه الطبية.

انحنى أشرف إلى الأمام قليلا، مستغربا ما يسمع. أحس بقلبه يئن تحت عبء الأكاذيب فغشت نظراته الكآبة والحزن. كان يدرك أنها تسخر منه، يستطيع قراءة ذلك في عينيها المبتسمتين، وفي أنفها المرتعش جميل التكوين، وفي ذقنها المدورة المهتزة باختلاجة لا تكاد تُرى. التفت إلى كمال يستنجد به، فما عثر إلا على ظله العاكف على البيرة أما مريم فقد جلست تبتسم برضا هازئ وهي تشمر كميها كاشفة عن ذراعين متينتين سمراوين لا أثر للشعر عليهما. ارتفع وجيب قلبه، واصطبغ وجهه المبدور بالنمش بحمرة قانية.

كان يحس بطعم الرماد في حلقه وهو يهمس لحاله متسفزا:

- لن يجعلوني مسخرتهم الليلة. أبداً.

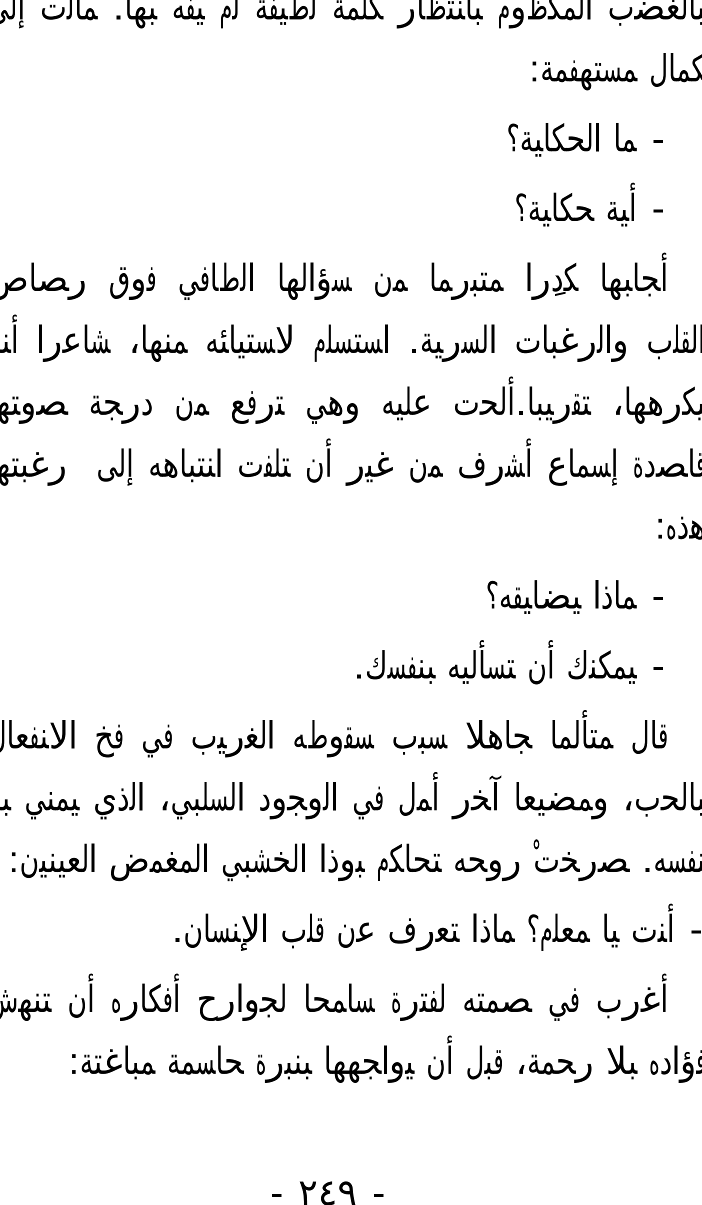
فجأة نهضت رحاب كمن يتذكر ويخاف أن يضيع قطار آخر الليل. أجالت فيهم نظرة مضطربة وهي تهمس بصوت خفيض معتذر:

- عندي صداع، سأتناول قرص أسبرين، وأدخل لأنام، تصبحون على خير.

اختفت من أمامهم بسرعة، شعر بها أشرف تنداح في العتمة الداخلية كدخان سابح، كالغيمة تذروها ريح الخوف والانتظار، خوف ماذا؟ وانتظار من؟ هذا ما كان يجهله تماما. لكن قلبه الحاقد عليها وعليهم، قلبه المرتج على إيقاع ضحكهم الصامت المستهزئ، لا يزال يلتهب بغليانه البركاني مقهورا على رحمة تدميره لهم. رد ساخرا:

- وأنتِ.

جلست مريم تراقبه محاولة السيطرة على خوف شاذ يعصر قلبها. ارتعبت لرؤية خطوط الابتسام وقد سكنت على وجهه المنقبض، كقناع، وراحت تتعلق بشفتيه المرتعشتين



بالغضب المكظوم بانتظار كلمة لطيفة لم يفه بها. مالت إلى كمال مستهفمة:

- ما الحكاية؟

- أية حكاية؟

أجابها كدِرا متبرما من سؤالها الطافي فوق رصاص القلب والرغبات السرية. استسلم لاستيائه منها، شاعرا أنه يكرهها، تقريبا.ألحت عليه وهي ترفع من درجة صوتها قاصدة إسماع أشرف من غير أن تلفت انتباهه إلى رغبتها هذه:

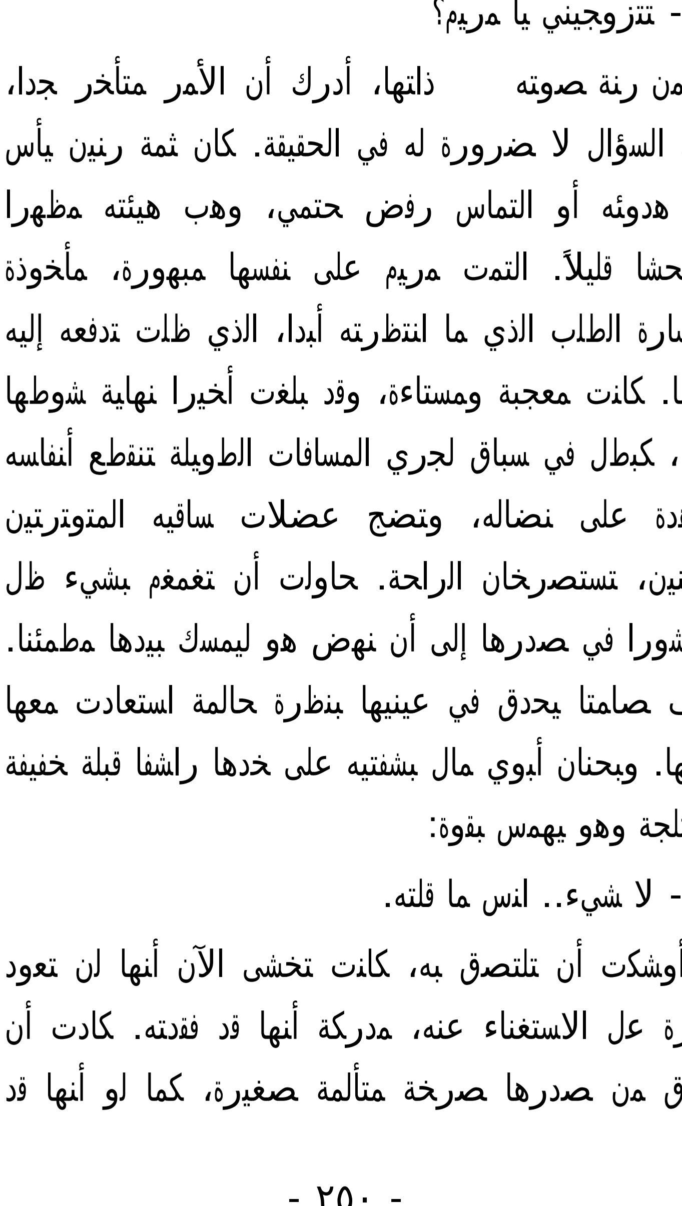
- ماذا يضايقه؟

- يمكنك أن تسأليه بنفسك.

قال متألما جاهلا سبب سقوطه الغريب في فخ الانفعال بالحب، ومضيعا آخر أمل في الوجود السلبي، الذي يمني به نفسه. صرختْ روحه تحاكم بوذا الخشبي المغمض العينين:

- أنت يا معلم؟ ماذا تعرف عن قلب الإنسان.

أغرب في صمته لفترة سامحا لجوارح أفكاره أن تنهش فؤاده بلا رحمة، قبل أن يواجهها بنبرة حاسمة مباغتة:

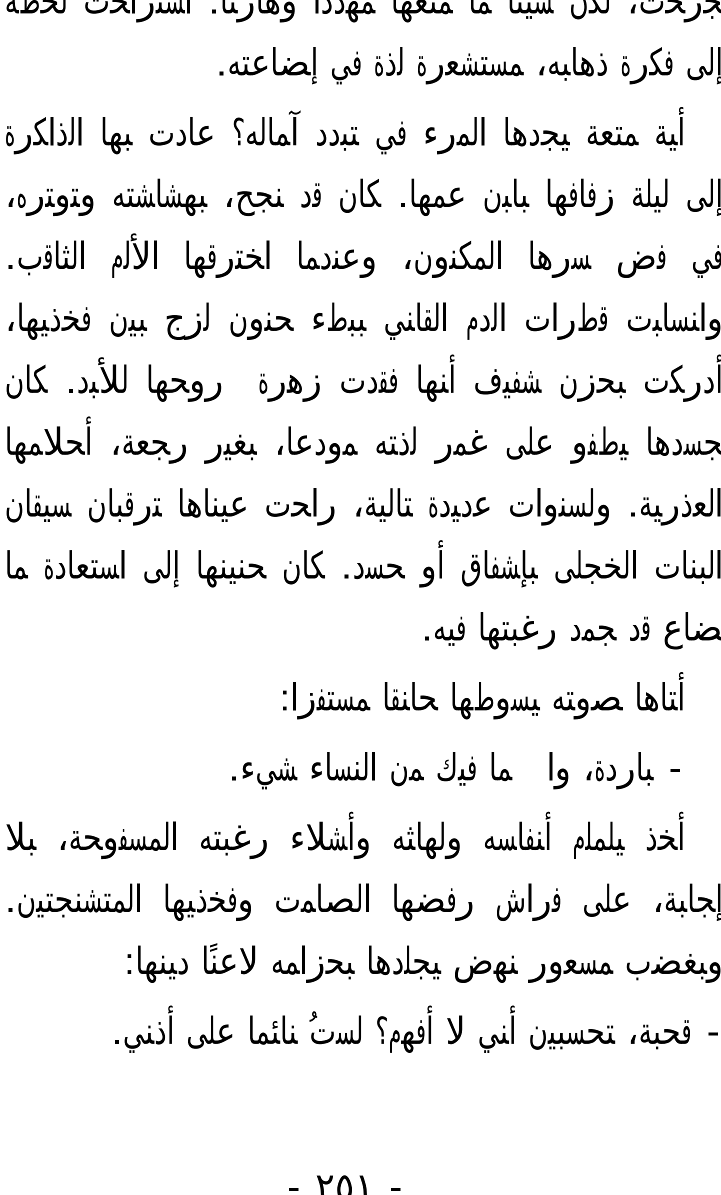


- تتزوجيني يا مريم؟

من رنة صوته ذاتها، أدرك أن الأمر متأخر جدا، وأن السؤال لا ضرورة له في الحقيقة. كان ثمة رنين يأس في هدوئه أو التماس رفض حتمي، وهب هيئته مظهرا متوحشا قليلاً. التمت مريم على نفسها مبهورة، مأخوذة بجسارة الطلب الذي ما انتظرته أبدا، الذي ظلت تدفعه إليه دوما. كانت معجبة ومستاءة، وقد بلغت أخيرا نهاية شوطها معه، كبطل في سباق لجري المسافات الطويلة تتقطع أنفاسه شاهدة على نضاله، وتتضح عضلات ساقيه المتوترتين بالأنين، تستصرخان الراحة. حاولت أن تغمغم بشيء ظل محشورا في صدرها إلى أن نهض هو ليمسك بيدها مطمئنا. وقف صامتا يحدق في عينيها بنظرة حالمة استعادت معها ثباتها. وبحنان أبوي مال بشفتيه على خدها راشفا قبلة خفيفة مختلجة وهو يهمس بقوة:

- لا شيء.. انس ما قلته.

أوشكت أن تلتصق به، كانت تخشى الآن أنها لن تعود قادرة عل الاستغناء عنه، مدركة أنها قد فقدته. كادت أن تُطلق من صدرها صرخة متألمة صغيرة، كما لو أنها قد



جرحت، لكن شيئًا ما منعها مهددا وهازئاً. استراحت لحظة إلى فكرة ذهابه، مستشعرة لذة في إضاعته.

أية متعة يجدها المرء في تبدد آماله؟ عادت بها الذاكرة إلى ليلة زفافها بابن عمها. كان قد نجح، بهشاشته وتوتره، في فض سرها المكنون، وعندما اخترقها الألم الثاقب. وانسابت قطرات الدم القاني ببطء حنون لزج بين فخذيها، أدركت بحزن شفيف أنها فقدت زهرة روحها للأبد. كان جسدها يطفو على غمر لذته مودعا، بغير رجعة، أحلامها العذرية. ولسنوات عديدة تالية، راحت عيناها ترقبان سيقان البنات الخجلى بإشفاق أو حسد. كان حنينها إلى استعادة ما ضاع قد جمد رغبتها فيه.

أتاها صوته يسوطها حانقا مستفزا:

- باردة، وا ما فيك من النساء شيء.

أخذ يلملم أنفاسه ولهاثه وأشلاء رغبته المسفوحة، بلا إجابة، على فراش رفضها الصامت وفخذيها المتشنجتين. وبغضب مسعور نهض يجادها بحزامه لاعنًا دينها:

- قحبة، تحسبين أني لا أفهم؟ لستُ نائما على أذني.

في ذلك الزمن كان إنسان جسدها يغص بالضجر والفزع، فتصر على أسنانها ألما ولذة، ليتبرعم ورد الروح معاقًا فرحا:

قالت لأبيها بإصرار لا يقبل النقض:

- حياتي معه مستحيلة.

لم يتمهل الشيخ طويلا أمام تحفظات العائلة ومخاوف الفضيحة، عارفًا ما تغص به الحياة من خيبات لا ضرورة لانسالها. عندما تسلمت صك حريتها انزوت في جناحها تبكي وتضحك، قبل أن تجف دموعها، نهائيا، عازمة على الرحيل.

انتفضت كما لو اعترتها برودة مفاجئة، وبدت هشة ومترددة وهي تهمهم:

- نوفمبر فظيع هذه السنة.

أصاخ كمال السمع لأصوات الكروان تنبعث من مكان ما في حديقة الفيللا، تهب الملك لصاحب الملك، وأمام ضوء القمر الحاسر رفع وجهه مستسلما للنسيم المتسلل من ناحية الغرب، أحس بجسده يرتجف هونًا، ولسبب غمض عليه، أخذ

يستشعر الوجيب العنيد لقلبه براحة. استجمع كل إرادته هامسا بهدوء:

- سأذهب.

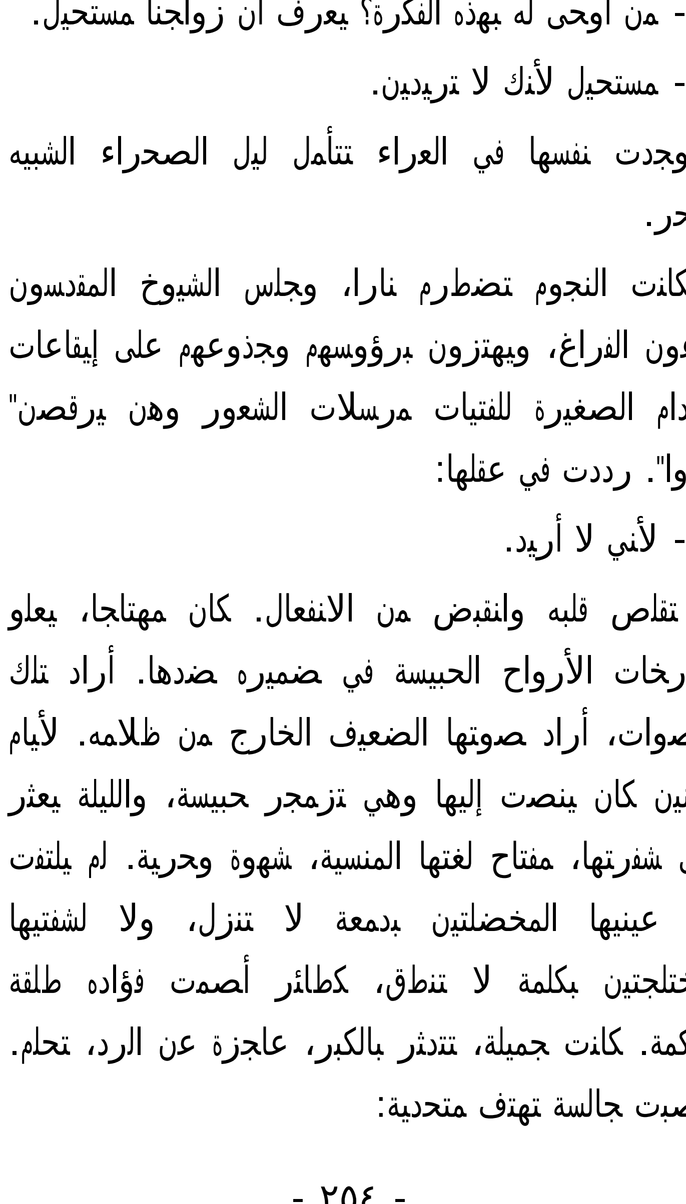
خطا باتجاه الباب بقدمين ثابتين يغالب رغبة قاهرة في البقاء. أراد أن يلتفت إليها ويحدق في عينيها. ود لو يرى طائر روحها يرفرف محزونا ويحط على كتفه ليغني له أغنية حب. عبس من الألم، ومن عضة الحب، ثم ما عاد يفكر في شيء. اندفع أشرف يتبعه في صمت قبل أن توقفه كلمات كمال:

- أحتاج إلي المشي وحدي.

شعر أشرف بوهج النار التي تأكل قلب صديقه، وصعب عليه أن يوافق على مبدأ إفلاس الحب وانتصار الطبقة. ظل حابسا أنفاسه لوقت طويل ليطلقها أخيرا محزونة وكاوية. سدد نظرته إلى عينيها وهو يسأل بلا مواربة:

- لماذا تلعبين بعواطفه؟

أفاقت مصدومة على صراحة اتهامه. رفعت وجهها إليه متلمسة منه ما لا تدري من العون. قالت بمزيج من الأسى والتوسل والاستعلاء المموه:



- من أوحى له بهذه الفكرة؟ يعرف أن زواجنا مستحيل.

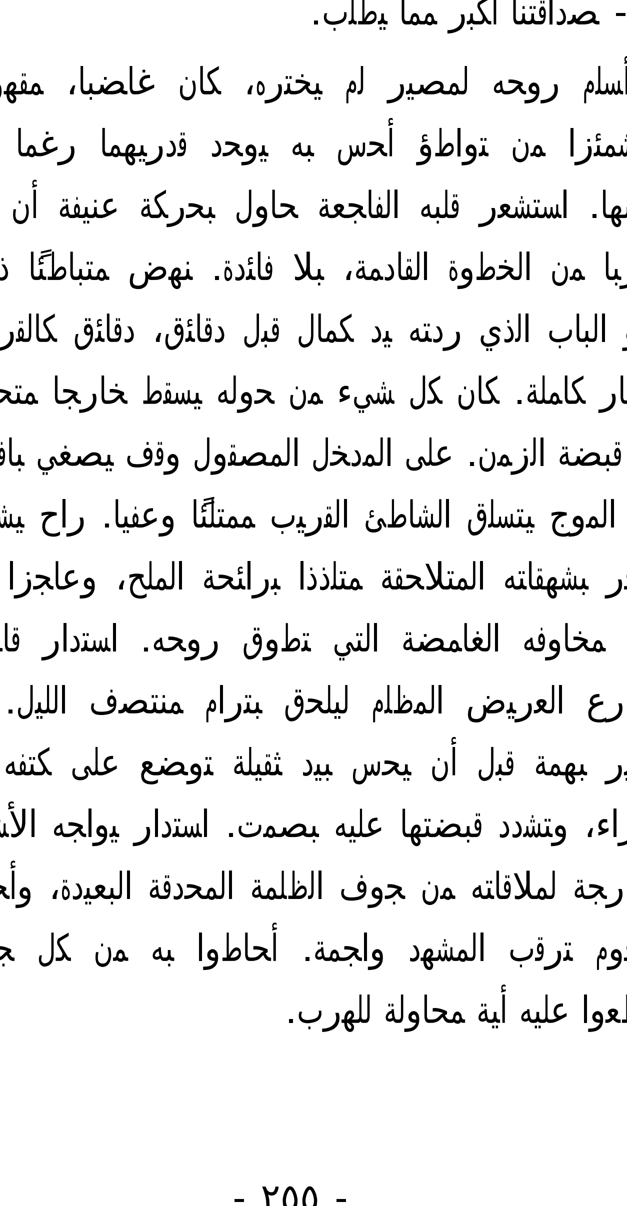
- مستحيل لأنك لا تريدين.

وجدت نفسها في العراء تتأمل ليل الصحراء الشبيه بالبحر.

كانت النجوم تضطرم نارا، وجلس الشيوخ المقدسون يرعون الفراغ، ويهتزون برؤوسهم وجذوعهم على إيقاعات الأقدام الصغيرة للفتيات مرسلات الشعور وهن يرقصن" الهيوا". رددت في عقلها:

- لأني لا أريد.

تقلص قلبه وانقبض من الانفعال. كان مهتاجا، يعلو بصرخات الأرواح الحبيسة في ضميره ضدها. أراد تلك الأصوات، أراد صوتها الضعيف الخارج من ظلامه. لأيام وسنين كان ينصت إليها وهي تزمجر حبيسة، والليلة يعثر على شفرتها، مفتاح لغتها المنسية، شهوة وحرية. لم يلتفت إلى عينيها المخضلتين بدمعة لا تنزل، ولا لشفتيها المختلجتين بكلمة لا تنطق، كطائر أصمت فؤاده طلقة محكمة. كانت جميلة، تتدثر بالكبر، عاجزة عن الرد، تحلم. انتصبت جالسة تهتف متحدية:



- صداقتنا أكبر مما يطاب.

أسلم روحه لمصير لم يختره، كان غاضبا، مقهورا، ومشمئزا من تواطؤ أحس به يوحد قدريهما رغما عنه وعنها. استشعر قلبه الفاجعة حاول بحركة عنيفة أن يجد مهربا من الخطوة القادمة، بلا فائدة. نهض متباطئًا ذاهلا نحو الباب الذي ردته يد كمال قبل دقائق، دقائق كالقرون، أعمار كاملة. كان كل شيء من حوله يسقط خارجا متحررا من قبضة الزمن. على المدخل المصقول وقف يصغي بافتتان إلى الموج يتساق الشاطئ القريب ممتلئًا وعفيا. راح يشرب البحر بشهقاته المتلاحقة متلذذا برائحة الملح، وعاجزا عن نفي مخاوفه الغامضة التي تطوق روحه. استدار قاصدا الشارع العريض المظلم ليلحق بترام منتصف الليل. غذّ السير بهمة قبل أن يحس بيد ثقيلة توضع على كتفه من الوراء، وتشدد قبضتها عليه بصمت. استدار يواجه الأشباح الخارجة لملاقاته من جوف الظلمة المحدقة البعيدة، وأخذت النجوم ترقب المشهد واجمة. أحاطوا به من كل جانب ليقطعوا عليه أية محاولة للهرب.

وقف بينهم حائرا مستسلما نافيا عن فكره أدنى رغبة في المقاومة. ربت قائدهم على كتفه وهمس مبتسما:

- لم تجعلنا ننتظر طويلاً، امش معنا ساكتًا.

صعدوا به إلى صندوق العربة نصف النقل المغطى بالمشمع المشدود السميك، وجلس ساكنا بين حارسيه القويين. ظلت نظراته متعلقة بآخر خيوط نور مصابيح الكورنيش الفسفورية تنثال غيمتها الذهبية، وتنسكب متلامعة على أسلفت الطريق. ارتفع القمر أمامه، فجأة هائلا مرعبا فغمغم لنفسه:

- أية شفاهٍ ترشف حياتي المسفوحة فوق وحل الطريق؟

(٢٠)

باختفاء الركب الحزين عن مجال الرؤية، برز شبحه المنزوي من عند زاوية المنعطف العابق برائحة النفتالين والرطوبة، ومضى في سبيله خاويا يبحث عن الخلاص في الظلام، فكر لنفسه:

-حسِم الأمر، وتقرر مصيري بشكل نهائي.

كان يغيب في دربه الملفوف بالمجهول واللعنة وقد أحنى ظهره بإذعان، ومن فوقه أخذت النجوم تتأرجح وتنطفئ برقة ناشرة على الكون سلاما كحد السيف.

(٢١)

انحنت على رأسي المستريح فوق الوسادة. أنارت ابتسامتها تحيط الصغير النائم وتحيطني بظلها السابغ. جثمت هادئا ألاحق أنفاسه الواهنة المنتظمة. تضوع عطرها على صفحة وجهي وفوق نحري ورقبتي. امتدت يدها بحذر إلى شعره المرسل الحار، وهمت تقبله وتذرف بعض الدموع. عيناها المتعبتان المخضلتان تفتشان في كل اتجاه عن بعض السلوى. صارت يقظتي نهائية، وجافاني النوم، وسلطانه اللذيذ إلى غير رجعة. من بعيد؟ من نجم هائل بعيد، غمرني ضياؤها القوي الشفيف ينير ظلمات روحي المسدلة على ذكرياتها وأشباحها، على سرها وتطلعها، على قلة حيلتها. همست محزونة:

- نسيتني.

طغى أمل النادم على كآبتي، واخترقت كلمتها المعاتبة قلبي كنصل رهيف، أستطيع أن أحتمل كل شيء عدا صوتها اللائم الرفيق. ابتهلت إليها من صمت روحي أن تشتد علي أكثر، أن تقسو بقسوتها لا برحمتها، وأن توغر سرساب القنوط الناز بفؤادي. أيقنت ضياعي وانتظاري الملهوف لنعمة تجليها فصرخت يائسا:

- لا تتركيني وحدي.

ابتسمت مشفقة من عجزي وجهلي. كانت حرارة ندائي قد أنهكتها، فبان على وجهها الضجر، وفوق التلال القريبة تجمع شفق صامت وحلق عصفور المساء بأجنحته العريضة الرمادية. قالت بحكمة:

- كل يعود إلى بيته.

جمرات الروح خمدت وغدت رمادا، والأرض يابسة مجللة بعار التحاريق، لا بيت ولا أب، فمن ينفخ اليوم في الرماد؟

رمى بحقيبة أوراقه الكبيرة فوق صدري، كانت الأوراق، تضغط ضلوعي بثقلها الموجع، وتكتم أنفاسي المحبوسة في رئتي. كيف تختزن الصفحات الفانية كل هذه الكثافة؟ تأملته

من جديد، يتراقص نوره مؤذنًا بالتلاشي، ويتلون وجهه بوجهها، أمي وأمه، أم السماء والأرض. كان يعاني من أمل غامض، أهذا ما أنتظر؟ راح فضاء مرعب ينفتح أمامي وبداخلي، هزني بقوة:

- اقرأ.
- ما أنا بقارئ!
- اقرأ.
- ما أنا بقارئ!
- اقرأ باسمي....

أرتعد. ترقد الصفحات المسودة بخطة الواجف الثابت في خزينة الروح الفولاذية بانتظار يقظة صغيره وسؤاله. قانعا بدور الخادم، أقبض على الأوراق، برجاء التائه في خريطة نجوم الصحراء يجهل قراءتها، أستمسك بها حاسبا أنها فرصتي الأخيرة في النجاة. أن أرويها. فهل يعني ذلك شيئًا للعالم؟ هل يمكن إنقاذه في الدقائق الخمس الأخيرة من عمر الكون؟ همس بسماحة ساحبا ظله عن ذاكرة حواسي:

- عندما تنوي تتوضح كل الغوامض.

قفزتْ رحاب أمامي في خمارها الواسع الذي ابتاعته من بائع هندي هناك. سلمت علي وهي تلف يدها بطرف طرحتها مخافة نقض وضوئها. قالت بجدية جهمة:

- دخلتُ الإسكندرية من بوابة العبيد.

أتأملها مستفهما. يتقبض بياض وجهها الهش على نظرة حالمة ونصف ابتسامة ساخرة متحدية، فلا أجرؤ على سؤالها. تعلمني:

- لما بنى الإسكندر مدينته متحديا إرادة الآلهة. أمر مهندسيه بفتح سبع بوابات كبيرة في أسوارها العالية، تطل بها على الوجود من جهاته الأربع، كانت الأولى بوابة البحر، والثانية بوابة الصحراء، والثالثة بوابة الشمس والرابعة...

- بوابة القمر.

أكملت غير ملتفتة إلى مداخلتي:

- بوابة الريح، والخامسة بوابة الملوك، والسادسة بوابة العبيد، أما السابعة...

أطبقت فجأة فمها اللذيذ، وغرقت في بحر ذاكرتها المرتطم، تستعيد تاريخ المدينة الضائع، منقبة، عن مشابهة ما

مع تواريخ تخال أنها تعرفها. كانت تصارع موج النسيان بلهفة كي تجد الجواب. قلت مستثارا أستحثها:

- السابعة....

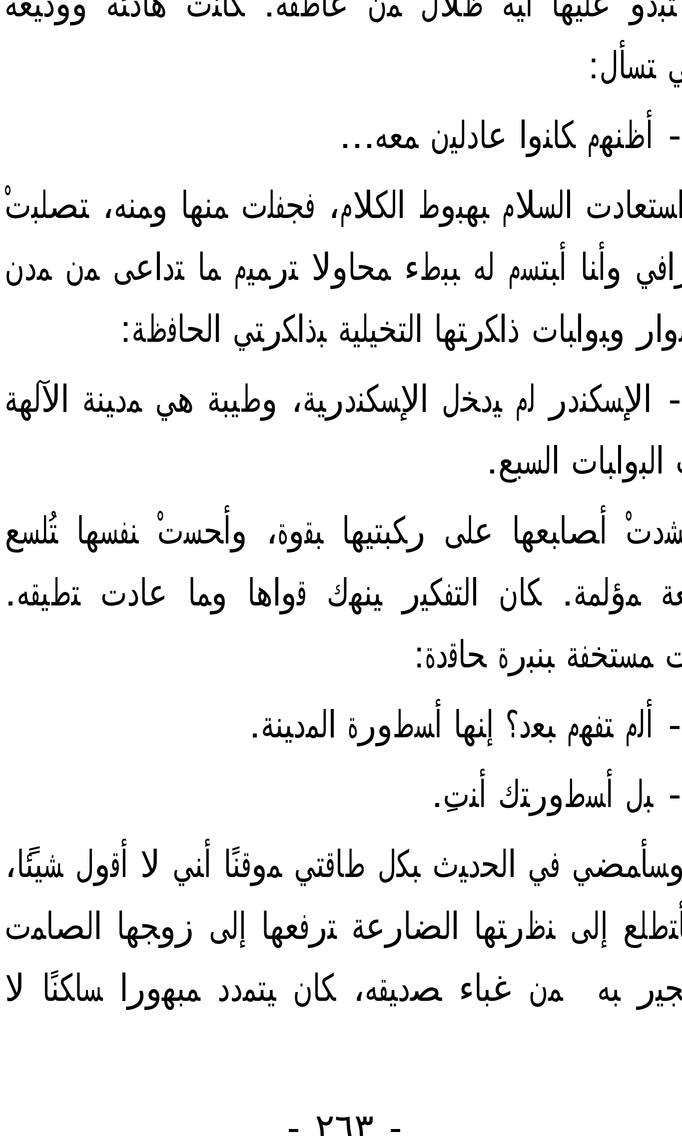
- لا، لا أتذكر.

سمعتها تئن بصمت تغالب إحساسا متناميا بالغثيان جعل أفكارها تتقاص متشنجة، قبل أن تتابع بصوت متحير شاكٍّ:

- ربما كانت بوابة الآلهة، فعلا كانت بوابة الآلهة التي اختار الفاتح دخول المدينة منها بعد رجوعه، مستهزئا بتحذيرات ونبوءات عرافيه الذين أطلعوا على غضب أرباب الأوليمب.

سكتت لحظة تقلّب في شرود صفحات مجلتها النسائية الملونة المصقولة، ثم تؤكد بصوت متوله عاشق:

- كان رجلاً، شابا وغازيا لا يؤمن إلا ببطولته، ويسعى ليواجه قدره وجها لوجه على حكمة الحكماء وخنوثة المخنثين، لكن الآلهة عرفت كيف تثأر من غروره وتحطم كبرياءه، فأضاعت جثمانه ورمت به لوحوش البحر.



وضعت المجلة فوق الطاولة القريبة، وجلست تفكر دون أن تبدو عليها أية ظلال من عاطفة. كانت هادئة ووديعة وهي تسأل:

- أظنهم كانوا عادلين معه...

استعادت السلام بهبوط الكلام، فجفلت منها ومنه، تصلبتْ أطرافي وأنا أبتسم له ببطء محاولا ترميم ما تداعى من مدن وأسوار وبوابات ذاكرتها التخيلية بذاكرتي الحافظة:

- الإسكندر لم يدخل الإسكندرية، وطيبة هي مدينة الآلهة ذات البوابات السبع.

شدتْ أصابعها على ركبتيها بقوة، وأحستْ نفسها تُلسع بمتعة مؤلمة. كان التفكير ينهك قواها وما عادت تطيقه. ردت مستخفة بنبرة حاقدة:

- ألم تفهم بعد؟ إنها أسطورة المدينة.

- بل أسطورتك أنتِ.

وسأمضي في الحديث بكل طاقتي موقنًا أني لا أقول شيئًا، وسأتطلع إلى نظرتها الضارعة ترفعها إلى زوجها الصامت تستجير به من غباء صديقه، كان يتمدد مبهورا ساكنًا لا

بسحر خيال حكايتها وحسب، بل وبصدقها التاريخي قبل كل شيء آخر. كان يقول:

- التاريخ هو ما نخترعه من تاريخ.

تسرب الألق من عينيها، وما عادت متلهفة إلى منْحي بعضا من إيمانها القديم. همستْ بمذلة:

- بل أسطورتي أنا.

البحر يغزوني بدفقه، وأنا أرتقي المصاطب الخرسانية التي درجها اليهود من سفح الرمل إلى هاوية الرعب. أتجول على الرمل باتجاه الصخور حافي القدمين، إحساس لذيذ بالنشوة والخطر في تسلقي بقدمين عاريتين فوق ذلك الخليط الناعم الوعر من الصخور. ريح الأعالي تصدني، وتدفع بوجهي وصدري المفتوحين إلى الوراء ترجع بي من حيث أجيء. أعاند مشيئة الريح، وأفكر في أسطورتي، متقدما بتصميم نحو الذروة. الأيام تمر في وكُوبها منصهرة متلاحمة لا نهارات فيها ولا ليالي، وأنا أحلم، لا أزال، بالذروة، ناسجا من حلمي عباءة أسطورتي الشفقية. سيثب الموج وظلامه ماحيا إشارات ذروتي وعلاماتها الربانية، لأدرك أني عمري ضيعتُ، وما أفلحت حتى في تعميق تصديقي بها. ماذا لدي

لأحاكم أساطيرهم به؟ لأدين قلوبا وأبرئ قلوبا؟ كانوا ينسجون قصصهم عن بلد مسحور، وعن أطفال كالأقمار بين السحب، وعن نجوم تحترق ساقطة في الغمر المعتم. اخترعوا لأنفسهم، لا للعالم، أغنية، وما استراحوا يوما لنشوة الطرب. أرمقهم الليلة، جميعهم، بحسد مهما كذبتهم الحياة. ألثم أياديهم الرافضة بازدراء عطية الأمان الإلهي بحكمة الحكماء وخنوثة المخنثين، وأقبل انتخابهم الأخير لي. ينفتح بيت قلبي على مصراعيه لضيافتهم، لم أعد لهم خبز المساء، ولا غسلت أقدامهم المتقرحة بالماء والملح، بل عاندت، بحبي، واحتملوا بصبرهم الجميل، وأملهم في الآن وقد انصرفوا كلهم، أمسى بيتي مهجورا. وحدها أنفاسه الصغيرة تُبقي على بوابته مواربة، هل يرجعون؟ سيرجعون. كان القمر يناضل كي يطلق نفسه من كلاّبة الغيم فوقي. ومن لُجة الظلام المتربص تحتي أتاني صوته عميقًا نابضا ومرتعشا. كان يدعوني:

- أنت لي.

لبيت نداءه، وقفزت. مرة واحدة قفزت.

(٢٢)

السنون تتراكض كقطيع غيم مفزوع، في السماء تتطلع طيور الأحلام الذهبية بأمل للفجر القادم، وعلى الأرض يتقد قلب الإنسان كالجمرة متخيلا أنه ماضٍ نحو أبد الفجر، وأن العالم، لا محالة، يتبعه. أرنو إلى الشمس متوسلا الضياء والدفء. آه لو احترق بالنداء! لو تحملني أجنحة الملائكة إلى خوف نار الحياة المركزية! تجلس عمتي تكفكف عبراتها صامتة، وتُقبل خطاب ابنها القصير. راحت تنازع نفسها وتهمس بضراعة من يريد من الناس أن يكذّبوا له مخاوفه:

- لن يعود، تزوج هناك ولن يعود.

داخل المظروف باتت صورة العروس منسية، فما أخرجتها الأم المحزونة لضياع ولدها. امتدت أصابعه تسحب الصورة بوجل مفكرا في أشرف الذي لا يشبه مخلوقات التراب. صار بعيدا، عالقًا بروسية بيضاء ذات عينين زرقاوين وشعر أشقر ناعم. لاحت ابتسامتها دقيقة مجهدة،

وبنيتها ضعيفة ضامرة على غير ما ظننتُ الروسيات. قالت العمة بحقد نسوي:

- انظر لعروسة الدكتور! صفراء وناشفة.

كتمتُ ضحكة كادت أن تفلت من بين شفتي، وأجبتُ معزيا أو مناكدا:

- سيرجع بها إليك، وتأكل من يديك، وتسمن وتربرب.

استراحت إلى إغراء كذبتي السهل. أرادت أن تضحي في سبيل سعادة ابنها، وهي تمتلكه. نفت عن ذاكرتها حلمها المنذر عن الغراب النازل بهدوء فوق عشة أفراخها، يخفق بجناحيه بقوة، ولا يطير. كركرتْ بالضحك:

- يا خوفي منك أنت يا ساهي.

قلتُ لمحمد الممدد بالشورت والفانلة الداخلية في عز البرد:

- كتب لي أنه يوشك على الانتهاء من الدكتوراه، أنه سيذهب إلى كوبا أو نيكارجوا، وما ذكر شيئًا عن عودته.

رفع حاجبيه الأسودين الكثيفين باندهاش وحيرة:

- ولماذا يذهب بعيدا؟ كل مكان هو هنا.

(٢٣)

كانت الأعوام التي أعقبت تخرجنا في الجامعة تأخذنا، يوما بعد يوم إلى ذلك الجانب المعتم من النهار، فمن قاعات المحاضرات التي ما تعلمنا فيها شيئًا إلى طوابير الثبات والخطوة المعتادة في جيش لن يحارب، ثم إلى الشارع. لا عمل، ولا أمل في عمل. طرقنا كل الأبواب من مكاتب صحف المعارضة، وبوتيكات المجلات العربية، إلى مطابخ معسكرات البترول الأمريكية بالعلمين ومطروح وشقير. وبين وقت وآخر، تسلل إلى بيت أبي ليضع في يدي جنيهات الإنقاذ من التضور جوعا، ويبيت محمد علي باب السفارة الأنيقة بالمهندسين شارحا لهم قضيته، ومتوسلا أن يعثروا له علي الرجل الناسي هناك.

وفي الأعياد وشم النسيم يخرج إلى الأهرامات وحديقة الحيوان يصور المتنزهين بالكاميرا العتيقة، بنصف جنيه للكارت. غول لطيف ينهش أعماقنا، ويفتح عيوننا على صدع الوجود وسره المؤتلق. أراد الزمن تسليمنا النهائي، وانتصب كبرياؤنا رافعا راية التمرد لآخر نفس، نتحرق إلى عمل ينقذنا، مثقلين بحس الخواء والإثم، أحلم بارتداء حزام ناسف حول وسطي، مخترقًا منطقة الحزام الأمني بجنوب لبنان، حاملا صورة سناء محيدلي قرب قلبي، بينما أبحث بجدية عن تأشيرة دخول لهولندا أو فرنسا أو إيطاليا، عازما على الفرار بجلدي من هذا كله. قلت غاضبا:

- سأعبر هذا البحر بلا رجعة.

- أنا سأذهب، وستبقي أنت إلى النهاية، إنك أكسل من أن تنقل رجلك اليسرى لتحاذي اليمنى.

رنوتُ إليه مستاء وشاعرا بالخزي، كان الحق معه، ورحت أردد لنفسي لائما:

- عبد ابن عبد.

أقبع في المحاق الأزرق وحيدا، لم يهزمني شيطان، بل أب، مستغربا رغبة صاحبي اللجوج في لقاء الأب. سألني بغتة:

- ألا تقدر صاحبتكم الخليجية على مساعدتي في هذه المسألة؟ إنها بلدها على أي حال.

- ليست صاحبتي يا محمد.

- سأتوسل إليها، وأبوس قدميها إذا أرادت، أي شيء أهون من هذا العذاب.

كان الإنهاك باديا عليه، جلس يرتعش بالغضب، ويغلي من اليأس، وأدركت أنه ما تبقى ثمة أمل، أيمكن حقًا أن تذوي زهرة الكبرياء في صحراء السأم والكدح؟ نظرت إليه بثبات جعل عينيه تبدوان ثقيلتين وتجفلان. قال بانكسار من يسلم سلاحه إلى عدو عمره:

- قضيتي عادلة.

جلستُ أفكر في مريم محاولا استعادة ذكرى بعيدة شائهة، وعلى الفور تمثل لي البحر بقسوته الرصاصية الذائبة، وإيقاعه المثير. غزاني شوق قديم إلى معانقة جسد الشاطئ البارد. قمتُ أربت على كتفه المتهدلة بحنان دهشت له نفسي.

(٢٤)

تسمر أمام البورتريه في صدر قاعة العرض بالأتيليه مفكرا:

- مذهل.

راح قلبه يدق في صدره مرتعبا. حبس أنفاسه محدقا في عينيها المطفأتين ووجنتيها الشاحبتين كوردة ذاوية. أحس بخوف الفرشاة وتصميمها الجاهل على الهرب من حياة العينين وتاريخهما، وهي تنزلق بحساب شديد على سطح التوال. توقف قلبه فجأة:

- ستصارع اندفاع الحياة بداخلها وستنتصر.

ظل يتحرك ببطء متجولا في القاعة الواسعة، ويحيل ببصره بين اللوحات المعروضة واحدة بعد أخرى، ليعود إلى صورة رحاب.

قلت:

- كانت تريد أن تتعرف بك.

- مفهوم.

استدرت متضايقًا من غموض رده، وما فهمت هذا المفهوم الذي يجيبني به. قال كمن يحادث نفسه:

- غريب، لكنه لن يكون إلا على هذا النحو.

رأيته طالعا من الأعماق السفلى، ملوثًا بالطين ومزهوا كملاك، وفيما بين رحاب وبينه وقف أمامي ناجي بأساه الأبكم وترفعه على الاعتراف.

- لست متحمسا لتعارفكما معا.

ضحك من كلامي وصوتي، وقال هازئًا:

- لن تتخلى عن النضال أبدا. غبي.

رن الصمت لثوانٍ، وارتفع قمره في كبد سمائي. وضع كفه على كتفي يشجعني بحركة أبوية مدروسة، ويواصل:

- لست مهرجا، لن تسيء الظن بي، حياتنا قصيرة ولا تكفي حتى لدفن الألم، فهل يتبقى لنا من الوقت لنتعلم كيف نعيش؟

(٢٥)

قبلتُ دعوة مريم لحضور حفل الاستقبال المقام على شرف معرضها بفندق فلسطين. أهتم محمد بتجفيف شعره الطويل بالسشوار منبها على الحلاق الثرثار بتنعيم ذقنه، وتعطيرها قبل الذهاب. راح يصفر بهدوء مستمتع لحنًا قديما، مبتسما لي بين الحين والآخر. سأل بلهفة جديدة عليه:

- ستكون هناك؟

أجبته بهزة مؤكدة من رأسي عارفًا من يقصد بسؤاله. سيلتقيان يوما، بي أو بدوني سيلتقيان، فما أهمية كل تلك المحاذير والهواجس؟

تسللنا داخلين إلى قاعة الاحتفالات الضخمة كشاحذين في البنطلونات الجينز والقمصان الكاروه الرخيصة إنتاج المحلة.

تجاهلنا بصعوبة نظرات الخدم المتحفزة للإمساك بنا، وإلقائنا خارجا. بدوا جامدين، ومنفوخين بأبهة الخدمة الرسمية في زيهم القطيفي الأسود والبابيون الصغير. ومن فوقنا تعكس الثريات الكريستالية أنوارها المبهرة علي المرايا، وفوق الأرض الرخامية البراقة. توزع المدعوون جماعات صغيرة يتبادلون الأحاديث الخافتة والابتسامات المهذبة المطبوعة على أطراف الشفاه وزوايا الأفواه المضمومة بحكمة على أصوات لا تكاد تخرج. ومن وقت لآخر، تزغرد ضحكة أنثوية محسوبة بدقة، كإعلان مدفوع الأجر عن شهوية مختزنة في ملابس السهرة المطرزة والمجوهرات الثمينة، ومن هنا لهناك، فلا تحرم أحدا أو شيئا نصيبه المستحق من رعايتها. وقفت في عباءتها الحريرية المطرزة بالصدف والأحجار الكريمة ترحب بنا:

- حمدا على السلامة.

ابتسم لها محمد مرتبكًا، ومفتشا عن صورة الصحراء الصامتة التي تسكنها، وتسكنه. بدا كمن طوقت عنقه أنشوطة خرافة مبتذلة أرغم على تصديقها بإرادته ونفوره. سارعتُ أقدمه بلباقة:

- محمد صديقي الشاعر الذي كلمتكم عنه، هل تتذكرين؟

حدجته مريم بنظرة مستطلعة تريد أن تستجلي سرا بات يقترب منها، كأنه، ويوشك أن يظل حياتها ببعض ظله. همستُ بصوت خافت:

- نعم. مرت السنون بسرعة.

كنت مستطيعا رؤية الدم يخضب وجهها ونحرها، كمن يحاول إثبات ما لا يمكن إثباته.؟ بادرتنا بدعوتها التي ننتظر:

- ما رأيكما؟ لتحضرا للفيللا بعد العاشرة، سنسهر الليلة هناك، وسيكون كمال أيضا موجودا.

أنهتْ جملتها الأخيرة واستدارت عنا مبتسمة لبعض ضيوفها، من غير أن تسمع ردنا على دعوتها. وقفتُ مضطربا وكارها الانصياع لودها الآمر، موقنا، رغم ذلك، أني ذاهب. فكرتُ في حقدنا غير المصفى على غرمائنا، وفي رفضنا الملتبس لإرادتهم فينا. هل من فارق حقًا بين مقاومتنا واستسلامنا؟ رنوت إليه مستنجدا. كان ضياعه آخر ما تبقى لدينا من أمل، أما كفاحه المستسلم القانط فامتياز أرواحنا الحرة في سجنها. لمسته من كمه أناشده بصوت متحشرج:

- لنذهب من هنا.

أفلتنا هاربين من ملاحقة غير منظورة، عنيدة، وثقيلة الوطء، لنتجول في الحدائق الملكية على غير هدي. من فوقنا جعل القمر يسكب نوره بإلحاح مزعج، ومن خلفنا تترامى إلى أسماعنا وشيش الموج الواهن في الخليج المغلق. استدرتُ مجهدا أبحث عن سلوى في الطبيعة المروضة حولنا، وأفكر مرعوبا:

- لا بحر بعد اليوم، لا شيء.

ارتميتُ فوق الحشائش المجزوزة في الظلمة الخفيفة مشتهيا تنسم رائحة الحياة. خمشتُ الأرض بأصابعي وأظافري حافنًا من الطين والخضرة، أرفعها إلى أنفي وأعفر وجهي. همستُ أغالب بكائي:

- كل هذه العظمة تسحقني، تملؤني بالتفاهة.

جلس إلى جواري مغمض العينين كمن سقط في إغفاءة سريعة مثقلة بالأحلام والمعاناة. همس:

- لا أريد أن أذهب هناك.

(٢٦)

عانقني كمال بحرارة معاتبا:

- نسيتني، إياك!

رنوتُ إليه مبتسما ومشوشًا ولم أرد. ضحك صافحا عن ارتباكي بإحساس الأبوة المنبعث بداخله فجأة. أردف:

- لن تهرب مني ثانية.

مدتْ رحاب بنظرة مستغلقة ونهضت مسلمة. رحتْ أرقبها مستعيدا ذكرى صباح بعيد، باحثًا عن نبض الحياة الدافئ تحت برودة أصابعها الممدودة لي. بدت جميلة ومبهمة، في فستانها الكحلي القصير بأشرطته البيضاء الأنيقة، ولا أثر يذكر لمرور الزمن على جسدها أو وجهها.

كانت هي هي العذراء التي غادرتها نهار أمس فقط. صحتُ معجبا:

- كلنا نشيخ إلاكِ.

- وتغازلني؟ من أين هبطت عليك هذه الرقة يا متوحش؟

اندفعتْ تلثم وجنتي بخفة. وقفت جامدا أتأملها بإمعان. تتفتح براعمها ببطء وتهتز في يد الزمن ناشرة عبيرا عليلا موجعا فوق شرفات الجمال والخوف. ابتسمتْ بغرابة وهي تسلم على محمد الذي تشتعل نظراته إليها بصمت. أزاحت خصلة فالتة من شعرها كاشفة عن وجهها المرتجف هونًا كحديقة رطبة فاجأها الليل. قالت تقدم نفسها:

- رحاب صالح.

حدق فيها بنظرة ملؤها العرفان، وهو يزفر:

- لا تتعجلني أيها الليل.

ابتسمت معجبة ومستغربة. أدركتُ أنه يهذي، علي طريقة الشعراء، وأحبت أن يتدله بها. تمنت في قلبها لو يقبلها حالا قبلة طويلة عنيفة مروعة تحسب آخر أنفاس الحياة من صدرها، لتجلس عند قدميه بقية عمرها، خادمة وأمةً.

سأل كمال:

- ما أخبار الحفلة يا مريم؟

- فظيعة.

أجابت بصوت خفيض متعب، وقد استلقت على الأريكة الوثيرة، عاجزة لدقائق عن فتح عينيها.

- أتخيل شكلهم لحظة فتح البوفيه.

ضحك باستمتاع وراح كرشه المستدق الصغير يهتز أمام عيوننا جميعا. قالت رحاب:

- الآن ستملأ أخبار المعرض الجرائد والمجلات.

خيم صمت قلق على المكان حتى قطعته مريم مستفهمة.

- هل أعجبك المعرض يا محمد؟

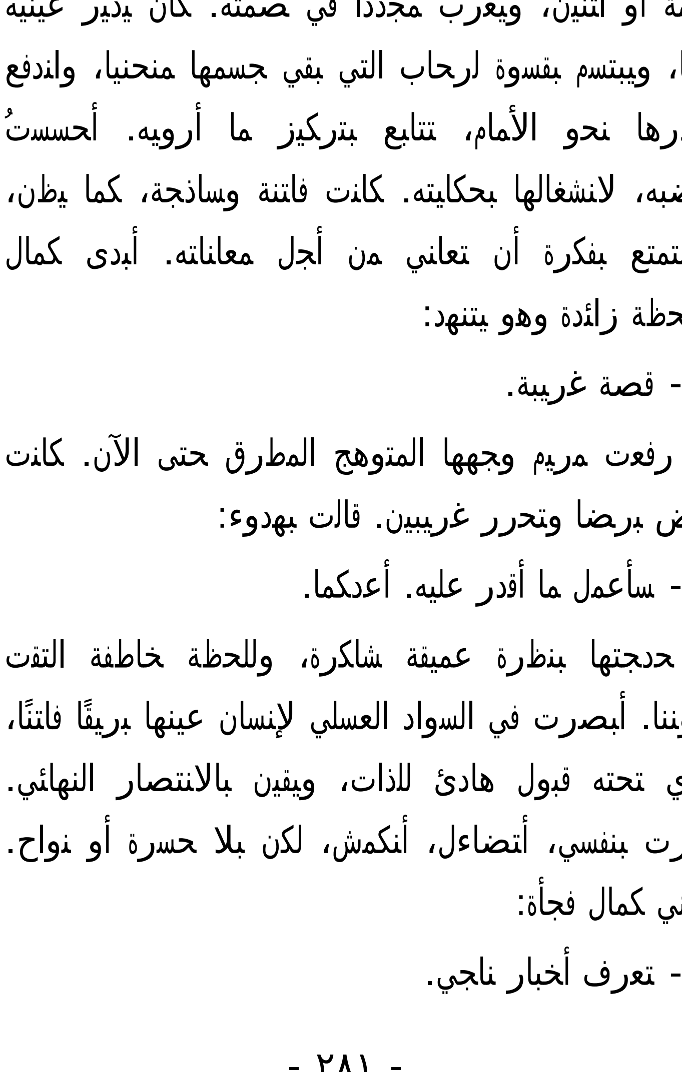
التقطتُ كلماتها على عجل، واجدا في التفاتها نحوه فرصة لطرح الموضوع الذي أتى بنا إلى الإسكندرية. قلتُ:

- توقف طويلا أمام بورتريه رحاب.

ثم بصوت متردد بطيء.

- جئنا يا مريم طامعين في مساعدتك له.

- مساعدتي أنا؟ كيف؟



مضيت أشرح تفاصيل المسألة كما أفهم، مستوضحا منه، بين الحين والآخر هذه النقطة أو تلك، ليخرج صوته واهنًا بكلمة أو اثنين، ويغرب مجددا في صمته. كان يدير عينيه بيننا، ويبتسم بقسوة لرحاب التي بقي جسمها منحنيا، واندفع صدرها نحو الأمام، تتابع بتركيز ما أرويه. أحسستُ بغضبه، لانشغالها بحكايته. كانت فاتنة وساذجة، كما يظن، واستمتع بفكرة أن تعاني من أجل معاناته. أبدى كمال ملاحظة زائدة وهو يتنهد:

- قصة غريبة.

رفعت مريم وجهها المتوهج المطرق حتى الآن. كانت تفيض برضا وتحرر غريبين. قالت بهدوء:

- سأعمل ما أقدر عليه. أعدكما.

حدجتها بنظرة عميقة شاكرة، وللحظة خاطفة التقت عيوننا. أبصرت في السواد العسلي لإنسان عينها بريقًا فاتنًا، يثوي تحته قبول هادئ للذات، ويقين بالانتصار النهائي. شعرت بنفسي، أتضاءل، أنكمش، لكن بلا حسرة أو نواح. سألني كمال فجأة:

- تعرف أخبار ناجي.

كان يميل بجسمه، متقدما بوجهه الباهت جامد الشعور والمثقل بالهم. شعرت بألم حاد ينشب أظفاره في أوصالي. همهمتُ:

- يدير محل أبيه بالصاغة، ويواظب على قداس الأحد، آخر مرة قابلته أخبرني أنه يتعلم لغة الصم والبكم، ويقدم خدمات تطوعية للمعاقين ذهنيا عن طريق الكنيسة.

ساد الجو ترقب قاسٍ. حانت مني التفاتة جانبية إلى رحاب التي راح جسدها يرتعش بالوخزات الحادة لذيذات الذكرى. كانت عيناها لامعتين وخاليتين من كل تعبير، ككسرتين من اللؤلؤ. سألتني وكأنها تهتم جدا لما تقول:

- أنهيت خدمتك بالجيش؟

نظرتُ إليها وهي تتشاغل بإحكام ربط الحلقة المطاطية الصغيرة على شعرها المعقوص كذيل حصان قصير، هاربة من ابتسامة محمد الهازئة. أجبت موسعا عيني أكثر في محاولة للحفاظ على رباطة جأشي:

- خمسة عشر شهرا من العذاب المجاني، تمنيتُ فيها أن أموت، أو أن لم تلدني أمي أبدا.

قال كمال:

- ما زلت أذكر أعوام الانتظار، التي قضيناها في الملاجئ على الضفة الغربية للقناة، وأزيز الفانتوم والميراج فوق رؤوسنا والموت يتخطفنا، غارة بعد أخرى، كنا نغلي بالرغبة في الثأر، وما فكرنا وقتها أن عذابنا أو موتنا مجاني.

ألصقتْ مريم عينيها المزججتين فوق كلماته المندفعة من بين شفتيه. كانت تنتظر صوته لاهثة معجبة، وطامعة في لمس القوة الخفية التي تسند روحه من الانكسار والابتذال. قالت:

- كان كل شيء واضحا ومحسوما، العدو أمامكم والأمة وراءكم.

- من يفكر في لحظة الموت بالأمة؟

سأل كمال متهكما ومسفها، وهو يميز في كلماتها ميكروفون صوت العرب، وصفحات التربية القومية بالمدرسة. تابع:

- كان كل واحد منا يحاول إنقاذ نفسه من الداخل أولاً، الانتصار على الخوف من الموت، وعلى غرور الطيارين الإسرائيليين، لن تعرف أبدا ما يبتعثه ألم موت رفيقك في

الملجأ، من إرادة المقاومة والرغبة في الحياة، ستظل تفكر فيه وهو يشاركك أكلك وشربك وضحكك، وهمك، وتستغرب موته بشظية قنبلة أخطأتك بمصادفة ما، وكومته هو بين ذراعيك، وبرغم ذلك لن تتمني أن تكون أمك ما ولدتك أبدا.

جلستُ مبهورا ألاحق تأملاته، شاعرا بأسف خفيف، ومفكرا في الجنس البشري المقهور، بقوة غلابة، على فهم أعمق وأعمق للحياة.

قلتُ متذكرا:

- كان بكري أصاب عسكري قابلته في الجيش، صعيدي ضامر مشدود كعود خيزران، خفيف الدم، في سمرته وابتسامته الطيبة الساخرة شيء يريح كل من يقابله، ويرغبه في صداقته، لكنه، في أوقات غير متوقعة، يبدو عنيفًا ومخيفًا كحزمة مفرقعات تهدد بالانفجار لتنسف كل شيء. كنت أستريح إلى صوته وهو يقرأ القرآن، أو يغني موال شفيقة ومتولي في ليالي الخدمة. في آخر إجازة له بأسيوط تخلّف يومين عن موعد رجوعه، وعاد يائسا محطما. بعد خروجه من غرفة الحبس، وأثناء خدمتنا معا فوق البرج الغربي باغتني في الظلام سائلا:

- هل تعتقد في وجود الجنة والنار بجد؟

- بالنسبة لأمثالك أعتقد في وجود النار فقط.

غطسنا في الصمت لدقائق تشاغلت فيها بالإنصات لصوت عبد الحليم من الراديو الترانزستور الخاص به، قبل أن يصلني صوته المتهدج بألم.

- النار فقط. صحيح.

أوجس قلبي الخطر الطال من كلماته. ناديته مفزوعا: بكري.. ما حكايتك؟ أنا أضحك معك.

- وأنا أضحك.

أجابني بلهجة ناشفة. قبل الفجر، غلبني سلطان النوم في مكان الخدمة، تاركًا له السلاح ليواصل ساعات حراسته، وسأبقى نادما غير قادر علي مسامحة نفسي العمر كله، على ضعفي ذلك، كيف لم أفهم الخطر المضمر في كلماته؟ كيف عجزت عن قراءة ضميره، عابرا فوق عذابه بخفتي وكسلي؟

قاطعتني رحاب:

- تقصد...؟

- قمت من نومي مفزوعا على صوت الطلق الناري، رأيته ممدودا على الأرض سابحا في بركة صغيرة من دمه الذي ظل ينزف بغزارة من أعلى العنق عند الحنجرة، كان قد أفرغ دفعة كاملة من البندقية الآلي مستندا بالدبشك إلى سور البرج، ومصوبا أسفل الذقن.

- لماذا ؟ لماذا ؟

راحت تنتحب مروعة حتى أدهشتني. فكرتُ أن إحساسها الجسدي بموته، قد أمرضها، واستهلك بعضا منها، وخفتُ أن أكون قد طرت بها نحو الموت بأكثر من قدرتها على الرجوع، طامسا من بعدي كل آثار الأقدام، كما في أحلام الفراغ والأقمار الزرقاء.

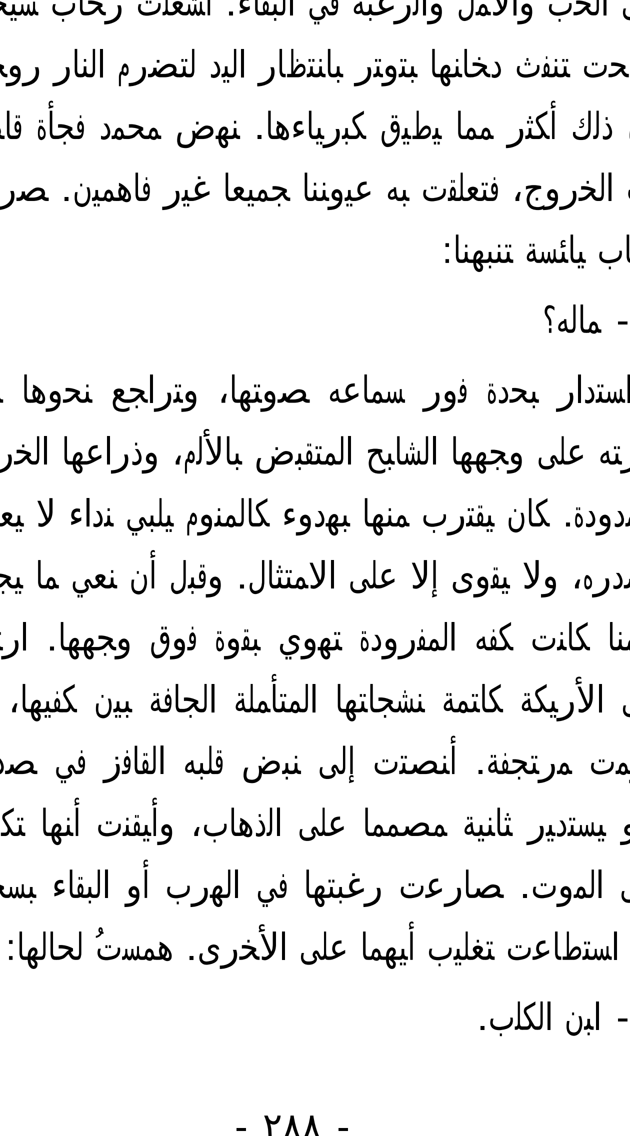
- عثرنا في جيب الأوفرول على خطاب قصير يعلن عزمه علي الانتحار، وأخبرنا واحد من بلدياته أنه كان مرعوبا ونادما بعد افتضاح سر معاشرته لزوجة أخيه الكبير الغائب من سنين في العراق.

- كان يحبها؟

سألتني مريم بنبرة حزينة.

- من يدري؟ وما أهمية الكلام عن الحب هنا؟ كان قد وصل إلى قرار اليأس، فاندفع للخلاص من كل شيء بطلقة. كان يحاول تحرير نفسه من الداخل كما يقول كمال، أما أنا فقد حملتُ جثته الغارقة في دمها غير ملتفت إلا لرغبتي في البقاء على قيد الحياة ليوم آخر، سنة أخرى، متحديا شبحه الذي يزورني في خدمتي عند البرج إياه، وصوت خطواته الخفيفة التي تصل لسمعي في الظلام ثم تختفي.

جلسنا صامتين مستسلمين لظل الموت الداكن المتمدد فوقنا، خائفين مما يفكر به كل منا، في الوقت نفسه. سقطت ساعة من حساب الزمن كزهرة برسيم صفراء أنهكتها شمس الليل، فحانت مني التفاتة إلى محمد المغلق على يبوسة روحه أناديه كما ينادي العابد ربه، عارفًا أن قتل النفس هو الحرية الوحيدة الممنوحة لنا في هذا العالم، ومشمئزا من أساننا المنافق على المنتحرين. أفقتُ على تأملاتي الحزينة تدريجيا وأسلمتُ فؤادي لطراوة العدم. كنتُ خائب الرجاء كمن تبددت أحلامه سدى، وإن لم أكن ناقما على أحد. أطلتُ التفكير في الضباب النازل على صفحة البحر حتى نهاية الأفق، يغيب خلفه كل شيء، بلا أدنى رغبة في استعادته. لو

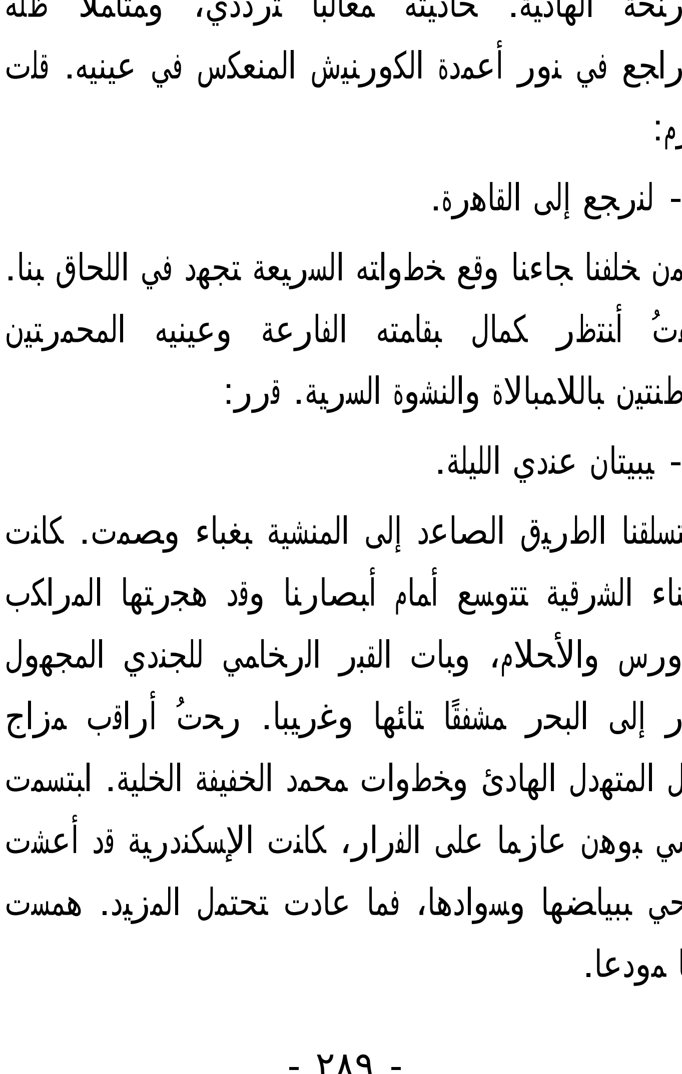


أنهم قالوا لي مد يدك والتقط كنز حياتك لما استجبتُ، متعاليا على الحب والأمل والرغبة في البقاء. أشعلتْ رحاب سيجارة وراحت تنفث دخانها بتوتر بانتظار اليد لتضرم النار روحها، كان ذلك أكثر مما يطيق كبرياءها. نهض محمد فجأة قاصدا باب الخروج، فتعلقت به عيوننا جميعا غير فاهمين. صرخت رحاب يائسة تنبهنا:

- ماله؟

استدار بحدة فور سماعه صوتها، وتراجع نحوها مثبتًا نظرته على وجهها الشاحب المتقبض بالألم، وذراعها الخرساء الممدودة. كان يقترب منها بهدوء كالمنوم يلبي نداء لا يعرف مصدره، ولا يقوى إلا على الامتثال. وقبل أن نعي ما يجري أمامنا كانت كفه المفرودة تهوي بقوة فوق وجهها. ارتمت على الأريكة كاتمة نشجاتها المتأملة الجافة بين كفيها، وقد تكومت مرتجفة. أنصتت إلى نبض قلبه القافز في صدره، وهو يستدير ثانية مصمما على الذهاب، وأيقنت أنها تكرهه حتى الموت. صارعت رغبتها في الهرب أو البقاء بسجنه، وما استطاعت تغليب أيهما على الأخرى. همستُ لحالها:

- ابن الكلاب.



أسرعتُ ألحق به جافلا من صدمة المشهد الختامي للمسرحية، كان يغادر حديقة الفيللا خارجا إلى الليل بخطواته المترنحة الهاذية. حاذيته مغالبا ترددي، ومتأملاً ظله المتراجع في نور أعمدة الكورنيش المنعكس في عينيه. قلت بحزم:

- لنرجع إلى القاهرة.

من خلفنا جاءنا وقع خطواته السريعة تجهد في اللحاق بنا. توقفتُ أنتظر كمال بقامته الفارعة وعينيه المحمرتين المبطنتين باللامبالاة والنشوة السرية. قرر:

- يبيتان عندي الليلة.

تسلقنا الطريق الصاعد إلى المنشية بغباء وصمت. كانت الميناء الشرقية تتوسع أمام أبصارنا وقد هجرتها المراكب والنورس والأحلام، وبات القبر الرخامي للجندي المجهول ينظر إلى البحر مشفقًا تائها وغريبا. رحتُ أراقب مزاج كمال المتهدل الهادئ وخطوات محمد الخفيفة الخلية. ابتسمت لنفسي بوهن عازما على الفرار، كانت الإسكندرية قد أعشت روحي ببياضها وسوادها، فما عادت تحتمل المزيد. همست لهما مودعا.

على مهل أمضي مخترقًا شارع العطارين في طريقي إلى محطة مصر وأدندن:

ركبوا عربيات الوقت وهربوا بالنسيان

وتركوا ضحكات ولادن منسية ع الحيطان

تركوا لي المفاتيح تركوا صوت الريح

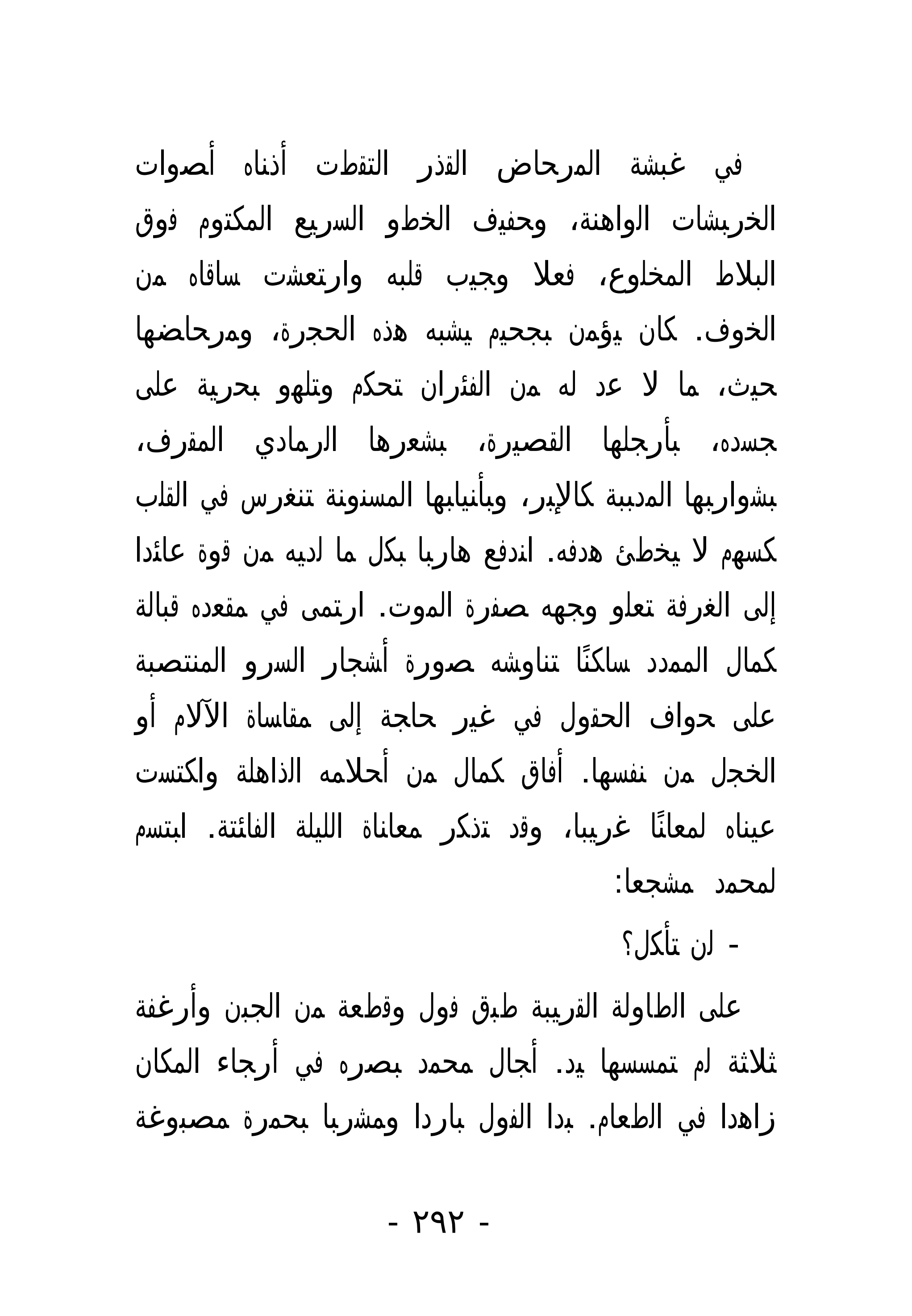
وراحوا ما فاتوا عنوان

وين أصواتن؟ وين وجوههن؟ وين؟

صار في وادي بيني وبينهن وين؟

(٢٧)

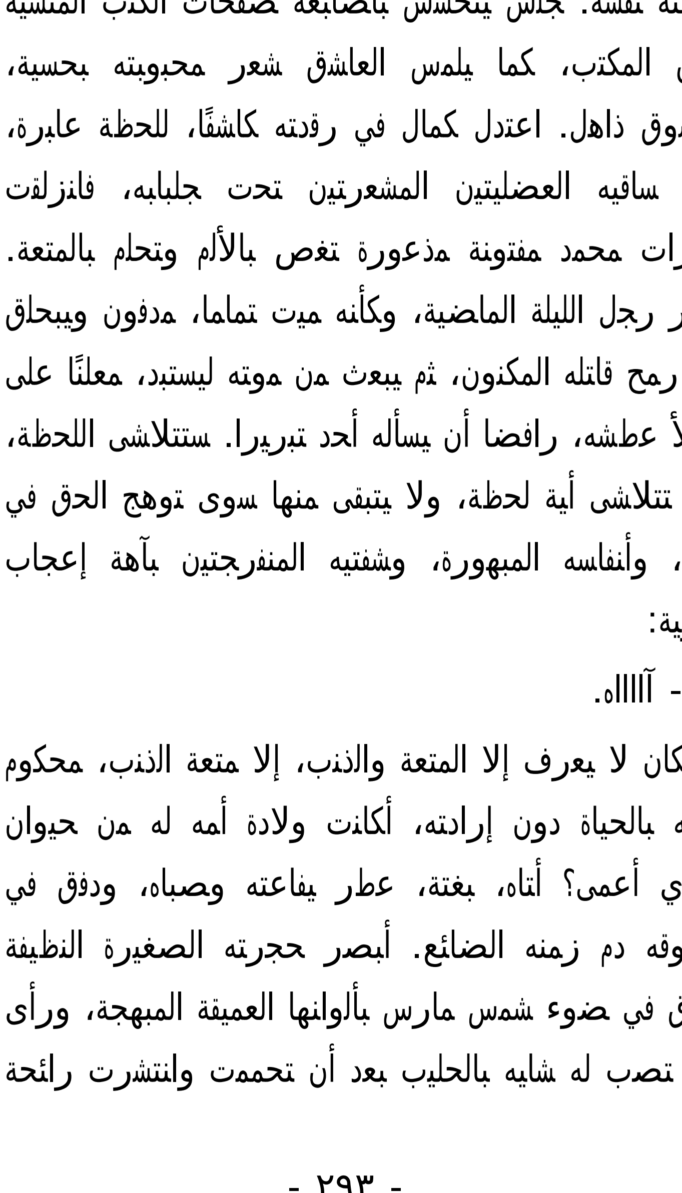
استلقى كمال على السرير العريض الذي حال لون ملاءته من العرق، وفي مواجهته جلس محمد منكمشًا، مغلقا على قلبه، متسغربا وجوده في هذه الحجرة التي تكتم أنفاسه وتقبض روحه بحيطانها الجرداء، وسقفها المقشور العالي، ونور مصباحها الباهت، راح يرنو إلى العنكبوت الذي أبدع لفرائسه الجاهلة شباكًا مغوية في زوايا الغرفة، كستائر خفيفة تلمع في ضوء الشمس آخر النهار المنسحب، وتطيرها نسمة تتسلل من النافذة المواربة. كان يفكر في حياته المتطايرة التي تُسحب منه الآن منكسرة لآلاف من القطع البلورية الصغيرة، لتتحطم أسطورة الحب وبيت الأم والحنين إلى الوطن. كل شيء حوله راح يقلب معدته.



في غبشة المرحاض القذر التقطت أذناه أصوات الخربشات الواهنة، وحفيف الخطو السريع المكتوم فوق البلاط المخلوع، فعلا وجيب قلبه وارتعشت ساقاه من الخوف. كان يؤمن بجحيم يشبه هذه الحجرة، ومرحاضها حيث، ما لا عد له من الفئران تحكم وتلهو بحرية على جسده، بأرجلها القصيرة، بشعرها الرمادي المقرف، بشواربها المدببة كالإبر، وبأنيابها المسنونة تنغرس في القلب كسهم لا يخطئ هدفه. اندفع هاربا بكل ما لديه من قوة عائدا إلى الغرفة تعلو وجهه صفرة الموت. ارتمى في مقعده قبالة كمال الممدد ساكنًا تناوشه صورة أشجار السرو المنتصبة على حواف الحقول في غير حاجة إلى مقاساة الآلام أو الخجل من نفسها. أفاق كمال من أحلامه الذاهلة واكتست عيناه لمعانًا غريبا، وقد تذكر معاناة الليلة الفائتة. ابتسم لمحمد مشجعا:

- لن تأكل؟

على الطاولة القريبة طبق فول وقطعة من الجبن وأرغفة ثلاثة لم تمسسها يد. أجال محمد بصره في أرجاء المكان زاهدا في الطعام. بدا الفول باردا ومشربا بحمرة مصبوغة



فعافته نفسه. جاس يتحسس بأصابعه صفحات الكتب المنسية فوق المكتب، كما يلمس العاشق شعر محبوبته بحسية، وبشوق ذاهل. اعتدل كمال في رقدته كاشفًا، للحظة عابرة، عن ساقيه العضليتين المشعرتين تحت جلبابه، فانزلقت نظرات محمد مفتونة مذعورة تغص بالألم وتحلم بالمتعة. ظهر رجل الليلة الماضية، وكأنه ميت تماما، مدفون ويبحلق في رمح قاتله المكنون، ثم يبعث من موته ليستبد، معلنًا على الملأ عطشه، رافضا أن يسأله أحد تبريرا. ستتلاشى اللحظة، كما تتلاشى أية لحظة، ولا يتبقى منها سوى توهج الحق في قلبه، وأنفاسه المبهورة، وشفتيه المنفرجتين بآهة إعجاب أنثوية:

- آاااه.

كان لا يعرف إلا المتعة والذنب، إلا متعة الذنب، محكوم عليه بالحياة دون إرادته، أكانت ولادة أمه له من حيوان منوي أعمى؟ أتاه، بغتة، عطر يفاعته وصباه، ودفق في عروقه دم زمنه الضائع. أبصر حجرته الصغيرة النظيفة تتألق في ضوء شمس مارس بألوانها العميقة المبهجة، ورأى أمه تصب له شايه بالحليب بعد أن تحممت وانتشرت رائحة

الصابون المنعشة من مسام جلدها المحفوف، ومن شعرها المبلل تحت الفوطة الملفوفة كالعمامة على رأسها. كانت جميلة جميلة، كنهار العيد، وتمنى في قلبه لو أنه هي. في الطريق إلى المقبرة، أعطاها يده، يسيران ساقا بساق، متمهلين، وبسعادة لا توصف، حالما أنه قد غدا أمها، وأنها قد غدت أباه. عند الصبارة العتيقة انحنى يقطف لها وردة إبرية الأطراف، لا يعلم كيف أطلت برأسها من شق صغير في الأرض.

وقفا يقرآن الفاتحة على روحه، ولاحت من جانب عينه نظرة حانية إليها، فراعه التماع عينيها بنداوة البكاء الصامت. همس ضارعا:

- لا تبكِ يا أمي، سأتزوجك ونعيش معا.

كانت الغيرة تنهش فؤاده لمرأى عينيها المخضلتين بالدموع، وتألق وجهها النابض بالألم والعذاب. مالتْ تضمه إلى صدرها وتقبله:

- يا حبيبي.. أنت رجلي وسندي الباقي.

أنارت وجهه ابتسامة ظفر واسعة، وراح يغني لنفسه متناسيا رحلة عذابه القديمة، من البيت إلى ورشة النجارة

التي كان يمتلكها زوجها الراحل يحمل إليه رسائل اعتذارها وتوسلاتها الشفاهية كلما طال غيابه وهجره لها إلى بيت أم أولاده.

انتصب كمال متيقظ العقل والحواس، كان قادرا على التقاط أصوات الشياطين والملائكة المتصارعة داخل قلبه، عاجزا عن التمييز بينها، ومشوقًا إلى مجابهتها. قطب جبينه سائلا بصوت معدني ظل يرن في صمت الحجرة الطويل:

- لماذا ضربتها؟

التفت إليه محمد مباغتًا وخارجا من حلمه المكرور. عيناه المجهدتان من الأرق تطالعان وجه كمال الغارق في الظلال. كل شيء ساكت ويضج بالسؤال.

- لم أضربها.

خيم الصمت دقيقة، قبل أن يعزم أمره ويقرر:

- هي التي طلبت ذلك مني، نظرت إليها في عينيها ففهمت ما تريد، لقد قمتُ بواجبي تجاه إنسان يتعذب ويسأل المساعدة.

- صحيح.

- كان شيئًا ممتعا أن أضربها، حتى وأنا نادم على ذلك الآن مازلتُ أحس لذة وقع كفي على وجهها، لن تفهمني، لا أحد يفهمني.

هز الأستاذ رأسه متحيرا وعاجزا عن الرد. وقفا أمامه متواجهين، هو بحكاياته الغريبة الملفقة، وهي بشهوتها في إدهاش الآخرين والإيقاع بهم في حبائل الهيام والشغف، وراح يقلب صفحات التاريخ السري لقلبين يندفعان باتجاه تعميق الوهم بوجودهما وإزالته معا.

- كنت أدور حول صورتها بالمعرض، معتقدا أني أعرفها أفضل من ذلك، وخفتُ أن أكون قد وقعت في حبها، جلستُ أتأملها وأنا مستعد للتضحية بحياتي من أجلها، بينما أفكر في..

- خنقها مثلا.

قاطعه كمال وقد ومضت عيناه ببريق خاطف. جلس محمد يرنو إليه بإعجاب ودهشة ويحدجه بنظرات داكنة كسرب من طيور مخيفة رائعة. تابع كمال:

- ليست الحياة قصيدة بل سجنًا، المسألة أعقد بكثير من كونك تحبها أو لا تحبها، هل تظن أنك حر لتحب أو لتكره؟

حرية اختيار الحياة والرضا بها رفاهية لم توهب لأمثالنا، ولا يتبقى لنا غير القتل.

تمهل محمد متأملا اندفاعة كمال الكلامية. كان عاجزا عن استيعاب مضامينها الكاملة، وظل على اعتقاده المتأالم أنه فخم وعميق أكثير من اللازم. عميق ومتبجح. ردد على نحو آلي:

- القتل...

- لديك أسبابك للقتل.

- القتل..

- لديك إيمان ورغبات، وكنت مستعدا، تقول، للتضحية بحياتك، دائما مستعد للتضحية بحياتك، وهل هناك ما هو أرخص عندك من حياتك؟ من قال لك إن العالم سيقبل منك هذه التضحية؟

صحيح أنه يريد حياتك، لكن لا مرة واحدة، بل يوما بيوم وساعة بساعة. هل أحببت أحدا بجد؟

تجمعت ظلال داكنة في سماء الحجرة. كان يعرف تلك الأوهام التي يسخر منها كمال، عرفها جيدا، واجتهد في الهروب منها لتطارده، هل من خيار أمامه؟ ليعقد تعقيده

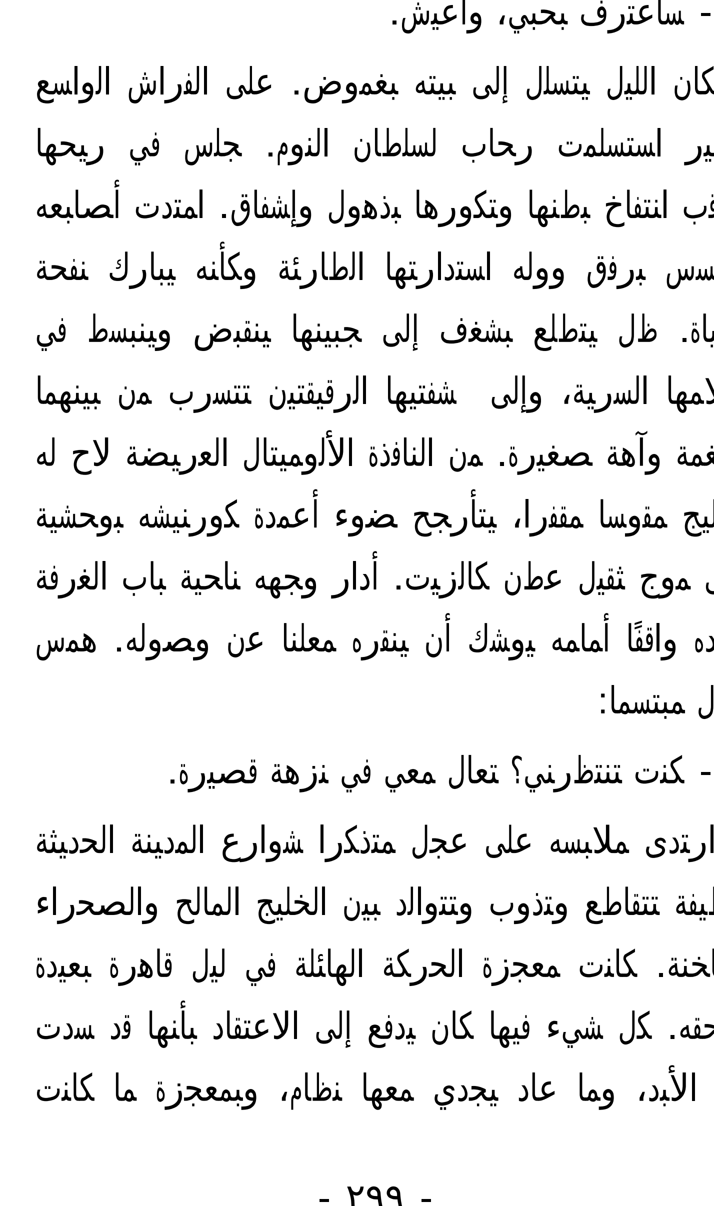
أكثر، لا بالحب بل بالفصم، بالبتر وبقتل الشعور. راح يتأمل المساء الزاحف على روحه من السماء، مطفأة النجوم، كانا وحيدين فوق الجبال العارية الممتدة من الصحراء إلى البحر، وصمت كل صوت للفئران المترقبة. تذكر مناضلاً:

- سأحبها، سأتعلم كيف أحبها.

- ستحبها حتى الكراهية. أنت تريد حبا كاملاً، إني أشفق من المصير المنتظر، الحب الكامل ليس إلا الخطوة الأولى على درب الكراهية. لا شيء أفضل من ألا تحب أو تكره مطلقاً.

- عدمي. لماذا تريد قتلي؟

جعل جسده يرتعش بقوة الغضب والأمل في الحياة، بينما تمدد كمال على فراشه وحيدا صامتا، وقد ارتسمت فوق شفتيه ابتسامة متعبة غير مصدقة. كانا يفكران معا كتائهين في صحراء لا نهائية، يتتبعان خطي النجوم المرشدة. كانت الصحراء تنادي روحيهما، وتتمدد بداخلهما خطوة بعد خطوة، صحراء من أقاليم الريح الأربعة، صحراء حتى الليل، انتفض محمد شاقا ستائر الرمل المعلقة على جدار سميك بين السماء المظلمة والبحر. حدث نفسه مصمما:

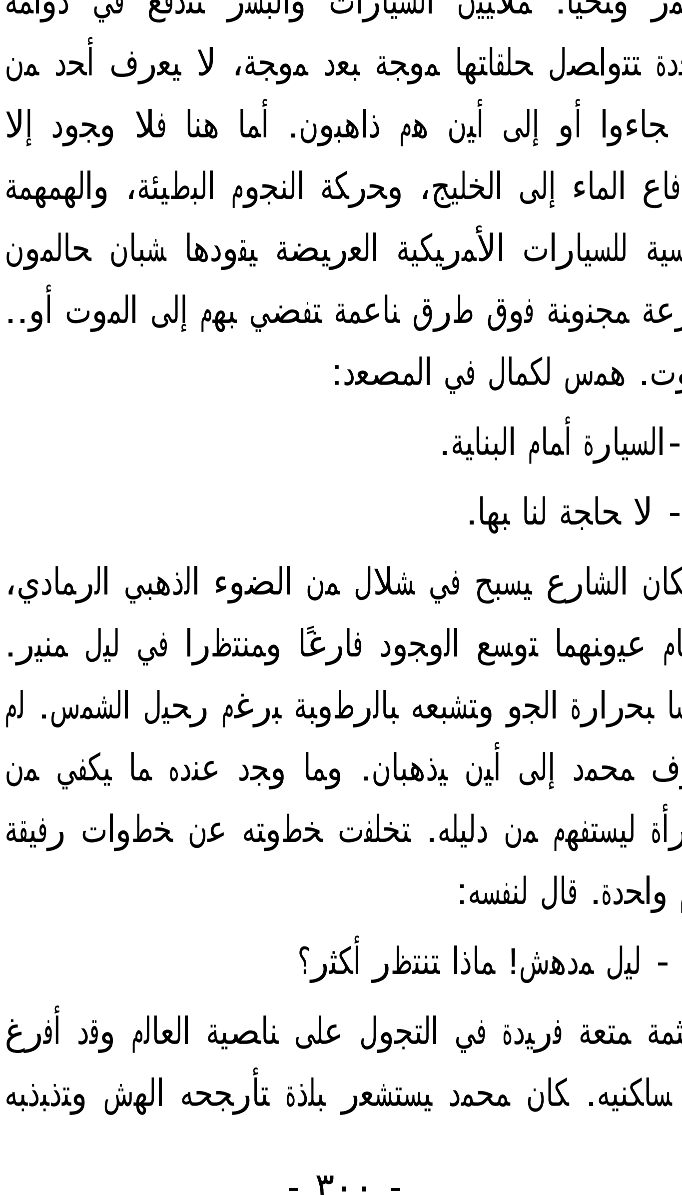


- سأعترف بحبي، وأعيش.

كان الليل يتسلل إلى بيته بغموض. على الفراش الواسع الوثير استسلمت رحاب لسلطان النوم. جلس في ريحها يراقب انتفاخ بطنها وتكورها بذهول وإشفاق. امتدت أصابعه تتحسس برفق ووله استدارتها الطارئة وكأنه يبارك نفحة الحياة. ظل يتطلع بشغف إلى جبينها ينقبض وينبسط في أحلامها السرية، وإلى شفتيها الرقيقتين تتسرب من بينهما غمغمة وآهة صغيرة. من النافذة الألوميتال العريضة لاح له الخليج مقوسا مقفرا، يتأرجح ضوء أعمدة كورنيشه بوحشية على موج ثقيل عطن كالزيت. أدار وجهه ناحية باب الغرفة ليجده واقفًا أمامه يوشك أن ينقره معلنا عن وصوله. همس كمال مبتسما:

- كنت تنتظرني؟ تعال معي في نزهة قصيرة.

ارتدى ملابسه على عجل متذكرا شوارع المدينة الحديثة النظيفة تتقاطع وتذوب وتتوالد بين الخليج المالح والصحراء الساخنة. كانت معجزة الحركة الهائلة في ليل قاهرة بعيدة تلاحقه. كل شيء فيها كان يدفع إلى الاعتقاد بأنها قد سدت إلى الأبد، وما عاد يجدي معها نظام، وبمعجزة ما كانت



تستمر وتحيا. ملايين السيارات والبشر تندفع في دوامة واحدة تتواصل حلقاتها موجة بعد موجة، لا يعرف أحد من أين جاءوا أو إلى أين هم ذاهبون. أما هنا فلا وجود إلا لاندفاع الماء إلى الخليج، وحركة النجوم البطيئة، والهمهمة القاسية للسيارات الأمريكية العريضة يقودها شبان حالمون بسرعة مجنونة فوق طرق ناعمة تفضي بهم إلى الموت أو.. الموت. همس لكمال في المصعد:

-السيارة أمام البناية.

- لا حاجة لنا بها.

كان الشارع يسبح في شلال من الضوء الذهبي الرمادي، وأمام عيونهما توسع الوجود فارغًا ومنتظرا في ليل منير. أحسا بحرارة الجو وتشبعه بالرطوبة برغم رحيل الشمس. لم يعرف محمد إلى أين يذهبان. وما وجد عنده ما يكفي من الجرأة ليستفهم من دليله. تخلفت خطوته عن خطوات رفيقة لقدم واحدة. قال لنفسه:

- ليل مدهش! ماذا تنتظر أكثر؟

ثمة متعة فريدة في التجول على ناصية العالم وقد أفرغ من ساكنيه. كان محمد يستشعر بلذة تأرجحه الهش وتذبذبه

الناعم بين الوقوف والسير. راح يتقدم ببطء كرصاصة ضعيفة مسددة إلى قلب الدنيا. فجأة، مد كمال يده وقبض على ذراع صديقه الذاهل يستحثه برفق:

- أسرع.. أسرع.

أخذت حركات قدميه تتسارع وتخف حتى ظن محمد أنه لا يمشي بعد، أو أنه يبدل ساقيه في الهواء. خطر له أن يلقي بنظرة على رجليه فأدهشه أن رأى نفسه صاعدا في الهواء فعلاً. هتف بكمال الطائر إلى جانبه محاولاً التشبث بذراعه خشية السقوط:

- إننا نطير.. نطير.

- اسكت.

شقا طريقهما صاعدين عبر البنايات الشاهقة والميادين الفسيحة وأشجار النخيل السامقة قاصدين سماء الصحراء السوداء الفضية. اجتازا التلال الشرقية والجبال الغربية والكثبان الشمالية والأخوار الجنوبية وجسده يرتعد من الخوف والمتعة. أحس بحب عميق مباغت للأرض من تحته. وقد أنبسطت أمام ناظريه عارية مسحوبة، كبطن امرأة شابة تضج برقتها وبرغبتها في المنح، غامر بالسؤال:

- هل ننزل؟

دقيقة أخرى وكانا يهبطان بخفة فوق قمة جرداء تشرف بشموخ على وادٍ خصيب يخترقه نهر عظيم كهل. جلس محمد يلتقط أنفاسه المبهورة وينصت إلى توكيد كمال:

- وصلنا.

كان الليل يؤذن بالرحيل، ومن بعيد، راحت الشمس تطل بذؤاباتها على استحياء، وأخذت حقول القمح والفول تموج بكبرياء ورضا. فتح محمد عينيه لضوء الشمس وخضرة الحقول، ناسيا للحظة، كل شيء عداها، ويتأوه ملتذًا.

- ليست الأرض البعيدة التي تظن.

جاءت تحذيرات كمال الغامضة لتصب بعض الماء على نار الخيال. أحس بلسع الماء كاويا، وانقضت صقور سود على قلب شغفه. حدق في الموج المتراقص أمام عينيه متابعا طابورا طويلا من النمل الملون يخرج من البيوت ومن الشوارع والمكاتب وصفحات الكتب وأفلام السينما والوديان، ومن كراسي الحكم والعروش والنهار والتيجان، من هنا وهناك وهناك، صفًا واحدا، يخدش السكون والسلام الذي

يعمر قلبه. ابتسم له كمال منتصرا يحضه على متابعة النملة الصغيرة في آخر الطابور الذي لا آخر له. سأله:

- تعرفها؟

هز محمد رأسه نافيا. كانت النملة الوليدة تجاهد كي تتنسم أولى أنفاس الحياة. شدد عليه ثانية:

- دقق النظر. حاول.

انصاع محمد للتوجيه متوجسا، ثمة رنة مخيفة في صوت مرشده لا تجهلها أذناه. دقيقة أخرى ووجد قلبه يهتف في صدره بنزق:

- خالد! هل ولدته رحاب وأنا غائب؟

كان الضحى يبدو الآن فخما مهيبا كمشهد في فيلم تاريخي كبير، وطلعت الشمس تتسلق السماء منتصرة على انتعاشة الصبح الرقيقة، ناشرة حريقها في كل مكان. همس لكمال مشفقا:

- إلى أين يذهبون به؟

- إلى الموت طبعا، الكل في الطابور ذاهب إليه.

- لا..

- ملايين الملايين من قبله ومن بعده.

-لا..

- ليتعلم معنى التضحية في سبيل الحرية.

- لا..

- وليهزم في قلبه الألم والأمل.

- لا..

- ليصير الواحد..

- لا..

- بريئا من الأب والأم والصديق.

- لا.. لا.. لا.

أدرك أن لاءاته لا تخرج من حلقه. كانت تدوم وتدوم في صدره فتصبغه بلونها المتجهم المعتم، أراد أن يبكي عارقًا عجزه عن مواصلة العيش بعد أن رأى وأن سمع، ليمنعه خاطر عارض عن البكاء الذي لن يجد فيه سوى المذلة. فكر بغل ناظرا إلى كمال المتربع على قمة الجبل مغمض العينين. مكتفيا وممتلئًا بكل ما هو ليس منه:

- لو أنني أمتلك قوة الإله!

فتح كمال عينيه بهدوء، وافترت شفتاه عن ابتسامة هازئة. قال يسأله بثبات يخض القلب:

- ماذا كنت تفعل غير ما أفعله الآن؟

سرت رجفة شديدة على طول العمود الفقري لمحمد فرمى بجسده إلى الأرض مستسلما منهوكًا، كيف يتأتى له أن يجيب عن أسئلة أفكاره التي ما نطق بها بعد؟ سأله بتسليم يائس:

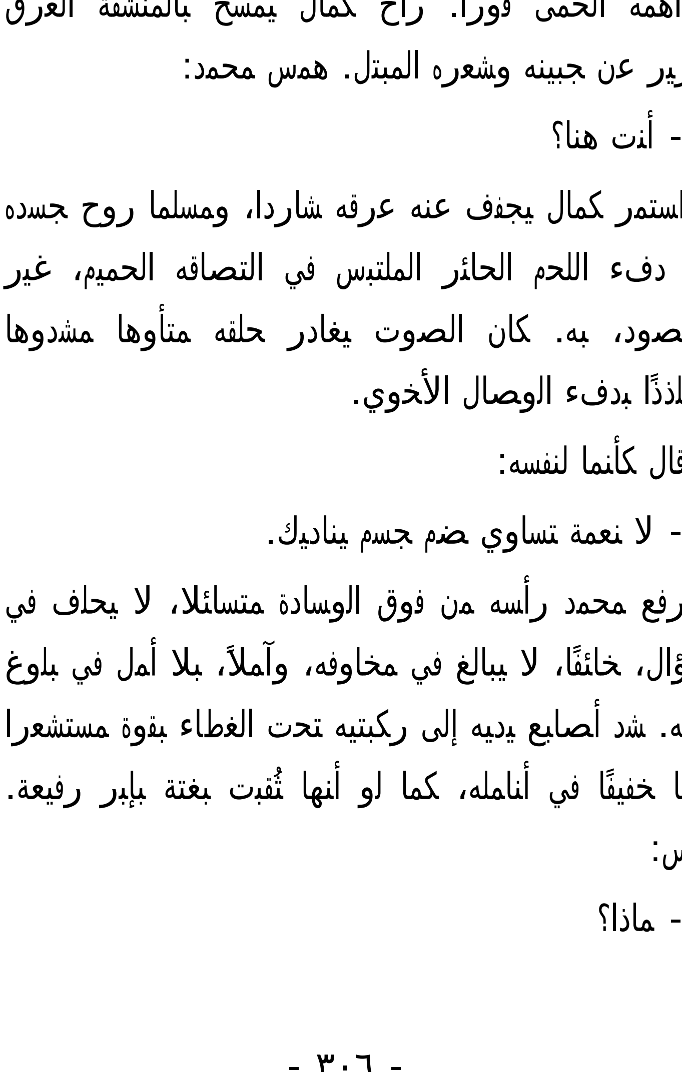
- هل تخبرني أخيرا عمن تكون؟ جف كمال لسؤال صديقه العبيط. قال:

- متى تعرفني إذن؟

انكمش محمد على نفسه خائفا مبهوتًا من إجابة سؤاله التي اخترمت يقين عماه، ومن نبرة العتب الجارحة في السؤال المضاد. كانت أصابع كمال تكتب على السماء بحروف متراقصة من نار كبريتية:

- أنا الخزاف الأصلي، صانع التماثيل الناقصة.

أفاق محمد على صرخة حادة باترة لفأر مذعور يصارع شيئًا ما عند المرحاض. كان ممددا على الفراش المهروس إلى جوار كمال الذي ظل يحرص على تغطيته بالبطانية الصوف كلما انزلقت عن جسده.



أحس بقطرات العرق الساخنة تنساب نازلة من قفاه بطول ظهره، فيرتعش جسمه ارتعاشات عنيفة ممطوطة كمن ستداهمه الحمى فورا. راح كمال يمسح بالمنشفة العرق الغزير عن جبينه وشعره المبتل. همس محمد:

- أنت هنا؟

استمر كمال يجفف عنه عرقه شاردا، ومسلما روح جسده إلى دفء اللحم الحائر الملتبس في التصاقه الحميم، غير المقصود، به. كان الصوت يغادر حلقه متأوها مشدوها ومتلاذذًا بدفء الوصال الأخوي.

قال كأنما لنفسه:

- لا نعمة تساوي ضم جسم يناديك.

رفع محمد رأسه من فوق الوسادة متسائلا، لا يحلف في السؤال، خائفًا، لا يبالغ في مخاوفه، وآملاً، بلا أمل في بلوغ آماله. شد أصابع يديه إلى ركبتيه تحت الغطاء بقوة مستشعرا لسعا خفيفًا في أنامله، كما لو أنها ثُقبت بغتة بإبر رفيعة. همس:

- ماذا؟

تسال شك ويقين إلى نظرته الرانية لكمال وقد راحت كفه، عوضا عن المنشفة، تمسح الجسد المسترخي من الجبهة نازلا إلى الرقبة والعنق وشحمة الأذن ثم بطول الظهر، كنحلة مثابرة تنزل في الليل وحيدة إلى السهوب الدكناء، ترشف دفء الحياة وهمهمتها التي لا تنام. راحت ارتعاشات جسده تصاعد وزفرات كمال العميقة الممطوطة، تلهب وجه رفيقه المستسلم بعذوبة تهيج إرادة الاقتحام المتيقظة بالروح. فح بصوت تضنيه الاشتهاءات والكوابح:

- الجمال..

- الجمال؟!

- سلاح الإنسان ضد العدم.

- الجمال؟!

- أمضى من الحب والكره معا.

- الجمال؟!

- عناق جسدين ظامئين في لحظة انخطاف وتجلٍ.

- الجمال؟!

- ثم النوم الطويل بلا أحلام.

- الجمال؟!

- والموت..

- والقتل؟

استحال المطر الخفيف بالخارج لعاصفة حقيقية، وبدأت الريح تعوي كذئب، محاصر عند خاصرة الأفق. استسلم محمد لأفكاره بطريقة آلية طوال الوقت الذي تسبح فيه كف كمال على ظهره. شعر بروحه بجماعها تنبض بإيقاع رتيب، موهن. منذ البداية، أدرك أن ثمة قدرا ينتظره بهذه الحجرة، عاجزا عن التنبؤ بماهية هذا القدر، أكان خائفا؟ نادما؟ أم ملتذًا بروعة تحقق الكشف؟ استجمع شجاعته وصبره كيما يواصل تمدده المسترخي، دافنًا وجهه في الوسادة الخشنة، ومحتملا باستمتاع، ثقل كمال المرتج. في اللحظة التي مرق فيها السهم الأخير نافذا إلى عتمة الشجرة وليل الغيمة، عجز عن كبح دمعة فرت من عينه لتبلل الوسادة. كان يفكر في القتل وهو يطلق زفرته الوحيدة:

- الجمال!

في ليلة ما وجدت بعد كهذه سيرقد كمال ساكنًا منهكا يتدبر طرق الروح ودروبها المخيفة، ويبحث عن خلاص في

لحم الليل والكثافة، معترفًا، في كل مرة لصديقه الصارخ في وجه القدر:

- أحبس نفسي مع العناكب والفئران في هذا الجحر عامدا، أياما بطولها لا أغادره، وأستلقي مبحلقًا في السقف بلا أكل ولا شرب. إلى أين يمكنني الذهاب؟ البلد بعيدة كما كانت دائما. والمدرسة ليس فيها إلا تقاتل المدرسين على الدروس الخصوصية، والنميمة، والتلاميذ الذين يتباهون بالمطاوي قرن الغزال والسجائر الملفوفة بالحشيش.

سكت لثوان قليلة راح يضحك فيها من نفسه ممرورا ومتهكما تابع:

- مدرس فلسفة.. محبة الحكمة، والفضيلة السقراطية، أقول لك.. أنا آخر الديناصورات الغبية.

جاس محمد حابسا أنفاسه لزمن طويل لا يغامر بإطلاقها ثانية. كان يرنو بارتباك حاقد إلى قامة كمال الممدودة في فراغ الوقت، ومن غير أن يلتفت إليه سيواصل كمال:

- لو أستطيع فقط الرجوع إلى الدار، لكن ليس قبل أن يموت الرجل، لن أبنيها أو أعمرها من بعده، بل سأجوس فيها وحيدا في الظلام كروح ضالة. سنوات أرقب فيها موت

أبي وأمي وأجهز نفسي للمصير، وهما يعانداني، تعلقهما بالحياة يذهلني ويذلني، هل من سبب مقنع واحد لتشبث الناس بحياتهم على هذا النحو المقرف؟

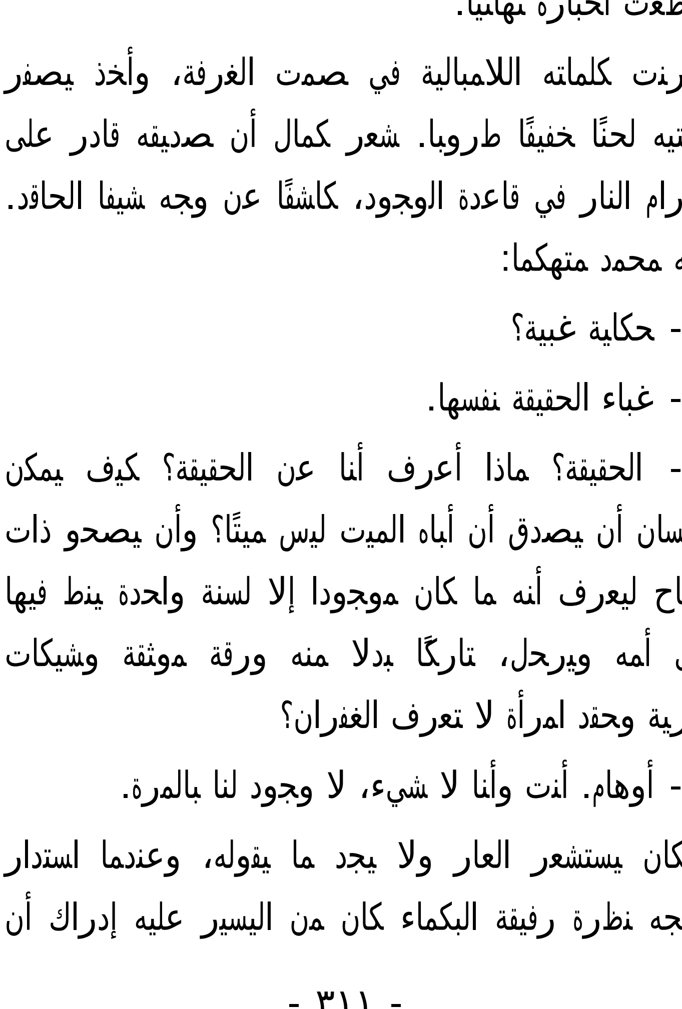
بقي سؤاله متأرجحا فوق رأسيهما كمصباح أسود يوشك على الانفجار بقوة الظلام الذي يختزنه. ابتدأ محمد ينازع نفسه كي يجيب. دهر كامل، ثم يهمس بصوت غير مصدق:

- ترقب موت أبيك، وانتظر بعث أبي.

أفاق كمال من بحرانه الظلامي على صوت صديقه المتردد الخافت. سرتْ بجسمه رجفة قصيرة عميقة، وراح يؤنب نفسه على أنانيته وعماه. لسبب ما كان يخاف الليلة على رفيقه، وتمنى لو كان قادرا على إسعاده، أو حتى تسكين خاطره، وإن لليلة واحدة فحسب.

سيتابع محمد:

- كانت أمي كل أهلي، بعد موت زوجها كانت تأخذني صباح يوم العيد لنقرأ الفاتحة على تُربته، وتقول لي ابكِ أباك، أدعك عيني لتحمرا ولا أبكي، قبل موتها بأيام، وبعد أن أدركت يأس الأطباء من سرطانها، أمرتني أن أذهب إلى أبي الذي تزوجها لسنة واحدة قبل أن يبعث لها من بلده البعيد



بورقة الطلاق ومؤخر الصداق ونفقة عام حسب الشريعة، ولخمس أو ست سنوات ظل مواظبا على إرسال الشيكات باسمها لتنفق منها على تربيتي، حتى عرف بزواجها فانقطعت أخباره نهائيا.

رنت كلماته اللامبالية في صمت الغرفة، وأخذ يصفر بشفتيه لحنًا خفيفًا طروبا. شعر كمال أن صديقه قادر على إضرام النار في قاعدة الوجود، كاشفًا عن وجه شيفا الحاقد. سأله محمد متهكما:

- حكاية غبية؟

- غباء الحقيقة نفسها.

- الحقيقة؟ ماذا أعرف أنا عن الحقيقة؟ كيف يمكن للإنسان أن يصدق أن أباه الميت ليس ميتًا؟ وأن يصحو ذات صباح ليعرف أنه ما كان موجودا إلا لسنة واحدة ينط فيها على أمه ويرحل، تاركًا بدلا منه ورقة موثقة وشيكات شهرية وحقد امرأة لا تعرف الغفران؟

- أوهام. أنت وأنا لا شيء، لا وجود لنا بالمرة.

كان يستشعر العار ولا يجد ما يقوله، وعندما استدار ليواجه نظرة رفيقة البكماء كان من اليسير عليه إدراك أن

الليلة هي الأخيرة، وأن لحظة الوداع الخجول قد أزفت. هل بدأ زمن لينتهي؟ لا زمن ولا وطن ولا أمل هناك، لا ذهاب، ولا عودة، كل شيء راسخ مستقر في مداره، ثابت وتائه في الموسيقى الخرساء. تنهد معزيا:

- ستجده، وسيعوضك عن العذاب.

احتمل محمد كلمات كمال الملوثة بالإشفاق والآمال المصطنعة. قلبه يؤمن بالفاجعة لا بالسعادة، وما اهتم أبدا بالهرب من اليوم القادم وتبعاته، كيف يولد الأب من رحم الإلحاح؟ كيف يبنى البيت بطوب التشرد في الشوارع وصدقات الجيران والزملاء؟ جلس مفتونا يرنو إلى صدر أمه الهائل وقد أراح رأسه فوقه لتلاطفه مشدوهة بحنانها، ومتفجرة بغضبها على الدنيا. أجاب ساخطًا:

- هل تظنني أبالي به؟ لن يكون لي غيرها، مازالت تحيا معي، أحس وجودها في البيت لحظة بلحظة، أراها تغسل لي غياراتي الداخلية وتؤنبني بصوتها الغاضب لأني لم أذهب إلى الحلاق، أنام في حضنها، على سريرها الذي تلتصق به روائح شهوتها ومرضها، وألبس جلبابها القديم المتحني بعرقها الناشف. تحسبني أخرف، لن تصدقني، لن يصدقني

أحد، لكني أقسم أنها هنا، وأخشى أن أسافر وأتركها تموت، هي لن تذهب إليه معي أبدا، إنها عنيدة وذات كبرياء.

تمددا متلاصقين في صمت قبل أن يرفع كمال نفسه في النهاية كي يطبع بشفتيه على جبهة صديقه قبلة طويلة مزلزلة ارتج لها قلباهما معا. من بعيد تناهى إلى سمعهما صوت الشحاذ الأعمى يرتل القرآن بنغمة مكسورة. كان الليل يوغل متسربلا بألم اليقين. أحس محمد بالنصل الحاد الرهيف للإيمان يثقب روحه المنتصبة صامتة في الظلام. فكر في رحاب وهي تؤنبه إذ يعتصرها بين ذراعيه بقسوة ويبتغي تفتيتها كي تتلاشى في الريح:

- تريد أن تقتلني، لكن ما ذنب الولد.

وسيندفع يحتضن خالدا النائم في حماها، يرقب التماع نجمة تائهة في سماء الخليج السوداء، وسيقتفي أثر النجمة العنيدة ليدق على بوابتها النارية محرزا ما تخبئه لهم، بلا أمل. ارتخت عضلات وجهه وجسمه التي ظلت تنقبض وتتقلص طوال المساء في توتر موجع، وأخذت أصابعه المستدقة الناحلة تزيح خصلات شعره الصقيل المبلل بعرق الليل والنهار. همس لصديقه الساكن إلى جواره كحجر.

- سأذهب.

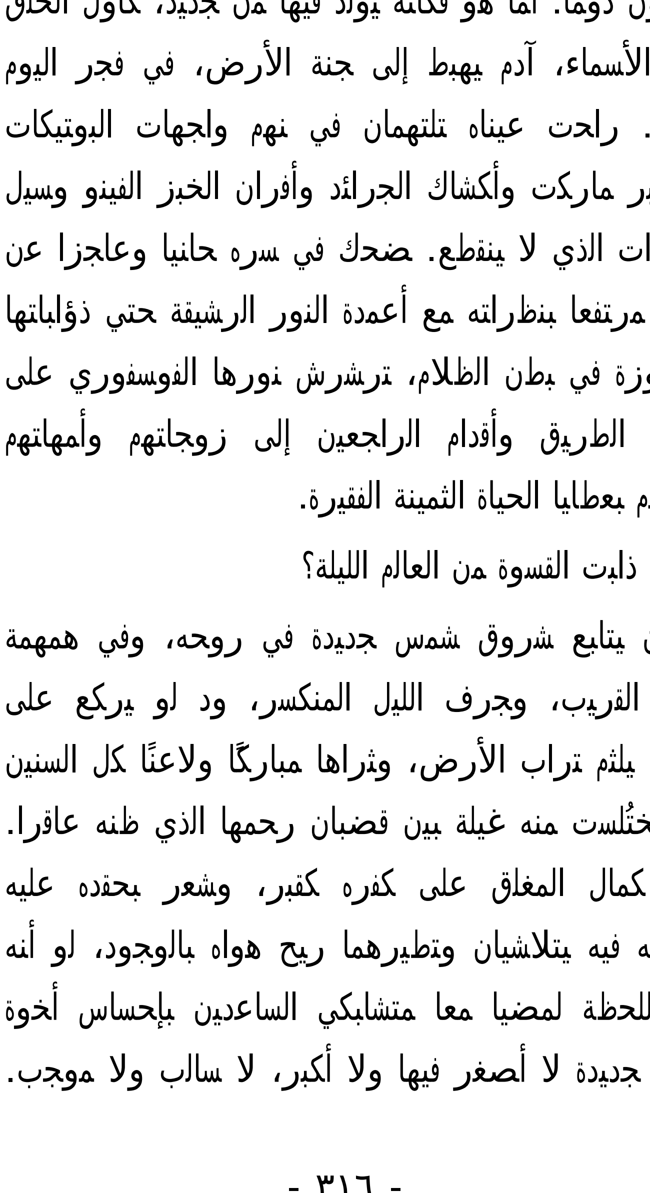
أفلتت زفرة عميقة من صدر كمال، وما رفع إليه سوى ذراعه البكماء، تقول شيئًا لم يلتفت إليه أحد منهما.

(٢٨)

ليل الإسكندرية الدافئ. ليلة أخرى من ليالي شتاء مارس المتراجع أمام نسائم الربيع الوانية. فضل النزول من القطار في محطة سيدي جابر قاصدا فيللا مريم بالأزاريطة سيرا على قدميه. كان يفكر في رسالتها المقتضبة الواعدة:

- احضر حالا، موضوعك تمت تسويته.

في الشوارع النظيفة بدت الحياة لعينيه مدهشة مؤتلقة وحبلى بوعود لا حد لها، هل كانت وعودا له أيضا؟ كان قد عطل، منذ زمن بعيد، كل رجاء له فيها، وبرغم ذلك أحس بقلبه يخفق في صدره بقوة، وضبط روحه مبتهجة بلقاء الناس في الطرقات، بشر حقيقيون من لحم ودم ومتاعب وأحلام، يعودون بتسليم راضٍ من نهار الكدح والعمل إلى ليل الموت العارض اللذيذ. كانت الدنيا هي هي، كما كانت



وستكون دوما. أما هو فكأنه يولد فيها من جديد، كأول الخلق يتعلم الأسماء، آدم يهبط إلى جنة الأرض، في فجر اليوم السابع. راحت عيناه تلتهمان في نهم واجهات البوتيكات والسوبر ماركت وأكشاك الجرائد وأفران الخبز الفينو وسيل السيارات الذي لا ينقطع. ضحك في سره حانيا وعاجزا عن الفهم، مرتفعا بنظراته مع أعمدة النور الرشيقة حتي ذؤاباتها المغروزة في بطن الظلام، ترشرش نورها الفوسفوري على أسفلت الطريق وأقدام الراجعين إلى زوجاتهم وأمهاتهم وأبنائهم بعطايا الحياة الثمينة الفقيرة.

هل ذابت القسوة من العالم الليلة؟

كان يتابع شروق شمس جديدة في روحه، وفي همهمة البحر القريب، وجرف الليل المنكسر، ود لو يركع على ركبتيه يلثم تراب الأرض، وثراها مباركًا ولاعنًا كل السنين التي اختُلست منه غيلة بين قضبان رحمها الذي ظنه عاقرا. تذكر كمال المغلق على كفره كقبر، وشعر بحقده عليه ورغبته فيه يتلاشيان وتطيرهما ريح هواه بالوجود، لو أنه معه اللحظة لمضيا معا متشابكي الساعدين بإحساس أخوة ورفقة جديدة لا أصغر فيها ولا أكبر، لا سالب ولا موجب.

استمر صاعدا في دربه بامتداد شارع بور سعيد في عكس اتجاه سير المركبات، غير عابئ بأنوار مصابيحها المبهرة تصدم عينيه، عاجزة عن هتك ستر رغبته البازغة في عب الحياة، فجأة ثقب أذنيه أزيز فرملة طويلة وضجيج صدمة مكتومة وأصوات زجاج يتهشم. شخصت أبصار الجميع نحو العربتين الرابضتين كزوج من القطط الوحشية وقد هدهما قتالهما معا. لمح سائقيها ينزلان، في تحفز ويدوران حولهما يعاينان الخسائر ويتراشقان بالسباب، وقد التم المارة حولهما، وفي دقيقة لا أكثر كانت حركة المرور في الشارع تختنق، وراحت السيارات والباصات ترسل بكلاكساتها في إلحاح وضجر، انقض سائق التاكسي الذي تهشم زجاجه الأمامي على صاحب الملاكي فاتحا مطواته قبل أن ينجح الجمع بمعجزة في الحيلولة بينهما. ظل النصل الصغير يتلألأ في عتمة ليل ذاكرته ببريقه الفضي، وهو يمضي متئدا في طريقه، أحس بخطوات بطيئة متوازنة الإيقاع تأتي من خلفه بالضبط. التفت ليواجه الشاب الذي يبتسم له بوقاحة في أسماله وحذائه المهترئ. سأله بغيظ:

- ماذا تريد؟

التمعت عينا المتشرد بوميض مخيف، ولم يرد، عزم محمد على السير في طريقه ثانية قبل أن يلمحه يستخرج من فمه شفرة حلاقة صدئة ويكركر بالضحك ثم يهمس له:

- ما تريده أنت، وبعشرة جنيهات لا غير.

عض محمد على شفته التحتانية يكاد يدميها فاهما، منكرا ما فهمه، وغاضبا. راح يغالب غثيانه المباغت منصتا إلى صوت كمال العميق المزدرى:

- لا تأبه لهم، إنهم ذباب السوق.

استراح محمد إلى رائحة الاحتقار الساحر في كلمات معلمه. وفي نبرته المتهدجة اليائسة. أنارت ظلمة عقله فكرة واحدة جلية جلاء كليا، وود من صميم قلبه لو يغدو قادرا على كراهية البشر واحتقارهم بكل الإخلاص والتفاني، في قلب محبته المجانية للوجود التي يستسلم لها الليلة عارقًا أنها آخر ما يتبقى في الروح من ضعف وأوشاب. استسلم لاندفاعة الموجة الهائلة على صخرة الصدر، متسلقًا حافة الرعب والازدراء حتى الأعمق الذي لا قرار له، طفت صورة رحاب على وجه القمر، ففارت دماؤه برغبة عارمة،

وأدرك مدهوشًا كم يشتهيها، كاشتهاء الرضيع ثدي أمه. جعل يهمهم لنفسه بضراعة:

- صدرك يا أم.

في ليالي السهاد بالوطن الغريب سيدفن رأسه في صدرها يرد نبعها بشفتيه الباردتين الظامئتين إلى حليب حنانها، متوسلا إلى النوم أن يحمله على أجنحته المشرعة إلى أزمنة البدايات. ستعرف أنها قد دمرت نفسها، وأنها ما عادت هي ذاتها معه، وسترى برعم روحها وهو يذبل مع كل قضمة صغيرة من أسنانه اللبنية لحلمتها التي فقدت توردها، وستجد في ذراعيها النحيلتين ما يكفي من القوة لتدفعه عنها صارخة:

- لستُ هي، متى تفهم؟

سيبتعد متظاهرا بالغضب ويفكر أنها محقة. وستنتصب أمام عينيه، وتحت شفتيه كبوابة محصنة عالية يخطط، عمره كله، لدكها مرتعبا، ربما من لحظة نفاذ قدر عنفوانه فيها.

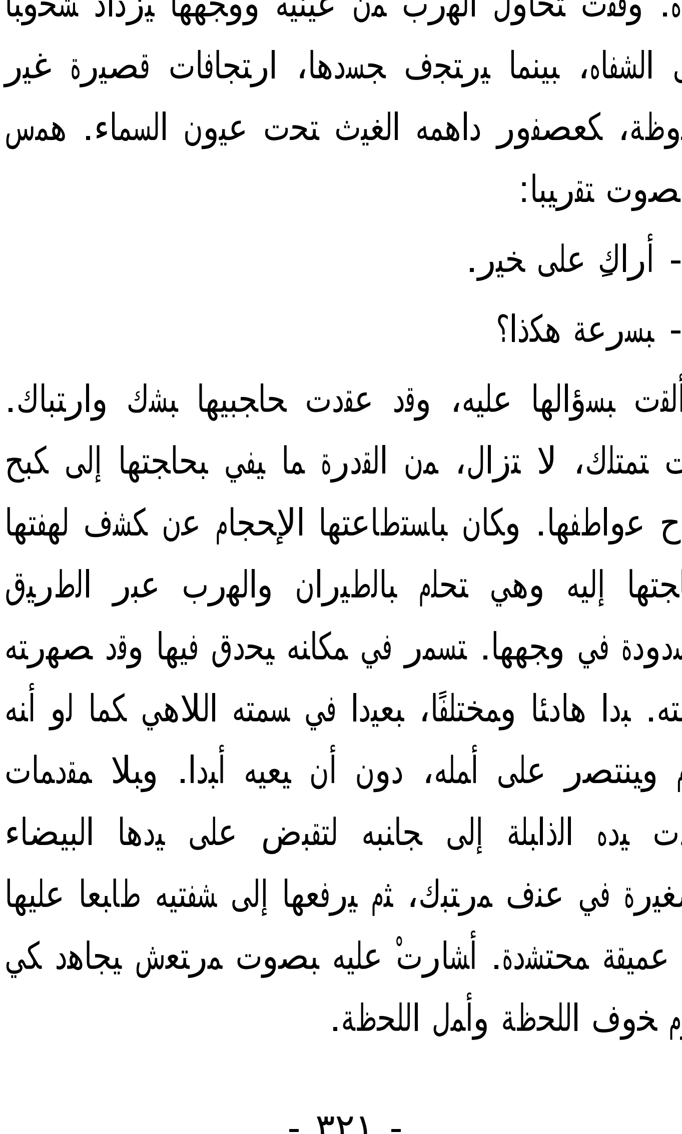
استقبلته مريم بابتسامة عذبة وقور وهي تهتف بانتصار:

- كسبنا معركتنا مع الرجل العنيد واعترف رسميا بصحة نسبك إليه.

تمهلت ثوانٍ تفتش في عينيه عن دلائل الفرح، لتواصل بنبرتها السريعة القاطعة:

- تستطيع الذهاب إلى السفارة منذ الغد لطلب التأشيرة. خذ هذا الخطاب إلى القنصل، سيسهل لك الإجراءات.

- قبض على خطابها المغلق فاهما أن مصيره لسنوات عديدة قادمة قد تقرر ببساطة حروفه الأنيقة المتراقصة. غمغم يشكرها بكلمات لا يجد لها معنى فوق شفتيه. نظر بجانب عينيه إلى رحاب الواقفة إزاء زجاج الشرفة المقفلة ترسل بنظراتها الساهمة نحو البحر، وتمتص المشهد الليلي بوجه مجفل محترق. على رصيف الكورنيش الخالي راحت امرأة شابة ترتدي فستانًا صوفيا داكن اللون تتمشي في هدوء مثير، وبين الحين والآخر تقترب سيارة بمحاذاتها ببطء في دعوة للركوب. خيم انتظار قلق على نفس رحاب متمنية ألا تركب، وبمجرد أن خطت المرأة خطوتها الأولى لتجلس إلى جوار الرجل الوسيم في المقعد الأمامي للفولفو الكبيرة، أنصتت رحاب إلى صوت الحياة يسكت في داخلها، وأحست باللسع المالح لدمعة لم تفر من عينيها. استدارت إلى محمد المنتظر وراءها صامتا يتأملها في ثوبها المنزلي البسيط، ويغالب



رغبته في تمسيد شعرها الملقى على كتفها في فوضى طبيعية لذيذة. وقفت تحاول الهرب من عينيه ووجهها يزداد شحوبا حتى الشفاه، بينما يرتجف جسدها، ارتجافات قصيرة غير ملحوظة، كعصفور داهمه الغيث تحت عيون السماء. همس بلا صوت تقريبا:

- أراكِ على خير.

- بسرعة هكذا؟

ألقت بسؤالها عليه، وقد عقدت حاجبيها بشك وارتباك. كانت تمتلك، لا تزال، من القدرة ما يفي بحاجتها إلى كبح جماح عواطفها. وكان باستطاعتها الإحجام عن كشف لهفتها وحاجتها إليه وهي تحلم بالطيران والهرب عبر الطريق المسدودة في وجهها. تسمر في مكانه يحدق فيها وقد صهرته محنته. بدا هادئا ومختلفًا، بعيدا في سمته اللاهي كما لو أنه يتألم وينتصر على أمله، دون أن يعيه أبدا. وبلا مقدمات امتدت يده الذابلة إلى جانبه لتقبض على يدها البيضاء الصغيرة في عنف مرتبك، ثم يرفعها إلى شفتيه طابعا عليها قبلة عميقة محتشدة. أشارتْ عليه بصوت مرتعش يجاهد كي يهزم خوف اللحظة وأمل اللحظة.

- هل تعزمني على فنجان قهوة في أي مكان؟ من يدري؟ ربما لا نلتقي ثانية.

أطرق متحيرا ومبتهجا لمبادرتها المفاجئة، وفي قلب بهجته راح يفكر بخوف أنها تدفعه للغوص في الحياة، الحياة التي تفضي إلى الموت.

لاحقته مشاكسة كي لا يطول صمته:

- إذا لم يكن معك ثمن القهوة أدفع أنا، وترسل لي شيكًا بالمبلغ من أول راتب تقبضه هناك، انظر لقد حصلت من البنات اليوم نقود المجموعة وأصبحت غنية.

- كيف تشربين قهوتك؟

- على الريحة.

- معي نقود تكفي لفنجاني قهوة على الريحة.

ظلا صامتين لا يعرفان ماذا يقولان بعد، بينما جلست مريم تتابع المشهد المتوهج البارد متوجسة أن صديقتها ستعرف كيف تأخذه إليها غير عابئة بكل ما ستفقده لقاء ذلك.

(٢٩)

انطلقت خطاهما نازلين باتجاه كورنيش الشاطبي. سارا متلاصقين من غير أن يجرؤ أحدهما على الميل لينظر في عيني رفيقه. كانا يحاولان النأي بخيالهما عن واقع كونهما، ولأول مرة، معا في مواجهة البحر المظلم المثقل الذي يترامى تحت عيون روحيهما قلقا ومهددا بوعود ونُذر تتربص بهما عند منعطف الليلة. وعلى بعد أمتار قليلة انتصب الكازينو العتيق طالعا من بين الموج اليابس كزهرة لوتس ضخمة تتربع على سيقان من رخام وحديد. تمهلت خطاه أمام الكوبري الواصل بين رصيف الكورنيش والكازينو، وبان على وجهه التردد قبل أن يحسم أمره:

- لندخل.

انصاعت رحاب المتلفة بشالها الصوفي الأزرق، بلا تفكير. أحس بسلطانه عليها، مدركًا بزهو إنها مهيئة الليلة

للامتثال الكامل. وبرغم زهوه، تذوقت روحه متلذذة الطعم المر لخيبة الرجاء، ولعلقم التفاهة الذاتية السابح رويدا في عروقه المفتوحة. كان لا يطيق فرض أي شيء على أحد، ليس لأنه يكره الاستبداد، أو يخشى إيذاء الغير، بل لأنه ما صار أكيدا يوما من جدارة اختياراته وصلاحيتها للحياة. وكمن يستمتع بالحرية التي تهبه إياها الضآلة، فقد تقمص نهائيا دور عبيط البلد الحكيم. جلسا إلى المائدة النائية في الركن المعتم المواجه للبحر مباشرة غير ملتفتين إلى أزواج العشاق المتناثرين في الكازينو الواسع شبه الخالي. ولفترة من الوقت، خيم الصمت والسكون في ذلك الفراغ الشاحب البارد، وظلت الحركة الوحيدة، في رحم الليل ورحمته، هي اصطدامات أجساد النوارس المشدودة بشمس البحر السوداء، وظِل النادل الداكن في سترته الغامقة المهترئة وهو ينتقل بالطلبات هنا وهناك فارضا حضوره المهيمن على المكان.

في ليلة فوق هذه الليلة سيكتب محمد منشدا:

اليوم ودعت الأهل والأصحاب

مديرا قارب حياتي صوب وجهك الحبيب

بفرح العائد إلى داره بعد الغياب

أحرقت مركب النفس المتداعية

وفككت ارتباطي العنيد بالحاجة والاشتهاء

ليس هجراننا سعيي ولا وصلاً

ليس قتيلاً قلبي ولا تقدمة

كان الموج يرتطم بالأعمدة الرخامية تحتهما مدوما ومنحلا إلى مويجات صغيرة ناتئة على السطح الأملس لماء الليل. غامرت رحاب متسائلة.

- سعيد بانتصارك؟

- انتصاري؟

- أخيرا تذهب إلى بيت أبيك. أليس هذا ما كنت تريد؟

راح ينقر بأصابعه على المنضدة ملاحظًا، باشمئزاز، البقع الدهنية القذرة التي توسخ المفرش القديم. سأل مستثارا محنقًا:

- لماذا لا يغسلون هذه المفارش؟

نزل الصمت ثانية قبل أن تواصل استجوابها بإلحاح:

- هل تتخيل شكل حياتك هناك؟ لا أعتقد أنها ستكون سهلة.

- لن تكون سهلة.

- تشعر بالحزن لرحيلك عن هنا؟

- الحزن! طبعا أشعر بالحزن، دائما.

انكمش على نفسه واضعا رأسه بين راحتيه ومستندا بمرفقيه إلى الطاولة. كان عارفا برعب الرحيل وموقنا به، شاء أم أبى. تمنى لو يتوقف الزمن عند هذه الليلة المشحونة بالخوف والرجاء. تمنى لو لم يكن هناك زمن. قالت:

- أعرف طريقة مجربة للتغلب على الحزن.. لماذا لا تتزوج وتنجب أطفالا، هل تحب الأطفال؟

- لا.

- خسارة. لا شيء يقهر الحزن مثل ابتسامة طفلك ولمعة عينيه الفرحانة عند دخولك عليه بعد غياب، عندما أتزوج سأشترط على زوجي أن ننجب أطفالا كثيرين، سيرهقونني ويستهلكون صحتي ويعطون لحياتي معنى.

- تريدين الزواج؟

- أنا واحدة طبيعية يا حبيبي، هل تعرف بنتا لا تريد الزواج؟ حتى تلميذاتي في المدرسة لا يشغلهن في الدنيا إلا الحب والزواج.

- لكن الحياة أكبر وأعقد من حلم المراهقات بالحب والزواج.

رنت ضحكتها ساخرة أو حاقدة. أجابت بنبرة متعالية ملوثة بالرثاء:

- فلسفة كذابة، أنتم، المثقفين ـ لا تعرفون الحياة، وتخافون منها، لماذا لا يثق المثقف برجولته كما يفعل أتفه واحد في الشارع؟

تعرف؟ لن أتزوج مثقفًا ولو كان آخر رجل في العالم.

كان دائخًا ليجيبها. امتدت يده بحركة آلية ترفع فنجان القهوة على شفتيه ليحس بالطعم المر للبن المحروق على لسانه، كان ينصت لنبضات الألم الخافت في رأسه وعروقه وهو يهمس:

- أحلم دائما أني أسقط من فوق جبل عالٍ، وأرى نفسي مندفعا إلى الموت في الهاوية بأقصى سرعة، أصرخ وأصرخ فلا يخرج صوتي من حلقي، وفي اللحظة الأخيرة

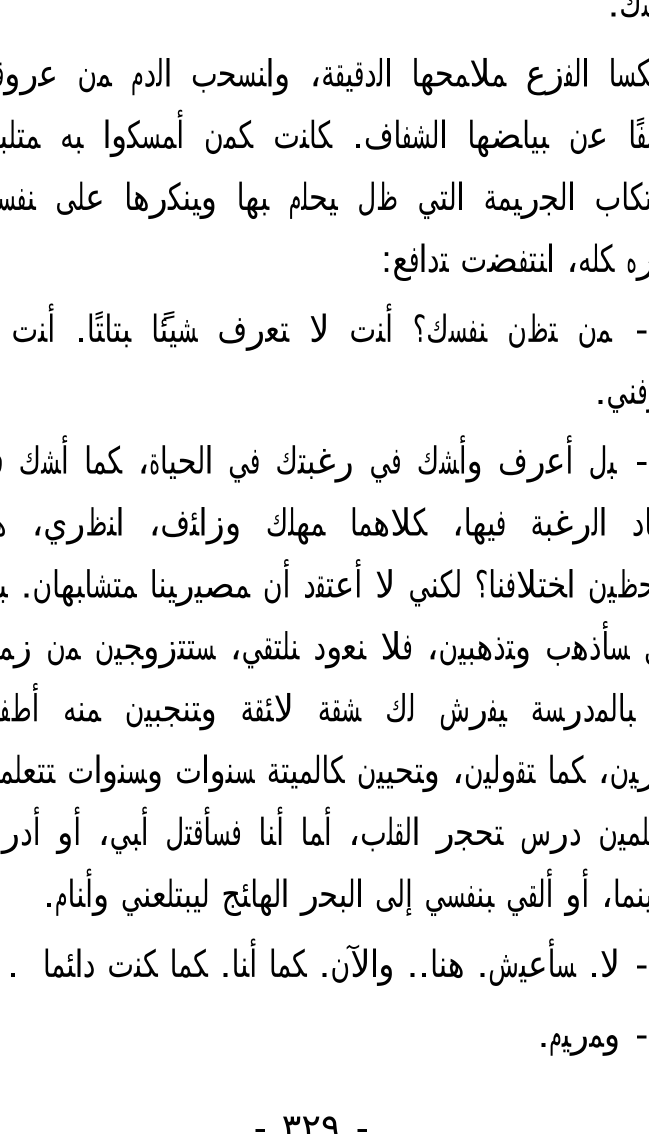
أخلع عني اسمي وجسمي وماضي ومستقبلي، فينشق جنباي وينبت لي فيهما جناحان، أضرب بهما الهواء وأطير.؟

- الحياة هنا على الأرض. اصح يا حبيبي.

- وهل تتصورين أننا نوجد لنعيش كالحيوانات، ثم نموت، وينتهي كل شيء؟ لو كان الأمر كذلك لم استحقت الحياة أن نتمسك بها يوما واحدا .

جلس يلهث من فرط الانفعال، يلاحق شيئًا ما ينأى بنفسه بعيدا عنه، هازئًا من سعيه وتوقه. في نهاية كل طريق يراوده الأمل في وجود عميق يغمره السلام، لكن ما يضمن له أن المخبوء يستحق منه كل تلك المعاناة في الطلب؟ لبث صامتًا يحدق فيها بعينين خائفتين مستاءتين قبل أن يرجفها بسؤاله:

- لن أعقد جلسة لمحاكمة الأفكار والنوايا يا رحاب، لكنك تعرفين، مثلما أعرف، أنك حرضتني يوما على صفعك أمام الجميع. لماذا تصرين معي الآن كل هذا الإصرار على دور المرأة التواقة إلى الحياة، الحريصة عليها؟ من تخدعين بكلامك؟ أنتِ لا تستطيعين ولا تريدين العيش، لا ترغبين في الزواج ولا تحلمين بالأطفال، لكنك أجبن من أن تعترفي



لنفسك بالحقيقة، تظنين أنها تنال من كبريائك واعتزازك بنفسك.

كسا الفزع ملامحها الدقيقة، وانسحب الدم من عروقها كاشفًا عن بياضها الشفاف. كانت كمن أمسكوا به متلبسا بارتكاب الجريمة التي ظل يحلم بها وينكرها على نفسه، عمره كله، انتفضت تدافع:

- من تظن نفسك؟ أنت لا تعرف شيئًا بتاتًا. أنت لا تعرفني.

- بل أعرف وأشك في رغبتك في الحياة، كما أشك في افتقاد الرغبة فيها، كلاهما مهلك وزائف، انظري، هل تلاحظين اختلافنا؟ لكني لا أعتقد أن مصيرينا متشابهان. بعد قليل سأذهب وتذهبين، فلا نعود نلتقي، ستتزوجين من زميل لك بالمدرسة يفرش لك شقة لائقة وتنجبين منه أطفالا كثيرين، كما تقولين، وتحيين كالميتة سنوات وسنوات تتعلمين وتُعلمين درس تحجر القلب، أما أنا فسأقتل أبي، أو أدرس السينما، أو ألقي بنفسي إلى البحر الهائج ليبتلعني وأنام.

- لا. سأعيش. هنا.. والآن. كما أنا. كما كنت دائما .

- ومريم.

ضيقتْ عينيها مباغته، وغير فاهمة ما يرمي إليه.

- مالها مريم؟

- تريدك أن تعيشي هنا والآن، كما أنتِ، وكما كنت دائما؟

أطرقت صامتة زمنا في كلماته وصوته تعريض وسخرية لم تجد بداخلها ميلا لدفعها عنها. أيقنت أنه عاجز عن فهمها أو مد يد العون الحقيقية إليها. كانت ضجرة وتغص بالاشمئزاز، وفي الوقت الذي راحت تنصت فيه إلى نبض قلبها ووجيبه المتعالي، أبصرت قلبه يتثاءب ويتمطى بكسل أخلاقي تافه، وبعكس رغبتها، ابتدأت تنشج نشجات جافة ذاهلة عن كل شيء إلا كراهيتها له. قبضت على حقيبة يدها الصغيرة وانتترت قائمة.

- وداعا.

امتدت يده تمسك بها في حيرة ورعب، وشعر بقلبه يتوقف عن الخفقان من الدهشة والمفاجأة، كان يتوسل إليها تقريبا.:

- لا تذهبي.

بقيت يده محتضنة يدها، تعتصرها حتى الألم وتمنعها من الرحيل، جعلت تصارع سجنها وعماه علها تتحرر منه وإليه، وصار وجهها يتقلب متشنجا معصورا ونابضا وهي تصرخ به:

- تأخرنا، ماذا تريد مني الآن؟

على رصيف مهجور ما، رأى آماله تتمدد مكشوفة، منكفئة على وجهها، ومديرة ظهرها إلى السماء البعيدة اللامبالية، كانت الروح تضغط روحها على الرمال الخشنة تشتهي لو تختفي ويبتلعها الصمت الشامل. حبس أنفاسه طويلا قبل أن يحررها وهو يهمس بصوت ضارع ليس منه:

- تتزوجيني؟

- ماذا؟

ألقت بجسمها على المقعد مشدوهة. كان كل ما يحدث اللحظة ممكن الحدوث، وصادما على نحو ما. أحلام البنات، وقد غدت، أخيرا، أكثر من مجرد أحلام بنات. جلست تتأمله في أسى أبكم، مؤمنة بفشلها في اقتناص الفرح، من غير أن تنسى حبك الشال الصوفي فوق كتفيها، أو اعتصار شفتيها

بين أسنانها بقسوة تزيدهما احمرارا ونضجا للقُبل في عينيه. قال بنبرة واضحة:

- لن يطول غيابي هناك، لا بد وأن أعود إلى الأرض التي عاشت ودفنت فيها أمي، لكني أخاف من الوحدة وخيالاتها المجنونة. هل جربت رعب الوحدة يا رحاب؟

هزت رأسها تصارع ارتعاشة الحياة في صدرها مجددا. تمنت لو أنهما وحدهما اللحظة بعيدا عن عيون الناس والليل المتلصص، لترتمي صامتة على صدره، وتعطيه شفتيها المضمومتين المدماتين يقبلهما قبلة حزينة لاعجة فتذوب وحدته. عاد يصر بنبرة اعتراف:

- أنا أيضا أريد أن أحيا، لا تصدقي حرفا من كلامي عن الموت، لو أستيطع لجعلت نفسي خالدا، لكني إنسان ضعيف سريع الاستسلام لليأس، أستسلم دائما وأكذب دائما.

- ومن لا يستسلم أو يكذب؟ لا فائدة من تعذيبك لنفسك.

- لكنك أنتِ لا تكذبين، من أول لحظة اعترفت لي برغبتك.

- أكذب

- كثيرا ؟

جلست منتصبة تحدق في عينيه محاولة هزيمة خوفها من اللحظة، وقد ابيض وجهها كقمر خاوٍ. زفرت:

- كثيرا. جدا جدا .

سرح ببصره إلى البحر يتابع مفتونا قطران المطر على زجاج القاعة المغبش بالضباب، دقيقة أخرى، ثم بدأت السماء تفتح خزاناتها المعلقة تغسل وجه الأرض المتألمة من النشوة. لاحت السماء لعينيه قاسية في عشقها، ومبهورة بحريتها المعربدة. انتبه على صوتها الموشوش الفَرِح:

- النّوة.

كانت النوارس تحلق تحت بصره تريد أن تثقب صفحة الزجاج وسقف الوجود لتنفذ خلفه. أصغى إلى خبطات أجنحتها الملهوفة على وجه المساء وبوابة الليل. متسائلا عما يشوقها وتأمل في لقياه هناك. أجالت رحاب نظرة مطفأة في الزبائن المنكمشين على همسهم وهمهماتهم وقد أخذتهم النّوة غيلة، ينتظرون فرصة سانحة يرجعون فيها للبيوت الدافئة هل قالت له:

- بعد طلاق أبي وأمي تزوج كل منهما من جديد، عشتُ في هذا البيت يوما، وفي ذاك أسبوعا وبقيت غريبة هنا

وهناك، لولا جدتي لضعت، عندما ماتت اسودت الدنيا في عيني وعرفت معنى اليتم، وما شعرت بأي فرق لما مات أبي، وتحطمت سيارته البيجو الأجرة على الطريق السريع قرب دمنهور.

- وأمك؟

- لا أعرف عنها شيئا. اختفت هي وزوجها منذ سنوات. يقول الجيران إنه سافر للعراق أولا، وأرسل لتلحق به بعد ذلك، ثم انقطعت أخبارهما نهائيا.

جلس ينصت إلى حكايتها الحزينة، ويفكر في تاريخه المبدد كنفحة من ضباب الصباح تذوب في شروق الشمس. سأل متذكرا :

- هذه كل الحقيقة؟

صرت على أسنانها، وعقفت زاوية فمها ابتسامة غامضة. همست:

- كل الحقيقة التي أعرفها.

نزل إلى الشاطئ عاريا وقد التمعت عيناه السوداوان بمعاناة الليل وكبرياء الحب وزيف الحقيقة. كان كل شيء يبدو مألوفا وعلى حاله، منذ هبط آدم إليه، وراحت السمكات

تتقافز مرحة لاعبة ومحذرة من متعة التآلف غير المختبر، بالأشياء وقدرها الحكيم. احتضن اليم بين ذراعيه وغاص بهدوء مكتفٍ، في بهو قصر ملك البحر وأمام عرشه استلقت عرائس البحر بأجسادهن البيضاء الملساء المتوامضة تغري باللمس وسياحة الأصابع والشفاه. كن ينادينه في خروجهن من الظلام إلى الظلام. ومن النور إلى النور. غمزت له أجملهن في غفلة من أعين الرقباء تشير عليه أن يتبعها، فراح يسبح خلفها بحذر وشوق معطل بالخوف. في جوف الصخرة المعتمة المخضرة بالطحالب والأعشاب الندية فتحت له فخذيها الشمعيتين تدعوه:

- ادخل.

حبس أنفاسه محررا طاقته ناصبا مدافعه آملاً في النفاذ مرة ومرة ومرة، ولا حول ولا قوة. حدث قلبه بخزي:

- أنا ميت. ميت.

ارتسمت فرحة متألمة فوق شفتيه المرتعشتين وهو يبحلق في ذقنها الدقيقة البديعة بخال الحسن الطبيعي، وعنقها الرخامي المرفوع كما في أحد تماثيل التانجرا. كان المطر قد

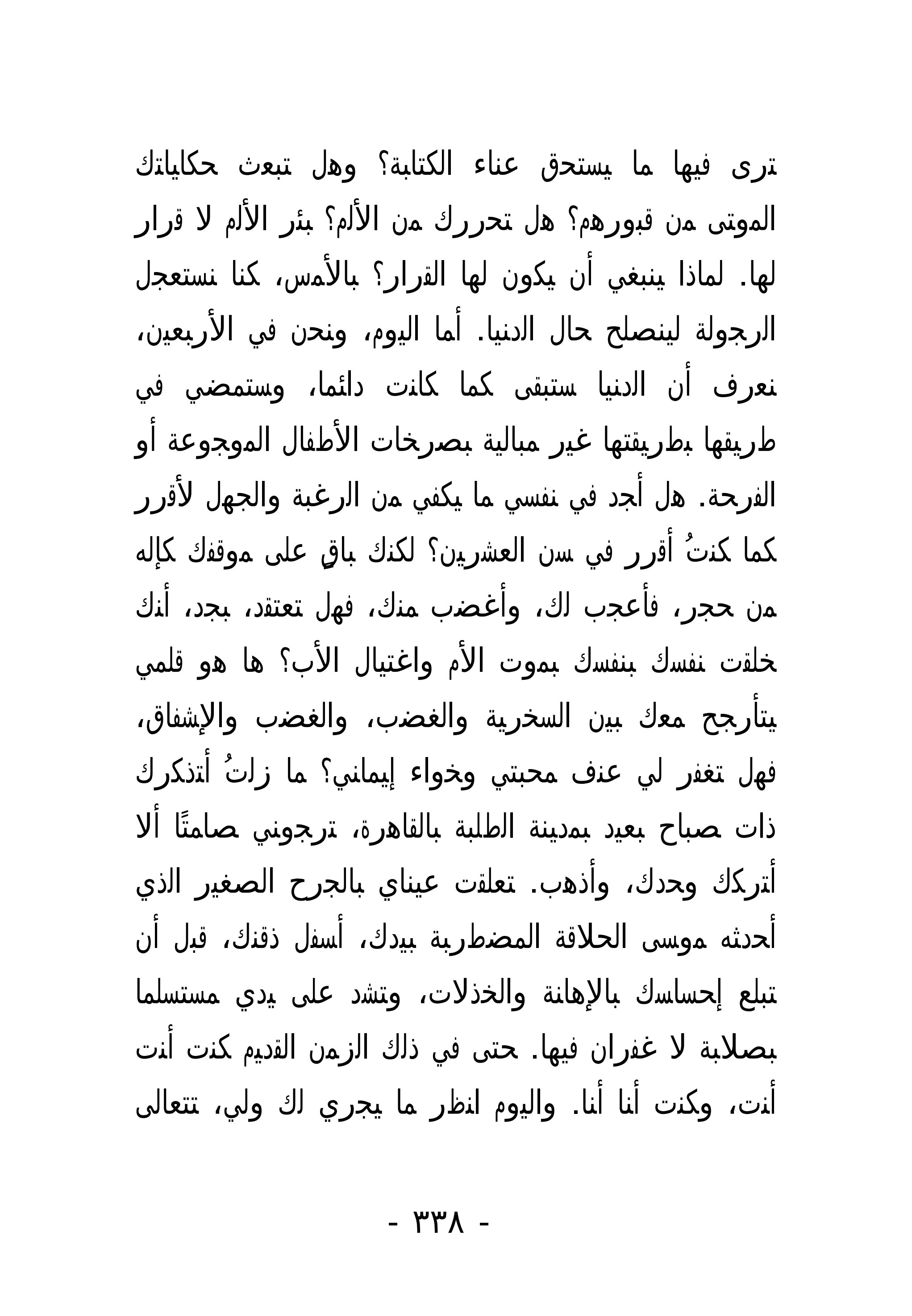
أفرغ جعبته أخيرا، وانتشر في جو الليل دفء بهيج ممتع، واختفت النوارس وكأنها ما كانت:

قاما راجعين إلى عالمهما القديم يلقيان عليه نظرة وداع. وداع يبدأ، وداع يستعاد. فتحت مريم فمها تهم بقول شيء ما. اغتال صمتها زوائد الكلام، واحترقت الحياة في لهب الظلام الباطني.

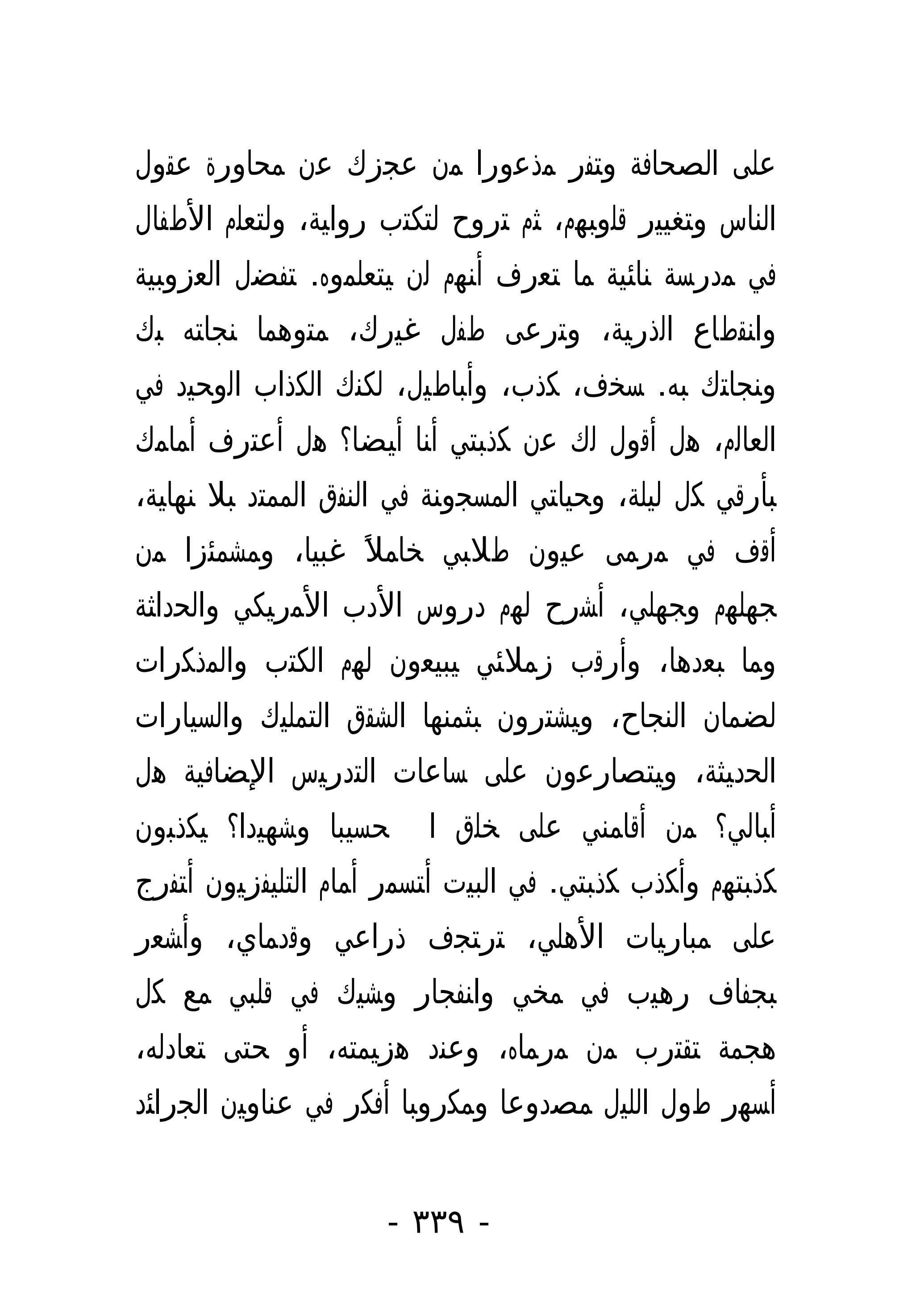
(٣٠)

صديقي الحكيم..

هأنت تواصل تمثيل دورك الذي اخترعته لنفسك، ولا يجرؤ أحدنا على مزاحمتك عليه، ولا يرغب أحد في عمل ذلك من أصله. طبعا.. ألستَ حكيم الجيل؟ الشاهد الصامت على تاريخ الأحلام والانكسارات؟ والحافظ الأمين لوعود المستقبل الذي تؤمن به وحدك وتنتظره وحدك؟ كيف حال خالد؟ أراه بعيني خيالي يشب في حضنك متسغربا جديتك وجهامتك بعينين سواداوين كلهما شقاوة وعفرتة، غير عابئ بالسؤال عن شيء مما يؤرقك تسجيله، أم لعلك أفلحت في إفساده وتعذيبه، وفتحت بوابة قلبه الأخضر على آلام لن يعرف لها معنى، ليجد في الحياة كما تجد أنت، كما نجد في عمانا، فيوشك أن يضيع؟ وتروي روايتنا؟ يا مسكين.. هل



ترى فيها ما يستحق عناء الكتابة؟ وهل تبعث حكاياتك الموتى من قبورهم؟ هل تحررك من الألم؟ بئر الألم لا قرار لها. لماذا ينبغي أن يكون لها القرار؟ بالأمس، كنا نستعجل الرجولة لينصلح حال الدنيا. أما اليوم، ونحن في الأربعين، نعرف أن الدنيا ستبقى كما كانت دائما، وستمضي في طريقها بطريقتها غير مبالية بصرخات الأطفال الموجوعة أو الفرحة. هل أجد في نفسي ما يكفي من الرغبة والجهل لأقرر كما كنتُ أقرر في سن العشرين؟ لكنك باقٍ على موقفك كإله من حجر، فأعجب لك، وأغضب منك، فهل تعتقد، بجد، أنك خلقت نفسك بنفسك بموت الأم واغتيال الأب؟ ها هو قلمي يتأرجح معك بين السخرية والغضب، والغضب والإشفاق، فهل تغفر لي عنف محبتي وخواء إيماني؟ ما زلتُ أتذكرك ذات صباح بعيد بمدينة الطلبة بالقاهرة، ترجوني صامتًا ألا أتركك وحدك، وأذهب. تعلقت عيناي بالجرح الصغير الذي أحدثه موسى الحلاقة المضطربة بيدك، أسفل ذقنك، قبل أن تبلع إحساسك بالإهانة والخذلات، وتشد على يدي مستسلما بصلابة لا غفران فيها. حتى في ذلك الزمن القديم كنت أنت أنت، وكنت أنا أنا. واليوم انظر ما يجري لك ولي، تتعالى



على الصحافة وتفر مذعورا من عجزك عن محاورة عقول الناس وتغيير قلوبهم، ثم تروح لتكتب رواية، ولتعلم الأطفال في مدرسة نائية ما تعرف أنهم لن يتعلموه. تفضل العزوبية وانقطاع الذرية، وترعى طفل غيرك، متوهما نجاته بك ونجاتك به. سخف، كذب، وأباطيل، لكنك الكذاب الوحيد في العالم، هل أقول لك عن كذبتي أنا أيضا؟ هل أعترف أمامك بأرقي كل ليلة، وحياتي المسجونة في النفق الممتد بلا نهاية، أقف في مرمى عيون طلابي خاملاً غبيا، ومشمئزا من جهلهم وجهلي، أشرح لهم دروس الأدب الأمريكي والحداثة وما بعدها، وأرقب زملائي يبيعون لهم الكتب والمذكرات لضمان النجاح، ويشترون بثمنها الشقق التمليك والسيارات الحديثة، ويتصارعون على ساعات التدريس الإضافية هل أبالي؟ من أقامني على خلق ا حسيبا وشهيدا؟ يكذبون كذبتهم وأكذب كذبتي. في البيت أتسمر أمام التليفزيون أتفرج على مباريات الأهلي، ترتجف ذراعي وقدماي، وأشعر بجفاف رهيب في مخي وانفجار وشيك في قلبي مع كل هجمة تقترب من مرماه، وعند هزيمته، أو حتى تعادله، أسهر طول الليل مصدوعا ومكروبا أفكر في عناوين الجرائد

وتعليقاتها الساخرة على الفريق صباح الغد. وإذا اقتربت مني ابنتي لتركب على ظهري أشتمها وأضربها لتبتعد عني وتتركني وحدي، فتؤنبني أمها:

- مجنون، أحتمل قسوتك وخيبتك طول العمر. طلقني.

وأوشك أن أنطقها لأتخلص منها، لولا انسحابها بعيدا عن عيني وهي تبرطم بما لا أهتم بسماعه من شتائمها، وعندما أبقى وحدي أهدأ، أشكر لها في سري حكمة تراجعها في الوقت المناسب بغريزتها الأنثوية، عازما على تطليقها يوما لأهرب من سجن بيتها، ومؤجلا قراري، إلى مالا نهاية، متعللا بوجود الطفلة. هل ترى مقدار ما انحططت إليه من الرياء وخداع النفس؟ لكني أحيي الحياة على صرامتها التي لا ترحم، وصممها عن صرخات الإشفاق المنافقة يطلقها الأطفال بداخلنا، تُرى أي فوضى كانت تغمر الدنيا لو أصاخت آذان سمعها جادة لصراخنا الصبياني اللامسئول؟ صحيح إن قلب الحياة قاسٍ، لكن قلب الإنسان أشد قسوة. أتفلسف الليلة، بينما ينبغي علي أن أحاول النسيان. كيف أنساكم؟ هل تدلني على الطريق لذلك؟ الأسبوع الماضي التقيت وائل، تذكره؟ بمصادفة لم أسعد بها، ابتسم بتحفظ

ورزانة وهو يحكم غلق أزرار البدلة الجديدة ليبدو في كامل أناقته، فكدتُ أضحك، سأل عنك وعن ناجي فأخبرته بأحوالكما، لمعت عيناه وهز رأسه بأسف قائلا:

- مجانين. من يومكم وأنتم مجانين.

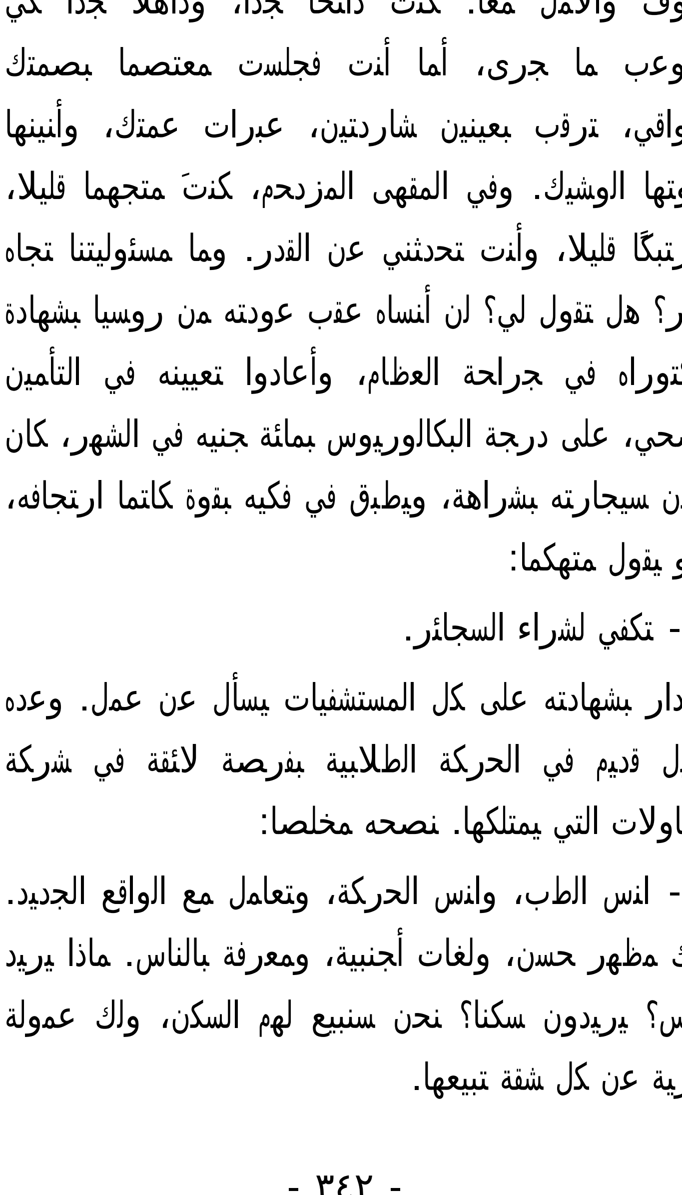
سألته متهكما عن آخر مغامراته مع الشغالات، فهمس بلهجة خطيرة أن أنسى ذلك، فما عادت الشقاوة مناسبة لوكيل نيابة، هل تسمع ما أقول؟ وائل أصبح وكيلا للنيابة، وأشرف يلقي بنفسه من الطابق الخامس ليموت. قبل الحادث بشهور صرختُ به مروعا وأنا ألمح كبشة الفاليوم التي يبتلعها بجرعة ماء صغيرة.

- أنت تنتحر.

كان النوم يجافيه لأنه اختار اليقظة التي تؤجج نفسه بالكره والازدراء، رماني بنظرة مشفقة وساخرة وهو يغالب نفسه ليرد علي:

- طبعا أنتحر ألم تفهم ذلك من قبل؟

وكنت أفهم أنه ينتحر وأنني أنتحر، لكني عشت أسى وهم رقة الموت المذهلة التي تصلنا بالحياة لننتصر عليه، عبرها. كنت آملا، لا أزال فيها، وكان هو قد كشف قلبه الأخير



للخوف والأمل معا. كنت دائخًا جدا، وذاهلا جدا كي أستوعب ما جرى، أما أنت فجلست معتصما بصمتك الرواقي، ترقب بعينين شاردتين، عبرات عمتك، وأنينها وموتها الوشيك. وفي المقهى المزدحم، كنتَ متجهما قليلا، ومرتبكًا قليلا، وأنت تحدثني عن القدر. وما مسئوليتنا تجاه القدر؟ هل تقول لي؟ لن أنساه عقب عودته من روسيا بشهادة الدكتوراه في جراحة العظام، وأعادوا تعيينه في التأمين الصحي، على درجة البكالوريوس بمائة جنيه في الشهر، كان يدخن سيجارته بشراهة، ويطبق في فكيه بقوة كاتما ارتجافه، وهو يقول متهكما:

- تكفي لشراء السجائر.

دار بشهادته على كل المستشفيات يسأل عن عمل. وعده زميل قديم في الحركة الطلابية بفرصة لائقة في شركة المقاولات التي يمتلكها. نصحه مخلصا:

- انس الطب، وانس الحركة، وتعامل مع الواقع الجديد. لديك مظهر حسن، ولغات أجنبية، ومعرفة بالناس. ماذا يريد الناس؟ يريدون سكنا؟ نحن سنبيع لهم السكن، ولك عمولة مغرية عن كل شقة تبيعها.

كان يضحك بمرارة وهو يؤكد:

- أعتقد أني قد عشت حياة فارغة لا تستحق البكاء عليها، لستُ أول المخدوعين ولا آخرهم على أي حال، تعرف؟ كان هناك الكثيرون في الاتحاد السوفيتي من أمثال هذا المناضل السابق، يوقعون على استمارات العضوية بالحزب ليحصلوا على المنحة الدراسية، ويسافرون للاتجار في الجينز الأمريكاني، وسجائر المارلبورو المهربة، والعملة الصعبة.

صمت طويلا على غير المألوف، كان يشعر بقلبه حزينًا ومذنبا ثم همس بأسى:

- انهارت الأحلام وما تبقى غير الحيرة والندم، حتى هناك، أصبح إنسان المجتمع الاشتراكي مستعدا لبيع التاريخ والمخدرات والأعراض وأمه وأبيه في مقابل ورقة خضراء بمائة دولار، لا أعرف كيف تقدر سابينا على تدبير حاجتها في بلادها، ولا طاقة لي باستقدامها للعيش معي هنا، كما ترى بنفسك.

كان يبحث عن غطاء يختفي تحته في الظلام، خجلا من تفاهة مأساته، كما يظن، وإن بقي مفتونًا، لآخر لحظة، بفكرة الذهاب إلى الموت بإيمان وعناد. كان يعترف أمامي بحسد:

- حرصهم على الشهادة يثير غيرتي منهم، هؤلاء الصبية الواهمون، هل يشبهون مثقفي اليسار المخنثين الثرثارين في شيء؟ هل تراهم وهم يتمطون بكسل في سهرات البانجو والبيرة بانتظار إشارة صغيرة من أصبع النظام ليخدموا في هذه أو تلك من المجلات الثقافية الكئيبة التي لا يقرأها أحد؟

صديقي. لماذا أعيد عليك الليلة رواية ما تعرفه؟ ألأني أريد أن أؤلمك كما أتألم أنا، وكما تألم أشرف؟ ألأني أرغب في تلقينك درسا أوليا في الإشفاق والتعاطف؟ الآن وقد مرت الأيام والسنون في تلك الغيبوبة الطويلة، وانقطعت بنا سبل الرجوع، لا يتبقى لنا إلا خياران لا ثالث لهما، فإما أن يرمي الواحد نفسه من الدور الخامس ليستريح، وإما أن يكتب رواية ليجلد روحه بلا رحمة متوهما إمكانية الخلاص بإماتة الأمل وتعليب الرجاء. وأراك، طبعا، ترتضي تجربة المرتقى الصعب. فلتجلس مسترخيا أو ثائر الأعصاب أمام مكتبك لتدبج شهادتك على الجيل، طامعا أن يجد فيها أحد بعض العزاء، عندها ستكون، وأكون، كما كنا دائما. ولتقرأ على خالد سطورا من هرائك المنمق عن أهله وأهلك، حالما بذلك اليوم الذي يرمي فيه بكل تلك الثرثرة المعتوهة إلى محرقة

اللامبالاة المتضاحكة. هذا إذا كان صالحا للحياة حقا، ولتقل على الدنيا السلام. وجع رهيب يفتت دماغي، وأنا أكتب لك آخر كلماتي. أتطلع إلى وجه طفلتي النائمة مشفقا عليها مما يخبؤه الصباح، فهل فقدنا، بجد، كل أمل في أن نلصق أرواحنا بجسد الحياة؟ عندما تنوي يوما أن تنزل من جبلك إلى وادينا الخراب، فلا تنس أن تترك ولو زهرة ذابلة على أنصابنا، وشوارعنا ومقاهينا، سأمر لألتقطها من تحت أحذيتهم.

صديقي الأخير، يا أصلي وظلي، إلى لقاء أكيد. ربما.

طويت رسالة جلال العنيفة، مغالبا دمعة تطفر من عيني رغما عني، أحسستُ بقلبي منكسا، وقد بطنته الأيام برصاصها الخفي. حفظتها بدرج المكتب المغلق، وأخرجت نوتة محمد الصغيرة أفرها بأصبعين متصلدين لا يعرفان الكلال، تعلقتُ بها كما يتعلق التائه في ليل الصحراء بآخر نجوم الشمال.

(٣١)

وقفت يتأملني في الأفق المظلم مبتسما بانتصار لا تشفي فيه:

- الشيء نفسه؟ دائما؟

من بعيد؟ وعبر النافذة المشرعة، كان ثمة حشد من انفجارات الضوء الأبيض القرمزي تلتهب فوق الجبال، ويتعالى عمود متذبذب مخيف من الدخان الأسود. قلت أسأله:

- نباح الكلاب على القمر أو عليك؟

مد يده إلى النوتة، وطوح بها إلى النار الجبلية، كانت سيماؤه تنذر بالغضب وهو يأمرني بحزم:

- انس كل شيء وتعالَ معي.

- لكنك أنتَ لست هنا.

- ما من أحد هنا أبدا، متى تفهم؟

قادني، دون كلام، إلى الأعلى باتجاه الجبل الجنوبي، كانت شمس الليل تحرق قلبي، وتذيبه، بينما ينتصب عقلي متشككًا رافضا. أظلني بظله، وهو يتأمل البحر منهگًا زائغ البصر. همس:

- يمكننا البقاء هنا.. معا .

- هنا؟! معا؟!

بقي واقفًا يحملق في الضوء الأبيض المهتز على صفحة البحر، محاولا العثور على مهرب من اليوم الفائت. قال:

- وهكذا وصلنا إلى هذا الحال، أنت تتشبث بالرمل، وأنا أحلق في الفضاء الأسود للوجود.

حتى الساعة كنت صديقًا غبيا محدود الخيال، لماذا كنت غبيا ومحدود الخيال على هذا النحو المؤسف؟ كانت رحاب بين ذراعيه وروحه تنكرها. خبأ رأسه المتعب في صدرها المنتفخ باحثًا عن دفء أمومة تهبها لخالد وحده. همست مشفقة:

- لن تموت، لا تخف يا حبيبي.

أعطته فمها فقبلها، نزلا وقد تشابكت يداهما إلى حافة الجرف، يتنزهان على الساحل المتعرج، فتح لها باب السيارة الهوندا الجديدة، فاستجابت لدعوته بلا تفكير، وأدار المحرك منطلقًا بأقصى سرعة، وفي لمح البصر كانت العربة تهوي بهما إلى البحر. قبل أن يغص صدره بالماء المالح وجد لديه لحظة ليصرخ:

- كُـ... أمكم.

الليل يلف المستعمرة النائمة منذ فترة غير قصيرة. نهضتُ أفتح نافذة الشاليه. أسحب إلى صدري نفسا عميقا مستمتعا من أنفاسه المنعشة الرطبة. تلألأت قطرات الندى على أوراق شجرة الليمون المزهرة، ومن نافذة بعيدة لاح نور مصباح ساهر يغمر الظلام من حوله بظلال الجبال الشامخة بعظمة. جعلت نظراتي تجوس دامعة في السديم الليلى، رأيته مكفنًا برداء الرهبنة الأسود السابغ، يقبض بوهن على صليبه الخشبي المدلى من رقبته إلى صدره. كل شيء يذهب ويبقى وحده صامتًا متعاليا بإيمانه الكافر. أغلقت النافذة بآخر ما تبقى لدي من قوة مصمما على الرحيل إلى جبل أسيوط، أصغيتُ مرة أخرى إلى نباح الكلاب على

القمر، وأنا أضغط بشدة على ذراع خالد النائم أستجير به مني. كان الفجر بعيدا بعيدا، لا يزال. انتبهت عارفًا أني لن أحصل يوما على ما هو خير من هذا الفجر.

(٣٢)

نحو الغرب تمضي خُطى السائرين على درب الصمت، وفي جوف الجبل الغربي يبلغ المسافر محطته وينزل. في نزوله رهبة وتشوف، خشية وأمل. ينحني بإذعان ويتبع ما هو مرسوم له، اعبر.. يعبر، ترتعش قدماه على النصل الرهيف للصراط، تتبلبل أفكاره وترتعد روحه للنبأ العظيم. خطوة واحدة، اثنتان، والثالثة إلى أسفل. قرار الهاوية المنتظرة بشغف، المفتوحة على سرمدية الحياة، وقسوة البعث المتكرر تحترق جلود، وتنبت جلود، يرمى قميص، ويلبس قميص.

في أسيوط ترتفع شمس يونيو وكأنها تُفلت من سجن مدارها لتسكن صباح المدينة، قريبة، مصممة ومنذرة. ومن المشرق إلى المغرب تزحف قطع السحاب بلون الثلج عبر

السماء المجدبة الصامتة، ويكتسي الطريق بغبار أصفر دقيق وهو يتمطى بكسل تحت القيظ. كانت السيارة الأجرة قد خلفت وراءها منذ دقائق المدينة بنيلها وبيوتها، بنواديها وجامعتها، بغيطانها ومصانعها، وراحت تنهب الطريق الذي ترامت عن يمينه مدينة الموتى الرمادية المستريحة إلى حضن جبل الغروب الكسلي. تطلعت بنظراتي المجهدة من سفر الليل إلى سحائب دخان شركة السماد، وقمائن الطوب الأحمر، وقد ألقت بظلها الرصاصي على صفحة النيل المتباعدة، وشريط الخضرة المتآكل بين الماء والرمل. وفي الفجوات المضيئة برحم الجبل، تناثرت هنا وهناك عنابر وأكشاك وعساكر سمر يحرسون ما لا أعرف مما لا أعرف، ويتحصنون بالمصاطب الجيرية التي صقلتها ريح الانتظار والصبر بخفة راعشة أو بنزق عاتٍ.

دق قلبي في صدري وأنا أتذكر بكري الذي استطاع أن يمزح مع الموت ليحيا. تشبثت يدي بمقبض باب السيارة، ورحتُ أصفر لحنًا خفيفًا لعبد الحليم كنا نغنيه معا في ليالي الخدمة:

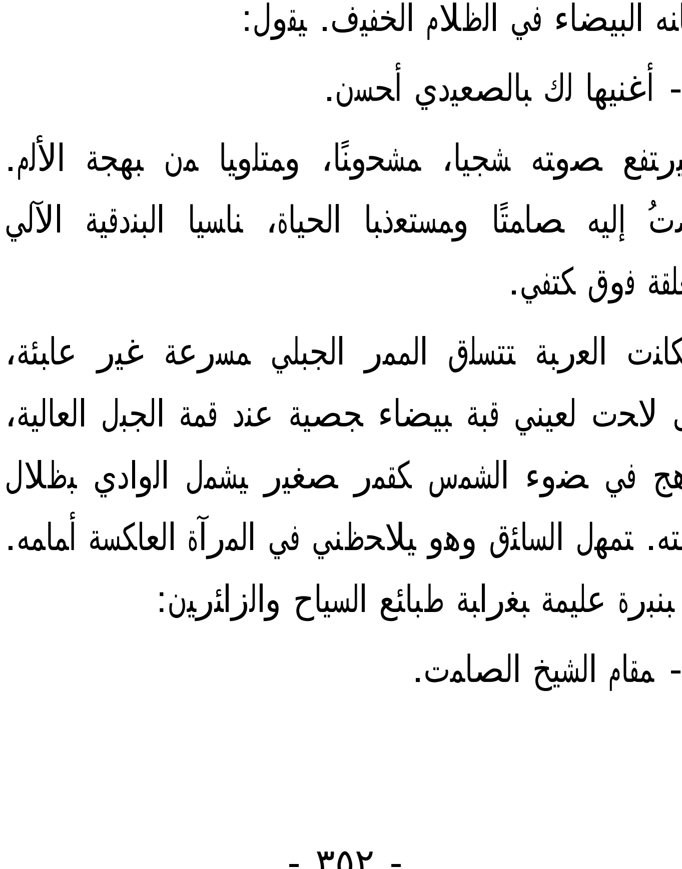
وأنا كل ما أجول التوبة يا بويا

ترميني المجادير يا عين

وحشاني عيونه السوده يا بويا

ومدوبني الحنين يا عين

يبتسم راضيا عن اللحن وجمال الليلة المنيرة، فتبرق أسنانه البيضاء في الظلام الخفيف. يقول:



- أغنيها لك بالصعيدي أحسن.

يرتفع صوته شجيا، مشحونًا، ومتلويا من بهجة الألم. أنصتُ إليه صامتًا ومستعذبا الحياة، ناسيا البندقية الآلي المعلقة فوق كتفي.

كانت العربة تتسلق الممر الجبلي مسرعة غير عابئة، حتى لاحت لعيني قبة بيضاء جصية عند قمة الجبل العالية، تتوهج في ضوء الشمس كقمر صغير يشمل الوادي بظلال محبته. تمهل السائق وهو يلاحظني في المرآة العاكسة أمامه. قال بنبرة عليمة بغرابة طبائع السياح والزائرين:

- مقام الشيخ الصامت.

كان ينفخ سيجارته بهدوء متابعا بصوت واثق راضٍ عن نفسه:

- بركة. يقولون إنه ينادي المجاذيب، ويطلبهم ليطلعوا إليه، أعرف واحدا من قريتنا من عائلة كبيرة ويمتلك عشرة أفدنة وحده، أصبح من مجاذيبه، يهجر بيته بالأيام والأسابيع ليعيش عند المقام، الغريب يا أستاذ إنه متعلم وابن مدارس ولم يظهر عليه علامات الدروشة إلا بعد أن ناداه الصامت، كما يقول:

- ألم تطلع عنده؟

- مرة واحدة، في المولد، كانت ليلة جميلة، ذكر وقرآن، لكني نزلت بسرعة قبل أن يشقشق الفجر.

- ولم ينادك؟

- ولماذا ينادي رجلا غلبانًا مثلي يجري على رزق عياله من الصبح حتى العشاء؟

رد جادا مستسلما، وفي صوته رنة إشفاق وتصاغر لا تكاد تبين. طلبت منه التوقف قليلا، فانحرف بالسيارة إلى يمين الطريق، مبقيا على محركها دائرا ينبض بنبضات

مرتعشة مكتومة. فتحت الباب نازلا إلى الرمال الخشنة الملتهبة متقدما باتجاه سفح الجبل، وسألته بصوت مرتفع:

- قلت اسمه الشيخ الصامت؟

- اسمه الحقيقي لا أحد يعرفه، يحكون عنه أنه لم يفتح فمه بكلام أبدا، إلا عند تلاوته للقرآن. كان يعتزل الناس في صومعته بالجبل، ويحدث الوحوش والحجارة والخلاء، فسموه الشيخ الصامت.

سحب نفسا أخيرا من سيجارته ورمى بعقبها إلى الرمل ليظل مرتعشًا ببقايا اشتعاله لحظة، قبل أن تطمره قدمه نهائيا، في بطن الصحراء. وقفت أفكر دقيقة في غواية الصمت الخالدة مستغربا معجزات الصوت في نهارات وليالي المدن، همهمات وصرخات البشر المنتشية المرتعبة الممدودة الراقصة ترفعها قلوبهم إلى أذن الوجود. قفلت راجعا إلى السيارة بخطى كسول بطيئة وبين قدمي تزحف خنفساء باحثة عن سبيل للهرب من تلك الظلال الضخمة الغريبة التي تقتحم فراغ صحرائها الرصين الأليف. شيعتها بنظرة حاسدة. كانت في زمانها ومكانها المناسبين راضية

مكتفية وبريئة من كل سؤال. دقائق معدودات وصار السائق ينبهني مشيرا بيده إلى الجبل ويهمس:

- الدير.

من فوق أطل علينا الدير بمبانيه وأسواره، معتصما بحضن الجبل، عند منتصف المسافة بين الأرض والسماء، بدا كقطعة من قلب المدينة وقد زرعت بقوة مجهولة في الصخور الجرداء وظلت معلقة حافظة لتوازنها الخطر بين أشواق العلو وجاذبية الهاوية. وتحت أقدامه تنعس القرية الصغيرة بكنيستها المتواضعة، وبيوتها المعدودة الملتمة على نفسها، وأهلها الذين تتشبث أقدامهم بطين الوادي، وتشخص أبصارهم نحو ملكوت السماء وقلايات النساك. في شمس النهار، أو في عتمة الليل، كان ناجي يقف هناك ساكنًا يتأمل الشموع الضئيلة بلهبها المرتجف أمام المذبح العتيق، وسابحا في السماء الشبيهة ببحر صافٍ، قاضما خبز الذكرى المر ونبيذ دم السنين. كانت مقدسة، بطقوسها المغوية المبتذلة، وها قد مر الليل والنهار في عبادات غريبة لرب تنداح مشيئته عبر الحياة كلها، تحرك أمواجها مثل قلب رهيب لا عقل له. ارتقينا الطريق الممهد الملتف على نفسه حول الجبل

حتى بلغنا البوابة الحديدية الضخمة التي تفصل، بخطوة واحدة لا غير، بين عالمين وأملين. قال السائق:

- يمنعون دخول السيارات.

قفزت بخفة إلى الأرض الجديدة منصتًا إلى دقات قلبي بوجيبها القوي المترع بزفرات الأمل. نقدته ورقة بعشرين بزيادة خمسة جنيهات عن اتفاقنا. لمحت عينيه تتسعان بالدهشة والفرح، وسأل بصوت تلوثه شوائب من طمع:

- أنتظرك حتى تزور؟

شكرته بسرعة لأصرفه، واستدرت نحو البوابة ألجها من فرجة جانبية بأقصى اليسار. لمحت جرسا كهربائيا معلقًا هناك فضغطته بانفعال ليبرز لي وجه الحارس العجوز المتغضن بنظرته الجامدة، وبنبرته الجافة غير المرحبة:

- لا زيارات اليوم.

سقطت كلماته على رأسي كحجر، هل كنت أقطع المسافات، واصلا الليل بالنهار في سفر مرهق لا نوم فيه ولا صحو لتردني كلمة خائبا مهزوما أمام بوابة دون ألقاه؟ كانت الصخور والزيزان وبضع شجيرات تراقبني في صمت وأنا أهتف مناشدا ومتصلبا:

- أرجوك. أقابل المسئول هنا.

لم يبد على العجوز أنه فهم شيئًا مما أقول، وإن استشعر، لا بد، لهفتي وارتعاشة الرجاء المعذب في صوتي. أفسح لي سبيل المرور مشيرا علي بالاستراحة فوق دكته الخشبية، وهو يسأل:

- يظهر أنك جئت من سفر بعيد.

- بعيد، بعيد جدا .

- على كل حال سأذهب وأخبر أبانا، استرح يا ولدي.

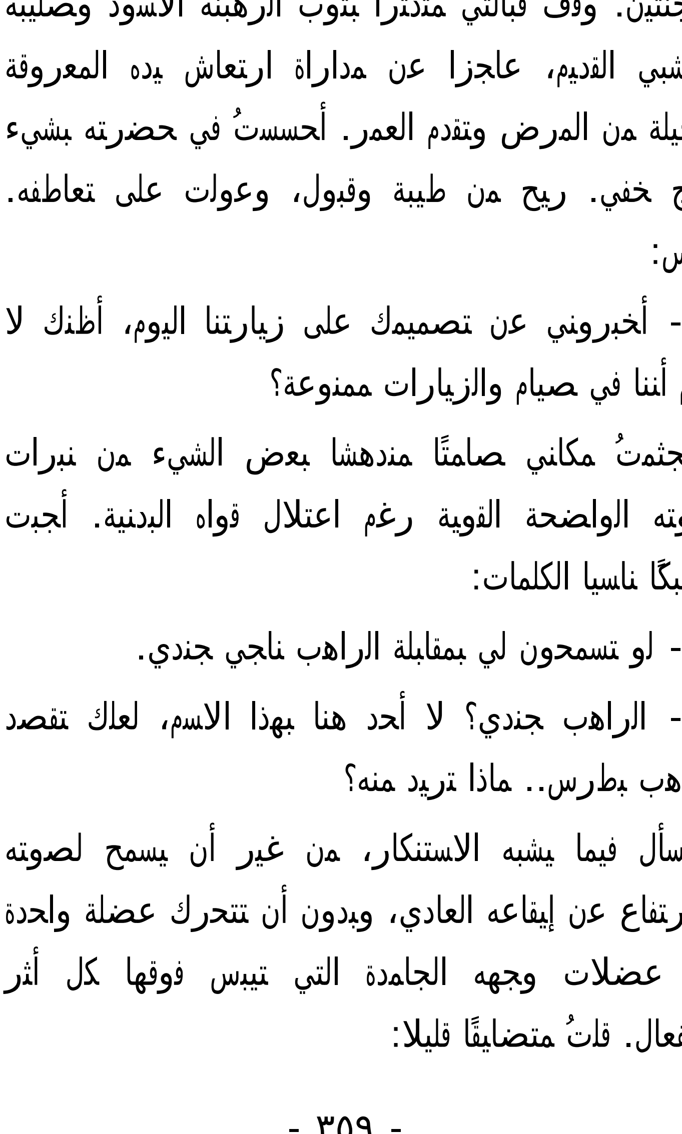
اختفى وراء بوابة خشبية تتوسط السور الداخلي المنخفض الذي لا يبين من خارج الدير. جلستُ قلقًا ومحاصرا بين سورين وبوابتين تعيدني إحداهما إلى عالم أعرفه، وتقودني الأخرى إلى عالم آخر مغلف بالغموض والسرية المثيرة. كنت أرفض وضوح أولهما وصراحة لعنته، طامحا إلى هتك حجاب الثاني وفهم خوافيه، متحيرا، أين يسكن الرب؟ أطل العجوز علي بخطواته النشطة وظهره المنحني بأحمال السنين. همس مبتسما:

- ستقابل أبانا تيمو ثاوس.

تبعته إلى باحة الدير الداخلية. على اليمين كان محل بيع التذكارات المقدسة الصغيرة مقفًا، وإلى اليسار رصت صفوف من شتلات الصنوبريات ونباتات الظل وأشجار النخيل النادرة في أصصها القناوي تلتصق بها وريقات بيضاء مكتوب عليها سعر البيع للزوار والحجيج. أدخلني العجوز حجرة واسعة مريحة تم تأثيثها ببعض المقاعد الجلدية ومكتب إيديال خفيف، وفُرشت أرضيتها بالكليم الأسيوطي بزخارفه النباتية والحيوانية. على الجدار المواجه للمكتب وقعت عيناي على لوحة زيتية قديمة للمسيح فوق الصليب، وتاج الشوك يحيط برأسه المائل نحو اليسار في وهن، وعيناه جاحظتان وشاخصتان إلى سماء تتجمع فيها الغيوم الداكنة، وقد أطلت منهما نظرة ضراعة إلى قوة الأب كي تعبر عن كأس الموت. نظرته تشي بمعرفته الأكيدة للطريق الذي ما أبصرته عيناه بعد، وتنحني بإذعان وتتأرجح برقة على صفحة بحر السماء المرتطم.

- مرحبا بك في دير العذراء.

التفتُ إلى مصدر الصوت لأطالع ابتسامته الذاوية، ونظرة عينيه النافذة تموج ببريق خاطف. كان قصيرا، غامض



السمرة، شائب شعر الرأس واللحية، وناتئ عظمتي الوجنتين. وقف قبالتي متدثرا بثوب الرهبنة الأسود وصليبه الخشبي القديم، عاجزا عن مداراة ارتعاش يده المعروقة النحيلة من المرض وتقدم العمر. أحسستُ في حضرته بشيء بهيج خفي. ريح من طيبة وقبول، وعولت على تعاطفه. همس:

- أخبروني عن تصميمك على زيارتنا اليوم، أظنك لا تعلم أننا في صيام والزيارات ممنوعة؟

جثمتُ مكاني صامتًا مندهشا بعض الشيء من نبرات صوته الواضحة القوية رغم اعتلال قواه البدنية. أجبت مرتبكًا ناسيا الكلمات:

- لو تسمحون لي بمقابلة الراهب ناجي جندي.

- الراهب جندي؟ لا أحد هنا بهذا الاسم، لعلك تقصد الراهب بطرس.. ماذا تريد منه؟

سأل فيما يشبه الاستنكار، من غير أن يسمح لصوته بالارتفاع عن إيقاعه العادي، وبدون أن تتحرك عضلة واحدة من عضلات وجهه الجامدة التي تيبس فوقها كل أثر الانفعال. قلتُ متضايقًا قليلا:

- إنه صديقي.

- صديقك الذي تريده لا وجود له هنا، لقد قطع على نفسه عهدا مع الرب، ومات عندكم، ليبعث في يسوع. أنت مسلم أظن. ومع ذلك فإنك تفهم بالتأكيد ما أقول.

سكت دقيقة أخرى مشحونة بالترقب والانتظار، قبل أن يردف بصوته الممتلئ البطيء وهو يواصل التحديق في عيني:

- على كل حال الأمر متروك له إذا كان يوافق على لقائك أم لا، هل فكرت أنه قد يعتذر عن ذلك؟

- لا أظنه بهذه القسوة.

واجه الشيخ احتجاجي وتعريضي الخفي بكلماته بثبات، مغمضا عينيه نصف إغماض وهو يجيب بصوت راسخ:

- لا قسوة في الموت أو البعث، بل حقيقة وخلاص، ادفن موتاك يا ولدي، وإياك ونبش القبور.

نكستُ رأسي موقنًا من خيبة مشواري، وقمت متثاقلا أوليه ظهري في طريقي نحو الخارج بلا كلام. على عتبة الغرفة، قبل الخطوة الأخيرة، أتاني صوته الواطئ مراجعا:

- لو أنه وافق على لقائك، هل تعدني بعدم فتح صفحة الماضي؟

- ليس بيننا إلا هذا الماضي.

- لتكن مشيئة الرب. سأخبره بوجودك، وله الاختيار.

تنهد بتسليم مفاجئ وهو ينهض بتؤده مغادرا الحجرة إلى الباحة الخارجية، تطلعت من النافذة الصغيرة لأرى الظلال تكثر وتدكن، والشمس تبدأ رحلة انسحابها التدريجية نحو الطرف الآخر من العالم، غمرني السكون والصمت الشامل على غير توقع. رجتني رحاب:

- عنوانه في طنطا، لا بد أن أراه قبل سفري.

استدارت مبتعدة وهي تقبض على الورقة الصغيرة، فتوهج في داخلي ألم الرثاء. كانت صغيرة جدا، ووحيدة جدا، وبرغم كبريائها وتصرفاتها الطائشة في كثير من الأحيان عادت لتعترف لي، وكأنما تقصد أحدا آخر غير نفسها:

- أعطيته ما كان ينبغي أن أعطيه منذ البداية، لماذا لم أوفر على نفسي وعليه كل ذلك العذاب؟

- لكنك الآن ملك لمحمد، ماذا فعلتِ يا مجنونة؟

سحبتْ نفسا محرقا من سيجارتها، وضح جسدها بالضجر والضيق مما جعلها تصرخ في وجهي:

- لستُ ملكًا لأحد.

- لعبة خطرة وأنانية يا رحاب، لماذا تصرين على بقائه طول عمره متشعلقًا بحبالك القديمة؟

ابتسمت بسخرية واثقة أنني حمار لا أفهم. قالت باشمئزاز:

- لستُ أكثر من أخلاقي تافه كما يقول محمد، سأبوح لك بسر صغير، إنه محمد الذي حرضني على النوم معه، فهل تفهم؟

لاحت لعيني الساهرتين المجهدتين صورته المهتزة في ردائه الأسود الفضفاض وغطاء الرأس المزين بصلبان ثلاثة مطرزة بخيوط ذهبية دقيقة عند الجبهة، أعلى من نقطة التقاء الحاجبين مباشرة. كانت لحيته تنمو بصعوبة جلية، ولم تفلح في مداراة شحوب وجنتيه، وبروز عظام فكيه. قمت أعانقه، أضمه إلى صدري، قبل أن تجمدني في مكاني نظرة زائغة تطل من عينيه المطفأتين تحت نظارته القديمة. هتفت بحرج:

- ناجي.

ظل ناجي عند المدخل كأنه لم يسمعني، أو كأنني أنادي شخصا غيره، أكان علي أن أناديه باسمه الجديد؟ الراهب بطرس.. هل أعرف أنا هذه الراهب بطرس؟ وقعت نظرتي بمصادفة على يديه الضئيلتين المخشنتين هونًا، بدتا لعيني مفعمتين بالحياة وغير خاملتين، برغم كل شيء كانت ثمة حياة تتسرب خارجه من دمه، حياة غريبة لا أفهمها، وأومن أنها ليست هراء على أية حال. قال:

- أشتغل كثيرا في تنظيف المضيفة وفي المشتل، وأحيانًا في معمل الألبان، وفي غير أوقات الصلاة والعمل تحن يدي لمداعبة الألوان والزنك والصمغ والأسفيداج، هل تنظر إلى بعض صوري؟ إنها واضحة التعبير، تنطق بالألم الباطن وثبات نظرة العينين إلى الأفق. لكن ألا تعتقد أنها أرضية جدا؟ ملوثة بحس الشهوة والحياة؟ كثيرا ما أعجز عن التفرقة بين العذراء والمجدلية، وبين يسوع ويهوذا، أيمكن أن يكون ذلك مقبولا؟

- أشرف.. بلحيته والحربة في جنبه، كيف يشبه المسيح في صورك كل هذا الشبه؟

- اسمع. أشرف أو المسيح أو يهوذا أو ناجي، لا فرق بينهم جميعا، كلهم واحد، وجوه متعددة لنفس الروح وقد انعكس في مرآة الظلام والنار. نعم وشيتُ به، وشى ناجي بناجي، مثلما ارتقى يهوذا جلجلته بثلاثين من الفضة وأدرك الحياة وولج الملكوت، لا لنفسه، بل للإنسانية، بفعل حياة معكوس. يقول الأب تيموثاوس إنني شيطان بقلب قديس، أما أنا فأشفق على الشيطان من قداستي.

راح يضحك ضحكًا عاليا، متسهترا وأنا أرقبه مفكرا في الملاك المحترق باللهب. لهب الحياة أكبر مما يطيق قلب الملاك الممتلئ غبطة حين يلبي ما يظنه وحده نداء ا ، أما ا فما وجِد هناك بعد، والنداء المغوي ليس نداءه، ولا نداء من يعمل ضده بإخلاص عنيد، دون أن ينخدع قلبه بإغراء طموح مستحيل أن يغدو صنوه ونده وقرينه المظلم. قلتُ بإشفاق:

- ارجع معي يا ناجى، من تخدع بوجودك هنا؟

ابتسم بحزن وهو يجيل في وجهي نظرة خابية، ثم يحني رأسه إلى الأمام مندفعا باتجاهي كأنه يهم بمعانقتي. قال:

- الدم المراق يحفظ العالم من الانهيار، الظل يسند الوجود، ألا ترى كيف يحث الموت نفسه داخل الحياة؟

لحظة، اثنتان.. ركضت في دمائي خيول العذاب والأمل، كان كالواقف عند نقطة الوداع الأخير، يرمي ببصره إلى ما وراء العذاب والأمل. ضرب الهواء بجناحيه المكسورين وسبح متثاقلا أعلى من تراب الجبل بشبرين.

من مكان ما بالخارج دقت أجراس كنيسة الدير، تدعو الرهبان لصلاة المغرب. وقف الأب تيموثاوس قبالتي معتذرا:

- لا يريد أن يغادر قلايته، آسف يا ولدي.

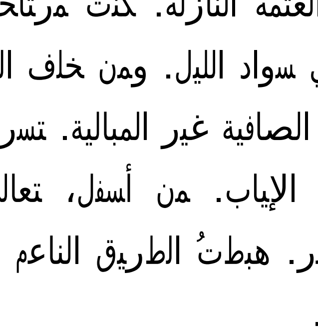
تقدمني بخطوات ثابتة متعجلة إلى بوابة الدير، تسمر في مواجهتي دقيقة، ثم وضع يده في جيب ردائه الكهنوتي ليخرج تفاحة كبيرة ناضجة ويقدمها لي بلطف:

- للطريق.

قبلت عطيته صامتًا. كانت شفتاه الجافتان المتشققتان ترتعشان بوهن بينما ينضج بداخلي في هدوء قرار خفي لا ملامح له. همس بوضوح:

- مع السلامة.

التفت أودعه بهزة بسيطة من رأسي غير متيقن إن كان قد رآها في العتمة النازلة. كنتُ مرتاحا لرؤية المكان يغطس تدريجيا في سواد الليل. ومن خلف الجبل لاح نجمي يرعش في السماء الصافية غير المبالية. تسرب إلى قلبي فرح هادئ واستعجلت الإياب. من أسفل، تعالى نباح الكلاب تحيي ظهور القمر. هبطتُ الطريق الناعم الملتوي خفيفًا، لا ألوي على شيء.



الإسكندرية

مايو ١٩٩٨